توفيق رب البرية

في حل المسائل القدرية

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ

توفيقُ ربِ البريّــة
في حلِ المسائلِ القَدَْرِيّــة

تأليف

خالد بن علي المرضي الغامدي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي نصر عبده وأعز جنده وأظهر شرعه وأخفى قدره، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه عالم بالخفايا كاتب للقضايا مقدر البلايا خالق البرايا حكيم عليم عدل رحيم سبحانه وهو الغفور الرحيم، والصلاة والسلام على إمام الموحدين ومجاهد المجوس والقدرية والمعاندين وآله وأصحابه الغر الميامين الذين بقوا على هديه مستمسكين وعلى أتباع هديه المقتفين أثره إلى يوم الدين. وبعد.

فإن باب القضاء والقدر من أعظم أبواب الدين وأحد شقيه الثمين، فهو السر المكتوم والعلم المفقود الذي من آمن به نجا ومن خالف حقيقته بغى، وقد جاء موضحاً في القرآن بأحسن بيان وأبلغ حجة فأزال الإشكالات القدرية ورد على المجادلين فيه والمخاصمين به ، حتى صار القدر واضحاً لمن نور الله قلبه وأضاء دربه وهداه واجتباه .

هذا مع أنه في غاية البيان حتى ولو لم يأت وروده في الشرع، وهو أمر واجب الإتباع وسبيل واضح البرهان، ولا تجوز مخالفته ولا معارضته لأنه أمر فطري فطر الله الناس عليه، ولهذا كان القدر أمرا مجمع عليه بين الطوائف والملل والنحل ولم ينكره أحد بالكلية حتى إبليس والمجوس اعترفوا به وزعموا أن أفعالهم من القدر أو الخير منها وأنهم ما فعلوا إلا ما قدر الله[1] .

---

[1] بل حتى القدرية الغلاة الذين ينكرون القدر وعلم الله بالأشياء فإنهم في الحقيقة مقرون بأصل العلم والقدر لكن وجه مخالفتهم في كونه سابق وأزلي فيقولون الله يعلم بالشي ويقدره إذا وقع ولا يعلم به قبل وقوعه فهم يثبتون أصل القدر وأن كان لا ينفعهم ذلك .

ومما يدل على أهمية الكلام في القدر والإيمان بـه تكـرار الرسـول صـلى الله عليـه وسلم لفظة الإيمان به بقوله: "وأن تؤمن بالقدر خيره وشره ".

قال النووي: " وكأن فيه إشارة لما يحصل فيه من مخالفة وإنكار فكرر وجوب الإيمان به تأكيداً على أهمية الإيمان به " .

ومما يزيد الأمر أهمية أن المخالفات في القدر كثيرة ومتنوعة قديمة ومتجددة فأول مخالفة حصلت كانت في القدر وعدم الرضا به وأول قدري على هذه البسيطة إبليس اللعين حيث خاصم رب العرش بين يديـه بعقلـه وسـخط قـدره فـسخط الله عليـه وأفسد عقله ولعنه وأخزاه ولذلك تنسب إليه الفرقة القدرية الإبليسية .

وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الخوض في القدر وذم فاعليـه وحـذر منه وغضب حين رأى مثل ذلك من بعض صـحابته بوسوسـة هـذا اللعـين، ومنـذ موت الرسول صلى الله عليه وسلم والقدر يجد من يعترض عليه ويخوض فيـه بغـير علم، حتى وجدت الشبه ونشئت البـدع فتأصـل الـضلال فيـه والـصحابة لازالـوا أحياء موجودين، فهذا ابن عمر وابن عباس يكفّرون القدرية ويحـذّرون مـن إنكـار أحد مراتبه، لأن من أنكر شيئا منه فقد أنكره، وإلا فغـلاة القـدر معترفـون بالقـدر أصلاً ولكن قالوا القدر مقارن ومعاصر للمخلوقات وليس سابق لها .

ومن ذاك الوقت إلى عصرنا والقدر محل تـدافع بـين قـدري وجـبري ومعـرض ملتمس في القدر حجة ولذنبه عذراً[1] . فالقلاقل في باب القدر في هذه الأمـة كثـيرة متجددة إلا أنه بفضل الله قـد أنـبرى لهـا مـن بعـد الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم

[1] هذه أقسام القدرية الثلاثة القدرية المجوس ، والجبرية المشركة والإبليسية كما سيأتي .

والصحابة الأئمة ، كالإمام البخاري فكتب رده عليهم بمصنفه (خلق أفعال العباد) وكذلك الأئمة بعده حتى جاء ابن تيمية رحمه الله فرد عليهم في المنهاج والدرء وغيرها ، وابن القيم في المدارج وشفاء العليل والعمراني قبلهم في الانتصار، كذا ألفت بعض الرسائل المعاصرة النافعة، والكل قد اجتهد فأحسن وأفاد وأجاد والكمال لله وحده اختص به عن غيره .

ولمّا لم أجد كتاباً جامعاً لمسائل القدر راداً على الفرق الضالة فيه يشفي العليل ويروي الغليل فكل أبدع في جانب ونسي جانب وأطال في جانب واختصر في جانب والمشتت من ذلك أكثر مما جمع ، جعلني ذلك أنظر بعين الحزم والجد في جمع لما تشتت وتهذيب لما طول وشرح لما اختصر ، ومما زادني حرصاً على الكتابة في هذا الباب أني كلما شرحت متناً من كتب الاعتقاد إذا ورد القضاء والقدر فيه كثرت الإشكالات والأسئلة مما جدد العزم ورفع الهمة.

وإن من الأمور التي يسرت هذا المؤلف أني قد كتبت ردوداً على بعض القدرية المعتزلة في القدر والصفات وحكم أهل الكبائر والرؤية وغيرها، وقد عقدت المناظرات مع أئمتهم ومشايختهم [1].

وقد وعدت بعض طلابي الذين كانوا على الزيدية القدرية ممن رجع للسنة كتاباً جامعاً في القدر فاستعنت بالله في هذا العمل المهيب الذي زلت فيه الأقدام وانطوت عن إدراكه كثير من الأفهام .

---

[1] ومن ذلك مناظرتي لإمام الزيدية في عصره مفتي اليمن سابقاً مجد الدين المؤيد مع بعض طلابه وكذلك الفقيه السيد محمد الحطبة إمام جامع الزيدية بنجران سابقا وقد رجع الأخير في بعض مسائل القدر لمذهب أهل السنة والحمد لله على ذلك في عام عشرين وأربعمائة وألف .

فجمعت ما كتبت من ردود ورسائل في الباب وأيضاً ما قمت بشرحه من متـون العقيدة كالطحاوية وسلم الوصول والتدمرية وما ألحقته من كلام ابن تيمية في كتبـه وتلميذه ابن القـيم في الـشفاء، إضـافة إلى مـا كتـب في القـدر والعقيـدة مـن قـديم وحديث ، فكان كتاباً كبيرا في حجمه حملني على حذف المكرر منه وإيـضاح المـبهم، ثم حاولت اختصاره بقدر الإمكان حتـى يقـرأ ويفهـم ويكـون نـورا لأهـل الـسنة شارحاً لنصوص الحق بالأدلة والبراهين، شوكة في نحور الضالين والمخالفين .

فجاءت هذه الرسالة القدرية الجامعـة النافعـة بتوفيـق رب البريـة في حـل المـسائل القدرية جامعـة لأبـواب القـدر ومـسائله ، لم أتـرك شـاردة ولا واردة بـإذن الله إلا وبينتها[1]، فهو بحمد الله وتوفيقه يعتبر جامعا لما كتب وألف في القدر وقـد أسـميته: (توفيق رب البرية في حل المسائل القدرية)، واخترت التوفيق لاعتقادنـا الـصافي في الهداية والتوفيق المخالف للقدرية والجبرية فضلاً من الله وتوفيقا .

والله أسأل أن ينفع به ويبارك فيه، ويجعل هذا العمل خالصاً لوجهه محققاً لمراده ويرزقنا العلم النافع والعمل الصالح ويتوفانا وهو راض عنا. والله أعلم وصـلى الله وسلم على نبينا محمد .

كتبه / خالد بن علي بن عوضة المرضي الغامدي

سنة ١٤٢٢هـ ببلجرشي

---

[1] لقد حرصت على الاختصار مع استيعاب جميع المسائل القدرية قدر المستطاع، وقـد تعمـدت حـذف النقـولات حتى لا يكبر حجم الكتاب إذ المبتغى سوق معنى المسألة مع الإحالة لمصادرها ولم أعتن بالنقل إلا إن كان مختصراً . كما حذفت أقوال المبتدعة بنصها بعد كتابتها لما رأيـت تـضخم الرسـالة وأفردنـا أقـوال المبتدعـة برسـائل مـستقلة وسيصدر قريباً أقوال الأشاعرة والماتريدية في العقيدة وكذا أقوال المعتزلة وبقية الفرق المعاصرة .

مضمون الكتاب

الفصل الأول : تعريف القضاء والقدر والفرق بينهما .

الفصل الثاني : ما يجب اعتقاده في القضاء والقدر .

الفصل الثالث : ما يجب على العبد تجاه قضاء الله وقدره .

الفصل الرابع : الحديث في القدر وحكم الخوض فيه.

الفصل الخامس : فوائد وأثار وثمار الإيمان بالقدر.

الفصل السادس : أقوال جامعة للسلف في القدر .

الفصل السابع : علاقات القدر بالمسميات الشرعية ومكانته منها .

الفصل الثامن : الأدلة على ثبوت القدر .

الفصل التاسع : مراتب القدر وأركانه .

الفصل العاشر : التقادير والكتب .

الفصل الحادي عشر : الفرق والمذاهب القدرية الضالة القديمة .

الفصل الثاني عشر : أدلة المخالفين وشبهاتهم والرد عليها .

الفصل الثالث عشر : الإرادة الربانية وأقسامها [1].

الفصل الرابع عشر : الهدي والضلال والتوفيق والخذلان والطبع .

الفصل الخامس عشر : أفعال العباد والكسب والجبر .

الفصل السادس عشر : الشر وعلاقته بالقضاء الإلهي .

---

[1] هذه بداية المسائل الخلافية وهي خمسة عشرة مسألة ذكرت فيها الأقوال وشبهات ومنشأ الخلاف وسببه وهل وافقت كل فرقة أصلها أم لا. كذلك علاقة كل مسألة بأصل الباب خصوصاً إذا كانت خلافية وحصل نزاع الفرق القدرية فيها مثل مسألة الحكمة والتعليل والتحسين والظلم والأسباب.

الفصل الأول

تعريف القضاء والقدر ومعناهما والفرق بينهما

المسألة الأولى : معنى القضاء لغة :

إحكام الشيء وإنهاء الأمر .

قال ابن الأثير في النهاية : القضاء في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه .

وقال ابن فارس: يدل على إحكام الأمر وإتقانه وإنفاذه .

جمعه أقضية ، وهو بالمد والقصر قضاء وقضى .

وقد ورد القضاء في القرآن على معاني وكلها ترجع إلى المعنى السابق ، وهي :

١- بمعنى الأمر : قَالَ تَعَالَى:﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ الإسراء: ٢٣.

٢- بمعنى الإنهاء :﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾ الحجر: ٦٦.

٣- بمعنى الحكم : قَالَ تَعَالَى:﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ طه: ٧٢.

٤- بمعنى الفراغ : قَالَ تَعَالَى:﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ فصلت: ١٢ .

٥-الأداء : قَالَ تَعَالَى:﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ البقرة: ٢٠٠ .

٦- الإعلام:قَالَ تَعَالَى:﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الإسراء: ٤.

٧- الموت : قَالَ تَعَالَى:﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ القصص: ١٥ وفيه معنى الإنهاء اللغوي وهو انتهاء الحياة.

٨- القدر والتقدير .

وهذه المعاني ، بينها تقارب وترابط واضح وبيّن .

المسألة الثانية : معنى القدر في اللغة :

قال ابن فارس: القدر يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته .

وهو بتسكين الدال وفتحها ويأتي بضم القاف.

ويطلق على معاني :

١ – الحكم والقضاء : وفي حديث الاستخارة " فاقدره لي ويسره لي ".

٢ – الطاقة والقدرة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ ﴾ البقرة: ٢٣٦.

٣– التضييق قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ الأنبياء: ٨٧ .

٤– التقدير " فإن غم عليكم فاقدروا له " .

٥– القياس : قدرته قسته .

٦– التهيئة والتوقيت .. وغير ذلك .

والملاحظ أن أكثر المعاني في القضاء موجودة في القدر وكذلك العكس فيتبين الترابط الوثيق بين القضاء والقدر في اللغة وكذا في الاصطلاح الشرعي .

المسألة الثالثة : تعريف القضاء والقدر ومعناهما شرعاً :

هو تقدير الله تعالى للأشياء في القدم وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده وعلى صفات مخصوصة وكتابته سبحانه لذلك ومشيئته له ، ووقوعها على حسب ما قدرها وخلقه لها .

وهذا التعريف جامع لمراتب القدر الأربعة :

١ – العلم السابق الشامل

٢- الكتابة والتقدير

٣- المشيئة والإرادة

٤- الخلق والتكوين

وهناك تعريفات أخرى وكثيرة للقضاء والقدر وأجمعها ما جمع هذه المراتب وهي علم الله السابق بالأمور وكتابته لها ومشيئته بعد ذلك وخلقه لها . وستأتي هذه المراتب وأدلتها .

المسألة الرابعة : الفرق بين القضاء والقدر:

اختلف أهل العلم في المسألة على أقوال :

القول الأول : أنه لا فرق بين القضاء والقدر فهما بمعنى واحد .

القول الثاني : أنهما إن اجتمعا في اللفط افترقا في المعنى وإذا افترقا اجتمعا مثل الإسلام والإيمان والإلوهية والربوبية .

القول الثالث : أن كل واحد منهما له معنى يخصه مستقل عن غيره .

القول الرابع : أن بينهما عموم وخصوص فيشتركان في بعض المعاني ويختلفان في أخرى .

أقوال من فرق بينهما :

فسر البعض القضاء بالخلق والتمام والإنهاء ، والقدر يكون قبله بالتقدير والكتابة.

وقيل العكس القضاء العلم، والقدر وقوع الخلق على الأمر المقضي.

إلى غير ذلك من الأقوال الفرعية في المسألة .

والذي يظهر لي والله أعلم :

١- أن القضاء والقدر إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا .

٢- وأنهما إذا اجتمعا افترقا من أوجه ولا يفترقان من كل الوجوه بل يشتركان في معاني ويفترقان ويختلفان في معاني أخرى .

فيجتمعان في العلم وعموم المشيئة والتقدير العام .

ويفترقان في وجوه فيختص القدر بالتقدير السابق والقضاء بما بعده من الخلق والإتمام والإنهاء فكأن القدر تقدير والقضاء إيقاع ذلك التقدير وإتمامه وحكمه، فالقضاء مرحلة تعقب مرحلة القدر فهو سابق والقضاء لاحق . وأما إذا قيل القدر بمفرده أو القضاء بمفرده فإنه يشمل جميع ما يعني الآخر ولا فرق .

الفصل الثاني

خلاصة الواجب اعتقاده في القدر

١- يجب على العبد أن يؤمن بمراتب القدر الأربع :

فيؤمن بأن الله يعلم كل شيء وعلمه سابق شامل ، ويؤمن أن كل شيء قد كتبه الله وشاءه وأراده وأن الله خالق كل شيء لا موجود إلا والله قد خلقه وقدره وأوجده لا خالق غيره .

٢- وأن من جملة ما خلقه الله وهو داخل في القدر أفعال العباد خيرها وشرها الطاعة والمعصية ، ولا يعني أن الله لم يقدر العبد على فعله بل أعطاه الله اختياراً وإرادةً وقدرة تابعة لمشيئته وداخلة في عموم خلقه سبحانه وتعالى .

٣- ومما يدخل في الإيمان بالقدر التقادير التي كتبها الله في اللوح المحفوظ وتقدير الميثاق والتقدير العمري والسنوي واليومي والتكليفي.

٤- وأن الإرادة على قسمين :

إرادة كونية قدرية لابد من وقوعها، وقد لا توافق المحبوب .

وإرادة شرعية يحبها الله ، وقد لا تقع .

٥- وأن الهداية قسمان:

هداية الدلالة وهي عامة لكل إنسان . وهداية التوفيق وهي خاصة بالمؤمن .

وأن الضلال والهداية والخذلان والطبع والتوفيق والخذلان لها جانبان :

جانب من الله وجانب من العبد بالسبب .

٦- وجوب الإيمان أن القدر من الغيب ، والغيب اختص الله بعلمه لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل .

٧- الإيمان بأن الله تعالى خلق وقدر الشرور والمعاصي والمال الحرام وأنها موجودة بحكمته .

٨- وأن القدر الذي هو فعل الله لا شر فيه ، وإنما الشر ينسب للمقدور المخلوق فالشر في المفعولات المقدورات لا أفعال الله وقدره.

٩- ومما يدخل في القدر الواجب تصديقه أن القدر قسمان مثبت مطلق لا يتغير وهو ما في اللوح المحفوظ، وقدر معلق وهو ما في صحف الملائكة .

١٠- وأن كل ما يفعله الله ويقدره ويخلقه فهو حاصل بحكمته فأفعاله معللة بحكمته.

١١- وأن الله عز وجل منزه عن الظلم، وإن كان قادر عليه، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، وأن الله لا يكلف عباده إلا ما يطيقون.

١٢- أن القدر يشمل الأسباب والمسببات، فالله خالق للسبب والمسبب ، خالق للنار وإحراقها، وأن الأسباب لها تأثير حقيقي في مسبباتها بقدرة الله وعلمه وما أودعه الله بها من قدرة وخصائص وتأثير .

١٣- أن الله تعالى لا نوجب عليه شيء بعقولنا إلا ما كتبه على نفسه فضلا منه .

١٤- وأن العقل يعرف حسن الشيء وقبحه في كثير من الأفعال ، ولكن العقاب والثواب بالشرع لا بالعقل ، فالعقل تابع للشرع وليس مستقل في الحكم .

١٥- وأن الاستطاعة على قسمين : شرعية قبل الفعل ومعه بمعنى الصحة والسلامة، واستطاعة قدرية وتكون مع الفعل وهي بمعنى التوفيق والإعانة .

١٦- وأنه ليس كل ما أراده الله فقد أحبه ، مثل إرادة الله وجود الكفر.

١٧- وأنه ليس كل ما أمر الله به فقد أراده ، مثل أمر الله إبراهيم بذبح ابنه .

١٨- وأنه يجب على العبد أن يرضى بالقدر ويصبر على ما قدره الله من مصائب، ولا يرضى بالمعاصي وإن كانت من قدر الله .

١٩- وأن القدر يحتج به في المصائب لا في الذنوب والمعائب .

٢٠- وأن لا نعارض القدر بالعقل ، فهو من الغيب والسر الذي يحير العقول، مما يوجب الإيمان والتسليم لا الاعتراض والخوض بالباطل فيه .

هذه جملة ما يجب على المؤمن اعتقاده في القضاء والقدر .

وهذه المسائل المذكورة هنا سنوضحها ونشرح مراد أهل العلم فيها في ثنايا هذا الكتاب المبارك بتوفيق الله وإعانته إنه خير معين عز وجل .

الفصل الثالث

ما يجب على العبد في القضاء والقدر

المسألة الأولى : واجب الإنسان تجاه القدر :

الأول : الإيمان بالقضاء والقدر ، والتصديق بما فيه من مراتب وأمور ذكرناها .

الثاني : الرضا والتسليم لكل ما يجري من قضاء وقدر وعدم السخط على القدر .

الثالث : الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على الذنوب والمعائب .

المسألة الثانية : الناس تجاه القدر ومراتبهم :

١- جازع متسخط وهو آثم .

٢- صابر وهذا العمل الواجب، وهذه مرتبة الصبر .

٣- صابر محتسب راضي بالقدر، وهذا فَعَل المستحب وأتى بمرتبة الرضا .

٤- شاكر لله على قضائه وقدره وهذا الأكمل والأفضل، وهذه مرتبة الشكر .

المسألة الثالثة : الإنسان أمام المقدور والمأمور :

١- حال الإنسان قبل المقدور يستعين بالله ويتوكل عليه ويدعوه .

٢- وبعد المقدور عليه أن يصبر على البلاء ويحمد الله على النعمة ويستغفر إن كان ذنباً.

٣- حاله قبل المأمور يكون بالاستعانة بالله .

٤- وحالة بعد المأمور الاستغفار وشكر الله .

الفصل الرابع

علاقات القدر بالمسميات الشرعية ومكانته من الدين

المبحث الأول : علاقة القدر بالأمور والمسميات الدينية الشرعية :

أولاً : علاقة القدر بالتوحيد وأنواعه :

يعد القدر ومراتبه من التوحيد لدخوله في جميع أنواع وأبواب التوحيد، فيجب أن يوحد المسلم فيه كغيره من أفراد التوحيد، ولذلك يصح أن يقال توحيد القضاء والقدر كما يقال توحيد الدعاء وتوحيد الخوف والرجاء والمحبة والحاكمية .

أ- علاقة القدر بتوحيد الربوبية :

القضاء والقدر من الربوبية لأنها فعل الله والربوبية هي أفعال الرب، وبيان ذلك أن القدر من أفعال الله فالتقدير والكتابة والخلق كلها أفعال الله والربوبية هي أفعال الرب، فكان القدر داخل في الربوبية فقضاء الله وقدره فعل من أفعال الربوبية مثل الرزق والإحياء والتدبير والخلق وغير ذلك فيجب توحيد الله فيه، ومن هذا الباب بعض أهل العلم يجعل أركان الإيمان خمسة ويجعل القدر الذي هو الركن السادس داخل في الإيمان بالله الذي هو الركن الأول من أركان الإيمان، وذلك لدخوله في الإيمان بالله وبأفعاله وربوبيته وصفاته .

ب- علاقة القدر بالأسماء والصفات :

القدر داخل في صفات الله وذلك أن مراتب القدر العلم والكتابة والمشيئة والخلق كلها صفات وأفعال لله فيؤمن بها، فالقدر بهذه الحيثية يدخل في توحيد الأسماء والصفات وتوحيد والأفعال الذي هو الربوبية .

ج- علاقة القدر بالإلوهية :

أن القدر يجب الرضا به والتسليم فيه وعدم السخط على ما قدر الله، وهذه كلها داخلة في التأله والعبادة فيشملها توحيد الإلوهية .

وفي الجملة فالقدر له ارتباط بأنواع التوحيد الثلاثة وإن كان داخلا في النوعين الأولين الأسماء والصفات والأفعال والربوبية تضمناً ومطابقة وفي الألوهية ملازمة .ولهذا يجب على المؤمن معرفة مكانة القدر ويوحد الله في قضاءه وقدره وحكمه ولا يشرك في ذلك ، لا في خلقه كما تفعل القدرية ، ولا في شرعه وحكمه كما تفعل الجبرية .

مسألة : دخول الشرك في باب القضاء والقدر :

يحصل الشرك في قضاء الله وقدره من جهتين :

أولا : من جهة ربوبيته وخلقه : بإثبات خالق مع الله كما تفعله القدرية والمجوس.

ثانيا : من جهة ألوهيته وشرعه : كما تفعل الجبرية ولذلك تسمى الجبرية بالقدرية المشركة قال تعالى عنهم:﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا ﴾ الأنعام: ١٤٨.

ومن الأدلة على دخول الشرك في القدر :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾ الكهف: ٢٦ وحكم الله هو قدره وشرعه، وقوله: ﴿ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ﴾ يوسف: ٤٠ وغير ذلك .

ثانياً : علاقة القدر بالإيمان :

القدر أحد أركان الإيمان الستة ويصح أن يقال أركان الإيمان الخمسة على اعتبار أن القدر داخل في الإيمان بالله لأنه من أفعاله كما تقدم فيجب الإيمان بهذا الركن .

ثالثاً : علاقة القدر بالإسلام :

للقدر علاقة بالإسلام لأنه يجب الاستسلام والتسليم له والرضا به وهذا من الإسلام، وهذا قريب من علاقة القدر بالألوهية .

رابعاً : علاقة القدر بالغيب :

القدر يعد كله من الغيب الذي يجب الإيمان به وعدم إدعاء معرفته فمن ادعى علم الغيب كفر ومن أنكر علم الغيب وأن الله لا يعلمه كفر.

خامساً : علاقة القدر بالشرع :

القدر له جانبان :

الأول : علم وخلق من الله الثاني : عملاً ورضاً وتسليماً من العبد .

والثاني يدخل في الشرع والإلوهية والأول يدخل في الغيب والربوبية.

سادساً : علاقة القدر بالتكليف :

كلفنا الله في القدر الإيمان به قبل وقوعه والإيمان بمراتبه والرضا والتسليم بعد وقوعه .

سابعاً : علاقة القدر بالقدرة :

القدر قدرة الله لأنه ما وقع قضاء الله وقدره إلا بالقدرة، فكل شيء خلقه الله بقدره وإرادة فلا يمكن وجود الخلق ما لم توجد القدرة من الله .

ثامناً : علاقة القدر بالحكم والحكمة :

القضاء والقدر حكم الله ووقع بحكمته وسيأتي مزيد بيان لهذا .

وهناك أمور لها علاقات بالقدر نذكرها في فصول مستقلة من ذلك :

تاسعاً : علاقة القدر بالمحبة والرضا.

عاشراً : علاقة القدر بالأمر .

الحادي عشر : علاقة القدر بالإرادة .

الثاني عشر : علاقة القدر بالشكر .

الثالث عشر : علاقة الإرادة بالأمر والمحبة والرضا .

الرابع عشر : علاقة القدر بالتوكل .

الخامس عشر : علاقة القدر بالمدح .

السادس عشر : علاقة القدر بالفطرة .

السابع عشر : علاقة القدر بالهداية والتوفيق .

الثامن عشر : علاقة القدر بالأسباب .

التاسع عشر : علاقة القدر بالأخبار والأحكام .

العشرون : علاقة القدر بالقلم واللوح .

الحادي والعشرون : علاقة القدر بالظلم .

الثاني والعشرون : علاقة القدر بالشر .

الثالث والعشرون : علاقة القدر بالاستطاعة.

الرابع والعشرون : علاقة القدر بالدين .

المبحث الثاني : مكانة القدر من الدين:

ينقسم الدين والعلم إلى قسمين : مفقود وموجود.

الأول: العلم المفقود :

وهو العلم الغيبي وهو علم القدر الذي يدخل في الصفات والربوبية.

فهذا العلم بالنسبة للخلق مفقود وقد طواه الله عن الناس والخلق فلا يصلون إليه ولا يبلغونه والله لم يطلعهم عليه .

الثاني: العلم الموجود المشاهد :

وهو علم الشرع وهذا علم الشريعة والأمر، وهذا يدخل في توحيد الإلوهية وهو من علم الشهادة يصل إليه كل من أراده.

ومن ادعى العلم المفقود فقد كفر ومن أنكر العلم الموجود كفر .

وواجب المسلم تجاه العلم المفقود والموجود:

الإيمان بالقدر والعمل بالشرع وعدم إدعاء العلم المفقود الذي هوالقدر ولا إنكار العلم الموجود الذي هو الشرع .

الفصل الخامس

الحديث في القدر وحكم الخوض فيه

الكلام عن القدر ومسائله له حالات، فهو واجب باعتبار مستحب باعتبار ومكـروه محرم باعتبار.

المبحث الأول : يجب ويستحب في حالات منها:

١ – معرفة أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستة .

٢ – معرفة معنى القدر الذي يجب الإيمان به وذلك بمعرفة أركانه ومراتبه مع أدلتها .

٣ – دراسة الآيات والأحاديث الكثيرة الواردة في القضاء والقدر والإيمان بها .

٤ – ثمرات القضاء والقدر والإيمان وما يثمر من توكل وصبر وعزم وصفات حميدة .

٥ – الرد على المبتدعة والمخالفين في القدر، والمحتجين به على معاصيهم.

المبحث الثاني : الحالات التي يحرم ويكره فيها :

١ – الخوض فيه بالباطل وبلا علم ولا دليل .

٢ – معارضة الشرع بالقدر والاعتراض عليه والأسئلة التعنتية .

٣ – الاعتماد على العقل البشري القاصر في فهم حقيقة القدر .

٤ – عدم التسليم والإذعان لقدر الله .

٥ – البحث عن الجانب الخفي للقدر والتنقيب بالأسئلة والتعليلات .

٦ – التنازع في القدر بالهوى والشبهة ، وهذا يوجب الرد عليهم وتبيين خطئهم[1].

لأجل هذه العلل جاءت الأحاديث الناهية عن الخوض في القدر .

---

[1] انظر الإيمان بالقدر ص ١١ .

الفصل السادس

فوائد وآثار وثمرات الإيمان بالقدر

١- زيادة معرفة الإنسان بربه عز وجل، وأنه خالق كل شيء عالم بما يخفى وكل شيء عنده بمقدار فيزيد بذلك التعظيم والإجلال والخوف والخشية .

٢- الإيمان الحق بالقدر ومراتبه يورث التقرب إلى الله وحسن العبادة والعمل.

٣- التوكل على الله ومعرفة أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ولن يصبه إلا ما كتب له.

٤- الشجاعة والإقدام وعدم الخوف من غير الخالق القادر سبحانه وذهاب الجبن والخور.

٥- الرضا والتسليم وراحة القلب والبال وعدم التضجر من شيء فاته ولم يدركه .

٦- معرفة قدر الإنسان نفسه فلا يتعالى ولا يتكبر بل يتواضع .

٧- شكر الله على نعمه التي أعطاه إياها .

٨-الكرم والسخاء وأنه لن ينقص رزقه الكرم والعطاء ولن يزيده المنع والبخل .

٩- القناعة وعزة النفس .

١٠- عدم الحسد والانشغال بالدنيا .

١١- علو الهمة والسعي فيما ينفع والحزم والجد في الأمور .

١٢- تحرر العقل من الخرافات والأباطيل .

١٣- الصبر وعدم اليأس والجزع .

١٤- قوة الرجاء وحسن الظن بالله .

١٥- المؤمن بالقدر يجهر بالحق فلا تأخذ في الله لومة لائم .

الفصل السابع

أقــوال جـامعـــة

١ - قول الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس : "اعلـم أن مـا أصـابك لم يكـن ليخطئك وما أخطئك لم يكن ليصيبك".

٢- قول عمر رضي الله عنه : "نفرٌّ من قدر الله إلى قدر الله " .

وقد قال كلمته هذه في طاعون عمواس .

٣- قول ابن عباس رضي الله عنهما : "القـدر نظـام التوحيـد فمـن وحـد الله وآمـن بالقدر تم توحيده ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض توحيده "

وكلامه يدلل على العلاقة بين القدر والتوحيد وسنذكرها فيما بعد .

٤- قول ابن عباس رضي الله عنهما :" القدر سر الله في خلقه فلا تكشفه" .

وهذا في غاية الفهم لقضاء الله وقدره فهو العلم المفقود كما سيأتي شرحه .

٥- قول الإمام أحمد:" القدرة قدرة الله ". وذلـك لأن القـدر وخلـق أفعـال العبـاد يدخل في عموم قدرة الله لأن الخلق قائم على صفة القدرة .

٦- قول الشافعي : " ناظروا القدريـة بـالعلم فـإن اعترفـوا وأقـروا خـصموا، وإن أنكروا كفروا ".

الفصل الثامن

الأدلة على القضاء والقدر

يدل على هذا الركن العظيم الكتاب والسنة والإجماع والفطرة والعقل والحس .

والأدلة من القرآن والسنة والعقل تنقسم إلى قسمين:

أدلة عامة على القدر وأدلة خاصة على بعض مراتب القدر وهذه ستأتي لاحقا.

أولاً : الأدلة من القرآن الكريم :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر: ٤٩، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ النساء: ٤٧ ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ الفرقان: ٢، وغير ذلك .

ثانياً : الأدلة من السنة :

حديث جبريل عليه السلام وفيه:"وتؤمن بالقدر خيره وشره"رواه مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم : " وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل " رواه مسلم .

وقوله ﷺ :" اعملوا فكل ميسر لما خلق له" . ووصيته لابن عباس رضي الله عنه .

ثالثاً : الإجماع :

أجمع المسلمون من الصحابة ومن بعدهم على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره، وعلى الإيمان بالمراتب الأربع وكفر من أنكر ثبوت إحداها .

ومما يبين أصلنا هذا أن أول مخالفة حصلت في القدر حكم الصحابة والتابعون بكفر أصحابها، وما ذلك إلا لأن الأمر مسلّمٌ ومجمع عليه .

رابعاً : العقل :

العقل الصحيح يقطع بأن الله هو الخالق لهذا الكون ومدبره ومالكه ولا يمكن وجود هذا النظام البديع المتناسق المصرَّف المدّبر من دون مقدِّر خالق وهو الله سبحانه وتعالى قضى وقدّر ذلك .

خامساً : الحس :

فنحن نشاهد ونحس ونسمع أن الناس تستقيم أمورهم بالإيمان بالقضاء والقدر وهذا معلوم من ثمرات الإيمان بالقدر وفوائده كما هو مقرر، وكذلك القدر نظام التوحيد فلا يستقر التوحيد والطمأنينة إلا بالإيمان به، وهذا في كل الأمور الغيبية ومن هذا الباب ما حصل من قصص لأناس انحرفوا في باب القدر بسبب إنكارهم القدر وعدم إيمانهم به .

سادساً : الفطرة :

الإيمان بالقدر معلوم بالفطرة قديماً وحديثاً ولم ينكره إلا الشواذ من المشركين من الأمم ولم ينكروه مع ذلك بالكلية وإنما أولوه وأخطئوا في فهمه المشركة ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ الأنعام: ١٤٨.

فالقدر من الأمور التي يقر به جميع أصحاب الأديان وأهل الفرق حتى الأديان الباطلة والمشركة، بل وحتى الذين يعارضون القدر آمنوا به إجمالاً لا تفصيلاً كغلاة القدرية، أو آمنوا بجزء منه ، والمجوس قالوا مرجع إرادة الخير إلى الله إله النور بزعمهم، فالقدر أمر فطري والإقرار بأصله موجود وإن كان وجد الشرك فيه كغيره من أفعال الله إلا أن إنكاره بالكلية لم يعرف في أحدٍ مطلقاً وما هذا إلا لرجوعه لأفعال الربوبية التي يقر بها الجميع .

الفصل التاسع

أركان ومراتب القدر

الإيمان بالقدر يقوم على أربعة أركان تسمى مراتب القدر أو أركانه، وهي المدخل لفهم باب القدر، ولا يتم الإيمان إلا بهذه الأركان وتحقيقها، وهذه المراتب مرتبط بعضها ببعض :

وهذه الأركان هي : العلم ، الكتابة ، المشيئة ، الخلق .

المرتبة والركن الأول : العلم :

وهو الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملةً وتفصيلاً أزلاً وأبداً، سواء كان فيما يتعلق بأفعاله أو بأفعال عباده ، فعلمه محيط بما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وعلم الله يختص عن علم المخلوق بصفتين أنه سابقٌ وشاملٌ.

فهو سبحانه يعلم الموجود والمعدوم والممكن والمستحيل، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرةٍ في السموات والأرض، فعلم بجميع خلقه قبل أن يخلقهم، وعلم أرزاقهم وآجالهم وأقوالهم وأعمالهم وأهل الجنة وأهل النار ، وليس لعلمه بداية هذا معنى كونه سابق وشامل .

أدلة هذه المرتبة :

١ - قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ الحشر: ٢٢.

٢ - قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ سبأ: ٣

٣- قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ النجم: ٣٠.

٤- وقَالَ ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ الأنعام٥٩.

٥- وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أبناء المشركين فقال : " الله أعلم بما كانوا عاملين ".

٦- وقال ﷺ: " ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار" .

مسألة : صفات علم الله وخصائصه :

يختص علم الله تعالى عن علم من سواه بصفتين لا يشترك أحد معه فيها، وكل صفة خالفت فيها طائفة :

الصفة الأولى : أزلية علم الله وكونه سابق وأولي :

ومعناه أن علم الله ليس له بداية، فعلمه أول كما أنه سبحانه الأول فالله أزلي بعلمه فلم يسبق علم الله جهل ولم يكن الله عز وجل جاهلاً ثم علم أو لم يكن يعلم ثم علم بخلاف المخلوق فعلمه مسبوق بالجهل .

وخالف في هذه الصفة غلاة القدرية حيث قالوا العلم أُنف أي مستأنف، بمعنى أنه حصل بعد ألم يكن واستأنف بعد عدمه وبعد الجهل فكان الله لا يعلم ثم علم بالشيء عند حصوله نعوذ بالله من ذلك .

الصفة الثانية : شمول علم الله وسعته :

ومعناه أن الله عالم بكل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة .

وخالف في هذه الصفة الفلاسفة فقالوا الله يعلم بالكليات لا بالجزئيات ودقائق الأمور.

مسألة : المخالفون في العلم طائفتان :

الطائفة الأولى: الفلاسفة:

حيث أنكرت صفة الشمول في علم الله، فقالت الله يعلم بالكليات لا بالجزئيات فسقوط الورقة مثلاً لا يعلم بها .

الطائفة الثانية: غلاة القدرية أصحاب معبد وغيلان :

حيث أنكرت الصفة الثانية وهي أزلية العلم بها فأنكرت أن يكون العلم سابق فلا يعلم الله عندهم بالشيء إلا إذا وقع وكلا الفريقين كافر مرتد، بإجماع المسلمين .

معنى بعض الآيات التي أشكلت على القدرية :

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ البقرة: ١٤٣ ، والمعنى عندنا أي ليتحقق وقوع ما علم الله به، فالعلم يطلق على إدراك الشيء وعلى وقوعه وحقيقته .

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ الجاثية: ٢٣ .على قولين في العلم :

١ -العلم حال من الفاعل وترجع إلى الله ، أي أضله الله عالماً بأنه من أهل الضلال.

٢- العلم حال من المفعول فترجع للعبد الضال أضله الله في حالة علمه بأنه ضال .

فعلم الله كما أنه شامل للغيب و لايخفي عليه شيء كذلك لا بداية لحصوله فهو سابق[1] لا أول له فلم يسبق علم الله جهل سبحانه وتعالى .

---

[1] فمن أنكر علم الله كفر ومن أثبت العلم الشامل والسابق وعلم الغيب لغير الله كفر وأشرك فيجب توحيد الله في علمه إثباته لله وإنكاره عما سواه .

المرتبة الثانية : الكتابة :

وتتحقق بإيمان العبد بأن الله كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ .

وقد أجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في اللوح المحفوظ وهو أم الكتاب والذكر والإمام المبين والكتاب المبين .

فائدة: تسمى الكتابة التقدير ولذلك يسمى القدر بالمكتوب .

ولهذه الكتابة حالات وأنواع سنذكرها الفصل القادم .

أدلة هذه المرتبة :

١ – قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ﴾ الحج: ٧٠.

٢ – وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ التوبة: ٥١.

٣ – قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ﴾ طه: ٥٢ .

ومن السنة:

٤ – ما أخرجه مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشة على الماء " .

٥ – وأخرج البخاري في ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : " ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار وشقية أو سعيدة " .

المرتبة الثالثة : المشيئة [١]:

وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا حركة ولا سكون ولا هداية ولا إضلال إلا بمشيئته .

ومرتبة المشيئة توافق الإرادة القدرية الكونية.

لأن إرادة الله قسمان:

شرعية أمرية توافق المحبة وهي بمعنى الشرع والأمر .

وكونية قدرية بمعنى المشيئة، وسيأتي بيان أقسام الإرادة وخلاف الفرق فيها.

المخالفون في هذه المرتبة :

القدرية المعتزلة حيث تنكر تعلق المشيئة بأفعال العباد وخلقه لها .

أدلتها :

١ – قوله تعالى :﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ الأنعام: ٣٩.

٢ – قوله تعالى:﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ التكوير: ٢٩.

٣– وقوله: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ البقرة: ٢٥٣.

الفرق بين المشيئة والقدرة :

تجتمع في الموجود وتوجد القدرة مطلقاً دون المشيئة فيما لم يكن (المعدوم) ، فالقدرة متعلقة بكل شيء والمشيئة متعلقه بالموجودات دون المعدومات .

---

[١] يطلق بعض أهل العلم على هذه المرتبة اسم الإرادة وما اخترناه في الترجمة أولى .

تنبيه: يقيد البعض المشيئة بلفظ العموم فيقول عموم المشيئة ولا يقول عموم الكتابة والعلم حتى يدخل في المشيئة أفعال العباد التي يخالف فيها القدرية فيقولون الله لم يشأها .

المرتبة الرابعة : الخلق :

وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله بذاتها وصفاتها وحركاتها ، وبأن كل من سوى الله وصفاته وأسمائه مخلوق موجود من العدم كائن بعد أن لم يكن ، ومما يدخل في عموم الخلق الخير والشر وكذلك أفعال العباد خلافاً للمجوس القائلين بالنور والظلمة وكذا القدرية المعتزلة .

هذه المرتبة تعتبر نتيجة لما سبق فهي آخر المراتب فما علم الله حقيقته كتبه ثم شاءه وخلقه وهذه المرتبة والتي قبلها أنكرها المعتزلة القدرية فيما يتعلق بأفعال العباد وفي أفعال العباد حصل خلاف القدرية والجبرية وسنذكر ذلك مفصلاً إن شاء الله .

أدلتها :

١-قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ الزمر: ٦٢.

٢-وقوله: ﴿ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ﴾ فاطر: ٣.

٣-وقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ الصافات: ٩٦.

٤-وقوله: {﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر: ٤٩.

٥- وقوله ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ الفلق: ٢.

٦-وقوله: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرًا ﴾ الفرقان: ٢.

٧- وفي الحديث عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يصنع كل صانع وصنعته " أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد .

مراحل الخلق :

للخلق ثلاث مراحل :

الأولى التقدير .

الثانية التصوير .

الثالثة الإبراء والإفراء والإنشاء وهذه المرحلة هي تمام الخلق [1].

[1] وهذه المراحل كل واحدة منها تعتبر صفة لله تعالى وفعل من أفعاله فهو المقدر والمصور والباري الخالق فهو يقدّر ثم يصور ثم يفري ويبري سبحانه وتعالى . والإفراء بمعنى الإبراء المأخوذ من اسمه الباري ومنه قول الشاعر :

ولأنت تخلق ما فريت ** وبعض الناس يخلق ثم لا يفري

المسألة الأولى : أقسام مراتب القدر :

مراتب القدر الأربع تنقسم إلى درجتين :

الدرجة الأولى : السابقة لوجود المخلوقات .

وهي مرتبتان : العلم السابق والكتابة .

الدرجة الثانية : المقارنة لوجود المخلوقات .

وهي مرتبتان :المشيئة والخلق، حيث ترادف وتقارن وجود المخلوق .

المسألة الثانية : الفرق بين المراتب الأربع :

وهذه المراتب الأربع كلها لها بداية، إما مقارنة كالمشيئة والخلق، أو سابقة كالكتابة، إلا العلم فليس له بداية مطلقاً فهو سابق شامل ، بينما بقية المراتب ليست أولية بل حصلت بعد أن لم تكن وكذلك مرتبطة بها قدره الله وخلقه .

المسألة الثالثة : ترتيب هذه المراتب :

العلم وليس له بداية .

ثم الكتابة في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة .

ثم المشيئة بعد الكتابة ومشيئة الله متجددة مقارنة للمخلوق[1] .

ثم بعد ذلك كله يخلق الله سبحانه وتعالى ما شاءه وكتبه.

---

[1] هذه مسألة دوام أفعال الرب وتسلسلها وهي عندنا قديمة أزلية النوع حادثة الآحاد وخالف في ذلك المعطلة من معتزلة وأشاعره وغيرهم الذين ينكرون تعلق الصفات الفعلية الاختيارية بالله عز وجل لأنها مستلزمة عندهم لحلول الحوادث والتجسيم وهذه المسألة محل بحثها أبواب الأسماء والصفات وليس القدر .

الفصل العاشر

التقادير والكتابات

أسماء التقادير:

تسمى التقادير والكتابات والأقلام ، وكلها بمعنى واحد.

ووجه تسميتها بالتقادير: لأنها داخلة في جملة القدر .

ووجه تسميتها بالكتابة:

لأنها محل كتابة الله تعالى وهي من صفاته وقد جاء التنصيص عليها في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ ﴾ الأنبياء: ١٠٥.

ووجه تسميتها بالأقلام:

لأنها آلة الكتابة وقد جاء التنصيص على القلم في الكتاب والسنة .

فمن القرآن قوله تعالى : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ القلم: ١.

وقد قيل بأن القلم هذا هو القلم الأول الذي كتب المقادير قبل خلق الخلائق .

وفي الحديث : " أول ما خلق الله القلم قال له أكتب ".

وهناك أقلام يكتب بها القدر وأقلام يكتب بها الوحي،وأقلام الوحي هي التي سمعها الرسول ﷺ حين أسرى به حيث رفع إلى مستوى يسمع منه صريف الأقلام[1].

---

[1] انظر شرح الطحاوية ص ٣٤٨ ، وشفاء العليل .

أقسام وأنواع التقادير:

التقدير الأول : العام الشامل " كتابة اللوح المحفوظ " :

وهو تقدير الرب لجميع الكائنات وهو القلم الذي كتب في اللوح المحفوظ.

ودليله:

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴾ يس: ١٢.

وفي حديث عبدالله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة " .

وحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال:سمعت الرسول صلى الله عليه وسلم يقول:" أول ما خلق الله تعالى القلم فقال له:أكتب،قال:يا رب وما أكتب،قال:أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة " .

وقد حصلت هذه الكتابة في اللوح المحفوظ وما وقع فيها من كتابة وتقدير لا يتغير ولا يتبدل وما فيها شامل لكل كتابة وتقدير فالتقادير الباقية يشملها هذا التقدير وهذا التقدير العام لم يطلع عليه أحد ولا يعلمه أحد فهو الغيب المطلق المكتوب فيه كل شيء ، بعكس الباقية فقد يعلمها كاتبها من الملائكة فهي غيب نسبي .

التقدير الثاني : البشري تقدير الميثاق على البشر خاصة :

وهذا التقدير حين خلق الله آدم ومسح على ظهره فاستخرج ذريته بالمسح من ظهره ثم أشهدهم على وحدانيته وسألهم سبحانه ألست بربكم؟ فأقروا وشهدوا .

دليله:

ورد ذكر الميثاق في القرآن الكريم في موضع واحد في سورة الأعراف:قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ الأعراف: ١٧٢.

وجاءت أحاديث في معناه منها حديث عمرو بن العاص وابن عباس وغيرها.

ومنها حديث هشام بن حكيم أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أنبدأ الأعمال أم قد قضي القضاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه فقال هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار " الحديث.

وفي حديث عمر مسح ظهر آدم فاستخرج أهل الجنة [1].

التقدير الثالث : العمري :

وهو تقدير في حال الأجنة وهو تقدير كل ما يجرى على العبد في حياته إلى نهاية أجله وكتابة شقاوته أو سعادته ، وذلك حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات .

ودليله:

---

[1] وقد حققنا ذلك وشرحنا الأحاديث في رسالة مستقلة هي الميثاق. وهذا التقدير لا يذكره بعض أهل العلم بناء على تفسيرهم للميثاق .

حديث عبدالله بن مسعود ﷺ في الصحيحين مرفوعاً : " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد " .

وجاء في حديث حذيفة بن أسيد ﷺ بمعناه "يأتي الملك بعد أربعين ليلة أو يوم " . رواه مسلم [1].

وقد اختلف أهل العلم في فهم هذين الحديثين والذي يترتب عليهما وقت هذا التقدير وزمانه بالتحديد على قولين :

الأول: أن كتابة الملك تكون بعد ١٢٠ يوم من عمر الجنين وفهموا من لفظة "ثم" في الحديث الترتيب الزمني .

والقول الثاني : أن الكتابة والنفخ في الروح تحصل بعد الأربعين كما في حديث حذيفة ويحمل حديث ابن مسعود على أن الأمور الثلاثة النطفة والعلقة والمضغة، تحصل في نفس الأربعين وليست ثلاث أربعينات وهو المفهوم من لفظ "مثل ذلك" وهذ الذي يقرره الطب المعاصر أن العلقة والمضغة الأولى غير المخلقة تكون في الأربعين يوم الأولى.

وذهب ابن القيم في شفاء العليل إلى أنهما كتابتان وملكان الأول يأتي بعد الأربعين والثاني بعد الأربعين الثالثة (١٢٠) .

---

[1] انظر : خلق الإنسان للبار ومجلة الإعجاز العلمي ، العدد الثامن ، ١٤٢٠هـ ، بحث د. الصاوي

التقدير الرابع : السنوي :

وهذا التقدير يحصل مرة في ليلة القدر من كل سنة فيكتب فيها كل ما سيحصل إلى السنة القادمة ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ .

ودليل هذه الكتابة: قوله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ الدخان: ٤.

التقدير الخامس : التقدير اليومي :

هذا تقدير الله كل يوم فالكتابة متعلقة بما يريده الله ويخلقه كل يوم.

ويدل عليها: قوله تعالى : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ الرحمن: ٢٩.

فيعز ويذل ويرفع ويخفض ويعطي ويمنع ويغني ويفقر ويميت ويحي وغير ذلك .

ولعل هذا النوع هو الذي سمع النبي صلى الله عليه وسلم صريف أقلامه حين عرج به .

التقدير السادس : قلم التكليف :

وهذا يكون عند البلوغ إذا بلغ العبد وكل به الكرام الكاتبين، يكتبون ما يفعله الإنسان وفي الحديث " رفع القلم عن ثلاث ... وفيه وعن الصبي حتى يحتلم " .

وهناك الكتابة التي قبل أن يخلق آدم بأربعين سنة .

مسألة : اختلف أهل العلم في الذي خلق قبل، العرش أم القلم ؟

والأصح والأظهر أنه العرش بدليل قوله صلى الله عليه وسلم في حديث عمران بن حصين " كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء ". وهو يدل على أسبقية العرش.

وأما حديث " أول ما خلق الله القلم قال له أكتب " .

فإن معناه والله أعلم:

أنه حين خلق الله القلم قال له أكتب، والمعنى أنه لم يكن هناك وقت بين خلق القلم وأمر الله له بالكتابة وكتابته .

الفصل الحادي عشر

الفرق والمذاهب القدرية القديمة والمعاصرة (١)

تمهيد :

القضاء والقدر سر الله في خلقه وهو قدرة الله، وما خاض فيه إنسان بعقله إلا هلك، ولذلك جاء النهي عن الخوض فيه بلا علم وضرب النصوص بعضها ببعض فـضلاً عن إدخال العقل في هذا المجال وإقحامه بكثرة الأسئلة وإيراد الشكوك والشبهات .

والبدع في هذا الركن العظيم ليست وليده في هذه الأمة بل هي موجودة منـذ القـدم فأول القدرية إبليس حين عارض قضاء الله بعقله وهواه ثم من أتبعه من القدرية .

ومن النكت والفوائد في هذا الباب أن مـن ضـل في القـدر لابـد أن يـستلحق ذلـك الضلال ضلالٌ في التوحيد والشرع بـنقض أحـدهما، وذلـك لمـا للقـدر مـن علاقـة واضحة بالأمر والنهي والشرع وتوحيد الله في ذلك، وسيأتي بيانه.

منشأ الخلاف وأصله في القدر : راجع لتعلق العدل والظلم والخير والشر في قـدر الله وأفعال الرب وتعلقه بأفعال العباد .

والخلاصة في مذاهب القدر أنهم على ثلاثة أقسام :

١ – القدرية الإبليسية :

وهم من آمـن بالقـدر وصـدق الـشرع والأمـر والنهـي، ولكـن الـتمس التنـاقض والتعارض بينهما، فهذا إبليسي شابه إبليس لمـا أقـر بالقـدر وآمـن بـالأمر بالـسجود

(١) تنبيه: حذفت النقولات من كتب المبتدعة واكتفيت باليسير جداً مع الإشارة للمصدر وذكر القول بالمعنى حرصـاً على صغر حجم الكتاب .

ولكن أدخل الاعتراض عليه وأتباع هذا المذهب الفاسد كثير من الزنادقة وبعض العصاة، مثل زندقة المعري واعتراضه على الله في الرزق وقلته قدراً مع طلب الشكر شرعاً، واعتراض الآخر في خلق المرأة الحسناء قدراً والأمر بغض النظر عنها شرعاً، فهذا قدري إبليسي.

وتسمى هذه الفرقة بالقدرية الإبليسية :

قدرية: لاعتراضها على القدر.

وإبليسية: لإتباعها إبليس واقتدائها به، لأنه أول من جاء بهذه المعصية ومعارضة الشرع والأمر للقدر ولكن من آمن بالقدر والشرع وعمل بمقتضاه فهو آدمي مؤمن متبع لأبيه آدم في مثل أكله من الشجرة فتاب شرعاً وصدق وآمن قدراً .

٢- القدرية المشركة " الجبرية " :

وهم من كذب بالشرع والأمر وغلا في إثبات القدر .

وسموا قدرية : لأنهم عارضوا الشرع بالقدر ولم يعترضوا عليه كما يفعل الإبليسي.

وسموا مشركين : لأنهم لم يوحدوا الله في العبادة والشرع والأمر، ولكي يبرروا شركهم وتركهم للعمل ومخالفة أمر الله وشرعه ادعوا أن ذلك الكفر والمعصية هو ما يريده الله ويحبه ويرضاه فوقعوا في الشرك وجعلوا لله شرعا من عند أنفسهم فقالوا :

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ الأنعام: ١٤٨ .

وسمو جبرية : لأنهم ادعوا أن الله أجبرهم أو أنهم مجبرين على ما أراده الله لهم، ولذلك هذه الفرقة تسمى القدرية المشركة الجبرية .

٣- القدرية المجوسية : " القدرية المعتزلة " :

وهم كل من كذَّب بالقدر وغلَّب الشرع والأمر، وأدعى أن أفعال المخلوق ليست بقدر فهم قدرية مجوسية.

وسموا قدرية : لأنهم ينفون القدر عن الله ويثبتونه لأنفسهم " للمخلوق " وهم أحق الفرق بهذه التسمية، ولذلك أصطلح الناس على إطلاق القدرية عليهم وجاء تسميتهم بذلك في الحديث الذي أخرجه أبو داود :" القدرية مجوس هذه الأمة" فسماهم الرسول صلى الله عليه وسلم قدرية مجوس.

وسموا مجوسية: لأنهم شابهوا المجوس في إثبات خالق مع الله، وهذا شرك في الربوبية، فقالت المجوس خالق الخير غير خالق الظلمة وقالت القدرية أن أفعال العباد وخصوصاً الشريرة والمعاصي ليست من خلق الله بل العباد هم الذين يخلقونها ويقدونها من دون الله[1] .

هذا التقسيم السابق راجع إلى مذاهب القدر بالنظر إلى علاقتها بالشرع والتوحيد، ولكن في البحث والتقعيد يقال فرق القدر اثنتان قدرية وجبرية .

وأما الإبليسية : فليس لبدعتهم وكفرهم فرقة معينة تدافع عنهم، إنما بعض الزنادقة من الشعراء وغيرهم.

---

[1] مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٢٥٦ .

المبحث الأول : القدرية

وهم على فرقتين ودرجتين :

الأولى : القدرية الأولى ويسمون الغلاة ، منكري العلم السابق :

مؤسسها وتاريخ نشأتها:

وهؤلاء مختلف في أول من قال بقولهم ومن هو مؤسس مذهبهم، على أقوال أصحها أن أول من حمل هذه البدعة رجل نصراني اسمه سوسن أو سنسويه وأخذ عنه معبد الجهني الحمصي وأخذ عن معبد غيلان الدمشقي[1].

ثم إن معبد دعا لمذهبه ، فاتبعه أُناس من أبرزهم غيلان الدمشقي ، وغيلان عمل على نشر هذا المذهب الفاسد إنكار القدر وعلم الله وتقديره، وهذا المذهب من أقدم المذاهب في الإسلام وقد وقع في آخر عهد الصحابة وحذروا منه وكفروا أصحابه، وهذا المذهب قد زال بحمد الله، فمعبد قتله عبدالملك بن مروان سنة ٨٠هـ. وغيلان أعلن توبته أمام عمر بن عبدالعزيز ثم رجع في عهد يزيد وكان يميل للقدرية كما ذكر الطبري فلما تولى هشام قتله مرتداً سنة ١٠٥هـ وبقتلهم انقرض قولهم.

حقيقة مذهبهم :أن الله لا يعلم بالشيء إلا إذا وقع وزعموا أن الأمر أنف أي مستأنف، فعلم الله يحصل بعد أن لم يكن وبهذا القول أنكروا القدر لأنهم أنكروا أول مراتبه وأعظمها وهي المرتبة الأولى وهي العلم السابق الشامل[2]. وزعموا قبحهم الله أن الله كان جاهلاً ثم علم فعلمه مسبوق بالجهل .

---

[1] انظر : شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٤/ ٧٥٠ .

[2] لم أر أي نقل عن مذهب غلاة القدرية حول مرتبة الخلق والمشيئة هل ينكرونها أم لا ؟

الفرقة الثانية : القدرية المتوسطة الثانية وهم المعتزلة :

مؤسسها ونشأتها وتاريخ ظهورها:

هذه الفرقة مؤسسها واصل بن عطاء (٨٠-١٣١هـ) .

وصاحبه وتلميذة عمرو بن عبيد الغزال (٨٠-١٤٣هـ) .

وقد كانوا متأثرين بالقدرية الأولى ولا أعلم هل أخذوا عنهم أم لا ؟.

والقدرية الأولى أنكروا العلم السابق ولما أنكر عليهم وكفروا وقتلوا ما تجرأ أحد بعدهم على الأخذ بمذهبهم مع وجود من تأثر بهم ، ثم خرجت بعد ذلك القدرية المتأخرة فأثبتوا العلم السابق وأنكروا المشيئة والخلق لأفعال العباد، وكان إمامهم واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري هو وصاحبه عمرو بن عبيد وطلابهم، فسموا المعتزلة وأحدثوا بدع غير القدر، كبدعة المنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف وإنفاذ الوعيد وزاد بعض أتباعهم التوحيد وهو إنكار الصفات فصارت للمعتزلة القدرية خمس أصول التوحيد والعدل والمنزلة والأمر بالمعروف وإنفاذ الوعيد ، فهم وعيدية معطلة قدرية .

وقد جاءت بعد موت إمامهم مدرستين للقدرية المعتزلة البغدادية والبصرية.

فمن البصرية: واصل وعمرو بن عبيد ومعمر بن عباد السلمي وأبو هذيل العلّاف والنظام والجاحظ وأبو علي الجبائي وأبو هاشم الجبائي وغيرهم .

ومن البغدادية: بشر بن المعمر المريّسي وهو مؤسسها وكان بصريا وأحمد بن أبي دؤد ، والخياط صاحب الانتصار و البلخي وغيرهم.

وقد كان بين المدرستين ردوداً وعندهم أمور مجمع عليها وأمور مختلف فيها، ثم جاء بعدهم متأخروا المعتزلة القدرية وقعدوا لمذهب وصار العمدة عليهم، وعلى رأسهم عبدالجبار الهمذاني ت ٤١٥ صاحب المغني وشرح الأصول الخمسة[1].

ومن الفرق القدرية:

الرافضة الإمامية وشاركت في نشر مذهب القدرية .

الزيدية ويسمون معتزلة اليمن ، وهؤلاء نشروا مذهب القدرية بل يعتبر هو مذهب المعتزلة القدرية في هذا الوقت .

هذا ما يتعلق بنشأة القدرية وتاريخهم باختصار وإليك الآن مذهبهم وسبب تسميتهم وأصل شبهتهم والموجود منهم وفرقهم، ثم بعد هذا الفصل نأخذ أدلتهم والرد عليها .

مسألة (١) : حقيقية مذهبهم :

أن أفعال العباد من خير وطاعة وشر وكفر ومعصية ليست بقدر الله، فالعباد خلقوها وقدروها وليس لله في أفعالهم خلق ولا تقدير ولا إرادة ولا مشيئة، بل أراد الله منهم الإيمان وهم أرادوا الكفر فكفروا والله لا يريد كفرهم ولم يقدره ولم يخلقه، مع إقرارهم أن الله قد علمها في الأزل ولكن لم يخلقها .

قال القاضي عبدالجبار الهمداني : " من قال إن الله خالق أفعال العباد ومحدثها فقد عظم خطأه "[2].

---

[1] انظر : مذاهب الإسلاميين ، عبدالرحمن بدوي ص ٤٠ والقضاء والقدر للمحمود ص ١٩١ ومسائل الخلاف بين البغدادين والبصريين.

[2] المغني في أبواب التوحيد لعبد الجبار ٨/ ٣ .

مسألة (٢) : سبب هذا القول وأصل شبهتهم :

قالوا : كيف يخلق الله المعاصي وأفعال العباد ثم يحاسبهم ويعذبهم عليها، فهذا عندهم ظلم والله منزه عن الظلم ، وسيأتي الرد عليهم وعلى هذه الشبهة إن شاء الله في الأدلة.

مسألة (٣) : هل توجد القدرية في عصرنا؟ :

الغلاة الذين ينكرون علم الله لا وجود لهم اليوم في فرق الإسلام، وأما المتوسطون فهم لا يزالون إلى اليوم وإذا أطلق لفظ القدرية انصرف إليهم وهم مجوس هذه الأمة كما تقدم ويوجد مذهب القدرية المعتزلة أتباع واصل بن عطاء في الزيدية وهم موجودون الآن في اليمن وقد قلوا عما كانوا خصوصاً بعد سقوط الإمامية عام ١٣٨٢هـ، ولا يزال إمامهم الآن وهو مجد الدين قدري معتزلي زيدي لا يخالف المعتزلة إلا في الإمامة ، كذلك الرافضة فهم قدرية ولا يزالون إلى الآن ويدرِّسون مذهبهم ومذهب القدرية في جامعاتهم ومدارسهم .

مسألة (٤) : أسمائهم

يسمون قدرية ومجوسية ونفاة القدر .

مسألة (٥) : لماذا سموا بالقدرية وبمجوس هذه الأمة :

سموا بالقدرية لإنكارهم القدر المتعلق بأفعال المخلوقين وإنكار أن يكون الله خلق أفعال العباد وقدَّرها، ونسبتها إلى المخلوق وإضافتها إليه إضافة إيجاد وخلق واستقلال، فصاروا بهذا القول قد أثبتوا خالق مع الله فوقعوا في الشرك في الربوبية مثل المجوس، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة .

والعجيب أن القدرية ينفون عنهم هذه التسمية ويسمون بها الجبرية أو أهـل الـسنة، وزعموا أن من يثبت القدر لله أولى بالتسمية ممن ينفيه عن الله فالمثبت أولى من النـافي بالتسمية وقد قالوا ذلك ليفروا من الحديث الوارد فيهم وأنهم مجوس .

وقد رد على هذه الشبهة العمراني في الانتصار[1] حيـث قـال : " قدريـة لأنهـم أثبتـوا القدر للمخلوق" .

مسألة (٦) :من الأحق باسم القدرية؟ :

الذين وصفهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم مجوس هذه الأمة هل هم القدريـة المعتزلة أم الجبرية .

هذه التسمية تترامى بها الفرق فالقدرية تسمي أنفـسها بالعدليـة والجبريـة لا تـرض هذه التسمية .

بل القدرية المعتزلة ينكرون هذه التسمية ولهم شبهة :

قالوا إن أحق بالاسم من يثبت لا مـن ينكـر ونحـن ننكـر أن تكـون أفعـال العبـاد ومعاصيهم من القدر وإنما من قال هي مـن القـدر فقـد أثبـت فاسـتحق أن يـسمى قدري.

وهم بذلك يُسمّون الجبرية وأهل السنة قدرية بزعمهم .

---

(1) الانتصار في الرد على القدرية الأشرار ص ١٠٨.

الرد عليهم :

نقول الأحق بهذه التسمية المعتزلة ومن معهم وهم الذين قصدهم الرسول صلى الله عليه وسلم بمجوس هذه الأمة لأمور :

الأول : أنهم قدرية مثبتة للقدر الذي هو من خصائص الرب وأفعاله للعبد وجعلوها له فدعواهم أنهم منكرين غير مثبتين غير صحيح بل هم مثبتون للقدر والخلق في العبد فالعبد الذي يخلق ويقضي ويقدر القضاء والقدر، فبهذه المخالفة أثبتوا القضاء والقدر والخلق الذي هو من خصائص الله للعبد المخلوق المقدر، فاستحقوا بهذه الإثبات الباطل تسميتهم بالقدرية .

الثاني : أن في القدرية المعتزلة صفة تشابه المجوس لا توجد في غيرهم، وبهذه العلة الجامعة استحقوا أن يسموا مجوس الأمة وهذه العلة المشتركة بين المجوس والمعتزلة ، هي أن المجوس ادعت أن للعالم والكون خالقين خالق الخير وخالق الشر،وأن المعتزلة أدعت أن في العالم خالق غير الله بل خالقِين وهم خالقين أفعالهم من خير وشر، فوجدت العلة في المعتزلة وهذا السر الجامع بين المجوسيتين[1].

الثالث : أن من خالف الحق في مسألة وعرف بها سمي بها ، فسموا قدرية لخلافهم في القدر كما يوصف بذلك أيضاً الجبري لخلافه في القدر كما عند الخلّال، ولكن التسمية بمجوسي لا تصح إلا للقدري، وأما الجبري فلم يتحقق فيه هذا الوصف لأنه لا يقول يوجد خالق مع الله كما تقوله المعتزلة القدرية .

---

[1] انظر كلام القدرية المعتزلة في كتاب خلاصة الفوائد للقاضي جعفر ابن أبي يحي الزيدي وهو كتاب مستقل في مسائل القدر على مذهب القدرية المعتزلة الزيدية . وانظر شرح الأساس الكبير للشرقي ٢/ ١٣٦ .

فائدة : هل الجبرية والأشاعرة يسمون قدرية ومجوسية :

الجبرية والأشاعرة يسمون قدرية مجبرة مشركة، وفرق القدرية ثلاث كما تقدم جبرية مشركة وهم الأشاعرة والجهمية ، وقدرية إبليسية ، وقدرية معتزلة مجوسية .

لكن الجبرية لا يسمون مجوسية لأنهم لا يقولون بوجود خالق مع الله كما تقوله المجوس والمعتزلة وتقدم ذلك .

مسألة : القدرية يسمون أنفسهم بالعدلية :

والعدل أبعد ما يكون عنهم، فمن أنكر صفات الله عز وجل وأشرك في أفعاله لا يكون عادلاً ، بل أشد الناس ظلماً وجوراً .

وسبب تسمية أنفسهم بالعدلية لأنهم زعموا أن العدل أن لا يخلق الله فعل العبد وأن الكفر والمعاصي غير مخلوقة وهذا من العدل في زعمهم، إذ كيف يخلق الله أفعال العباد ثم يعاقبهم عليها، فهذا في زعمهم من الظلم، والعدل في إنكار أن يكون الله خلق أفعالهم .

فائدة : القدرية وقعوا في التناقض :

فهم مشبهة في الأفعال معطلة في الصفات[1].

---

[1] هذه القاعدة منطبقة على القدرية المعتزلة فهم معطلة في الصفات حيث ينكرونها، ممثلة في أفعال الله حيث يمثلون الخالق بالمخلوق في صفة الخلق . فالمخلوق يخلق كما يفعل الله تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

المبحث الثاني : الجبرية

مسألة (١) : تعريفه :

الجبر ضد الاختيار وهو بمعنى الإكراه .

وفي الاصطلاح : نفي الفعل عن العبد وإضافته للرب .

أي : أن الله يجبر العباد على أفعالهم فالعباد مجبورين على ما يفعلون.

مسألة (٢) : هل للجبر أصل في الشرع الكتاب والسنة :

قال الزبيدي :" أمر الله أعظم وقدرته من أن يجبر أو يعضل ولكن يقضي ويخلق ويقدر ويجبل عبده على ما أراد ".

وقال الإمام الأوزاعي :" ما أعرف للجبر أصلاً من القرآن والسنة فأهاب أن أقول ذلك ولكن القضاء والقدر والجبل والخلق فهذا في القرآن والحديث"[١] .

وما أجمل ما قاله الأوزاعي والزبيدي .

مسألة (٣) : أقسام الجبرية :

١- جبرية خالصة غلاة : لا تثبت للعبد قدرة ولا فعل ، وهو قول الجهم وأتباعه .

٢- جبرية متوسطة : وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة وهم الأشاعرة .

مسألة (٤) : نشأة الجبرية :

القول بالجبر قديم وهو حجة من لا حجة له من المشركين وجاء بيانه في القرآن ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ الأنعام: ١٤٨.

---

[١] انظر كلامهم في أصول اللالكائي ٤/ ٧٠٠ ومجموع الفتاوى ٨/ ١٠٥ .

وأما في هذه الأمة فوجد من قال بالجبر في عهد الصحابة رضي الله عنهم، وقد أورد أحمد بن يحيى المرتضى مسألتين لابن عباس والثانية للحسن بن علي رضي الله عنهم ، يردان فيهما على بعض الجبرية من أهل الشام والبصرة[1]، ولكن من الناحية المذهبية المنهجية أول من قال بالجبر كما نصت كتب الفرق الجعد بن درهم وأول من أظهره تلميذه الجهم بن صفوان قتل ١٢٨هـ .

والجعد بن درهم عرف عنه التعطيل في الصفات والجبر في القدر .

والجهم تلميذ الجعد أخذ هاتين البدعتين وأضاف بدعة الإرجاء والقول بفناء الجنة والنار فالجهم معطل جبري مرجئ .

ثم تأثر بهم فرقة النجارية أتباع الحسين النجار المعتزلي كما تأثر بهم فرقة الضرارية أتباع ضرار القاضي[2]، وهاتان الفرقتان حولهما خلاف في حقيقة مذهبهم في القدر وهذه الفرقة الغالية الجبرية الخالصة قد زالت إلا في بعض غلاة الصوفية .

ثم جاءت الجبرية المتوسطة القائلة بأن العبد له قدره غير مؤثرة وهو ما اسموه بالكسب[3]، وأول من قال بهذه البدعة أبو الحسن الأشعري، ولم يأخذ بدعته هذه من ابن كلّاب مثل الصفات وإنما ابتدعها من نفسه ولم يسبقه أحد إلى هذا القول حتى ابن كلّاب والكلّابية عموماً شيوخ الأشعري هم في القدر على مذهب أهل السنة وليسوا جبرية ولا قدرية ولذلك الأشعري هو في الحقيقة ناقل لمذهب جهم بن

---

(١) المنية والأمل شرح الملل والنحل للمرتضى ص ٨-١٠ ، القضاء والقدر المحمود ٢٠٤ .

(٢) سيأتي الكلام عن الضرارية وأن الصحيح أنهم على مذهب أهل السنة في القدر وليسوا جبرية ولم يقولوا بقول أصحابهم المعتزلة .

(٣) أفردنا الكسب بمبحث مستقل .

صفوان، ولكنه نقله من الغلو إلى ما دونه فقد أخذ عنه التعطيل في الصفات والجبر في القدر والإرجاء في الإيمان، بينما المعتزلة ما أخذت من جهم غير الصفات فقط أما في القدر والإيمان فالمعتزلة على نقيض مذهب الجهمية ولذلك المعتزلة تسمى بالجهمية لمجرد إتّباعهم جهم في الصفات، والأشاعرة أولى وأحرى بهذه التسمية لأنهم زادوا على المعتزلة في الاقتداء بجهم وإن كانوا أحسن حالاً من المعتزلة في باب الصفات إلا أنهم أقرب للجهمية في باب القدر والإيمان، ولا يستغرب قول الأشعري في القدر وتأثره بالجهم ولكن المستغرب أنه جاء بمصطلح لم يستطع هو ولا أتباعه تعريفه، وقالوا في القدر بقول متناقض مضطرب لا حقيقة له ولا يفهم منه إلا ما يفهم من قول الجهم .

وقارب بعض الماتريدية الأشاعرة في بدعة الجبر كالتفتازاني ومصطفى صبري[1] مفتي الدولة العثمانية وبعض ما تريدية بخارى وسمرقند فقالوا بالكسب وإن كان جمهور الماتريدية مع أهل السنة في باب القدر عدا مسائل يسيرة كالتحسين والتقبيح أخذوا فيها بمذهب المعتزلة .

والأشاعرة لايزال قولهم في القدر على مذهب الجبرية إلا من رجع منهم مثل الجويني كما في رسالته العقيدية النظامية وغيره.

ويوجد كثير من المذاهب الإلحادية مثل الماركسية وغيرها تعتنق مذهب الجبر في القدر[2] هذه خلاصة نشأة مذهب الجبرية ومحل وجودها .

---

[1] انظر شرح المقاصد للتفتازاني و موقف العقل لصبري.

[2] القضاء والقدر المحمود ص ١٩٩ .

مسألة (٥) : رؤوس الجبرية :

الجهم بن صفوان وهو أول من أظهر الجبر الخالص .

أبوالحسن الأشعري وهو أعظم من نشر الجبر وأول من أظهر الكسب .

مسألة (٦) : حكم الجبرية :

الفرقة الأولى الجبرية الخالصة :

وهم الجهمية الخالصة أتباع جهم المنكرون للشرع والأمر والنهي والتوحيد وقولهم الإنسان إن عصى الأمر فقد أطاع الإرادة، حكمهم أنهم كفار بإجماع المسلمين لأنهم كفروا بشرع الله .

والفرقة الثانية الجبرية المتوسطة :

القائلة بالكسب وأن للعبد قدرة ولكن لا تأثير لها، وأن الإنسان إذا خالف الأمر استحق العقاب ولا يسمى طائع، فهم ليسوا بكفار، ولم نكفرهم مثل الجهم وأتباعه لكنونهم اعترفوا بالشرع والأمر والنهي والتوحيد بعكس الأوائل .

مسألة (٧) : فرق الجبرية الموجودة الآن :

الفرقة الغالية لم يعد لها وجود إلا في بعض غلاة الصوفية الذين يزعمون أنهم يتقربون إلى الله بالمعاصي، وأما المتوسطة فتوجد في الأشاعرة وهم موجودون إلى الآن وينشرون مذهبهم في كتب العقائد بل وحتى في كتب الفقه والتفسير والحديث.

مسألة (٨) : إلى من تنسب الجبرية :

ليس للجبرية نسبة في الأشخاص مثل ما يقال في الأشاعرة أو الجهمية والزيدية وغيرها، وإنما هي فرقة أطلق الاسم عليها لخلافها في باب القدر وقولها بالجبر ولا

يوجد فرقة مستقلة جبرية وإنما الجبرية قول ومذهب يوجد في فرق عامة هي الجهمية والأشاعرة [1].

مسألة (٩) : حقيقة قولهم :

الجبرية في مراتب القدر مع أهل السنة بعكس المعتزلة القدرية، ولكن في الجانب الآخر الذي هو أفعال العباد على خلاف مذهب أهل السنة والقدرية .

ومذهبهم ينص على أن الله خالق كل شيء ويدخل في ذلك أفعال العباد وهذا صحيح، ولكن ظنوا أن إثبات أي قدرة وإرادة واختيار مستقل للعبد وحقيقة لتأثير الأسباب ينافي أن يكون الله هو الخالق لها، فقالوا عند ذلك بالكسب الذي هو عند التحقيق مماثل للجبر، وظنوا أن مذهب الجهم هو الحق وهو المخرج من المعارضة الوهمية التي تخيلوها، ولكثرة إنكار السلف على الجهم وتكفيره أراد الأشعري ترقيق قوله والتوسط فوقع في الاضطراب وضاع بين الطرفين، فلذلك خرجوا من قول الجبرية الخالصة أن العبد ليس له قدرة ومشيئة وفعل واختيار أصلاً إلى القول بأن العبد له قدرة وإرادة ولكن هذه القدرة والإرادة غير مؤثرة بل التأثير كله في قدرة الله وإرادته، فالله خالق العبد وخالق قدرته وإرادته وإذا أراد الله وقوع المقدور والفعل خلق الله لذلك الفعل قدرة واختيار مقارنة للفعل يتحصل الفعل عندها لا بها

---

[1] تنقسم الفرق من حيث الانتساب إلى قسمين :

فرق تنتسب لأشخاص مثل الجهمية نسبة لجهم والأشاعرة نسبة للأشعري والماتريدية نسبة للماتريدي وكذا الزيدية والجعفرية والبهشمية وغيرها .

من تنسب للوصف والبدعة مثل: المرجئة نسبة للإرجاء في الإيمان، الجبرية نسبة للجبر في القدر، القدرية نسبة للقدر، والمعطلة نسبة لتعطيل الصفات وهكذا الخوارج والوعيدية وغيرها .

ويصبح الفعل بالنسبة للعبد كسباً له مخلوقا لله، وقدرة الله فيه خلقاً وإبداعاً وهي المؤثرة وحدها والقدرة التي هي من العبد مع الفعل ولا تكون قبله كسباً وهي شكلية غير مؤثرة في الحقيقة وإرادته لا تأثير لها بل كل التأثير في قدرة الله وإرادته .

ولذلك في الحقيقة هذا القول هو مثيل لقول الجهمية الجبرية الخالصة وهو عين قولهم إلا في اختلافات لفظية لا حقيقة لها .

قال الدسوقي: "من نظر إلى الخلق بعين الحقيقة عذرهم ومن نظر لهم بعين الشريعة مقتهم فالعبد مجبور في صورة مختارة". نقله عنه البيجوري في شرح الجوهرة[1] .

قلت: وهذا هو الجبر بعينه ولا أرى فرق بين غلاة الجبرية ومتأخريهم من الأشاعرة إلا خلافات لفظية، وعند المتأخرين إظهار نوع احترام للشرع وأن مخالفه يستحق المقت وإن كان مجبوراً بعكس الأولين وهذا الجانب أخرجهم من دائرة الكفر بعكس الأولين المكذبين بالشرع من الغلاة من الجبرية والصوفية المجوزين للكفر والمعاصي.

مسألة (١٠) : شبهتهم :

ظنوا أن في إثبات قدرة للعبد مؤثرة وإرادة واختيار حقيقي له تأثير إخراج لها عن أن تكون داخلة تحت قدرة الله وإرادته وتصرفه ومن ثم خارجه عن مخلوقاته، فيصير هناك أمور لم يخلقها الله ولم يريدها ويقدرها ولا يقدر عليها، وهذا قول القدرية المجوسية وهذا كفر ورده ، ولذلك يقول بعض أهل العلم أن خروج الجبرية سببه إظهار نقيض مذهب القدرية القائلين أن أفعال العباد مستقلة ولا تدخل تحت إرادة الله وأن الله لم يخلقها، وسيأتي تفصيل قولهم ونقض شبهتهم في الفصل القادم .

---

[1] تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد للبيجوري ص ١٠٥.

مسألة (١١) : المسائل التي أثّر خلاف الجبرية فيها على أصل مذهبهم :

١- إنكار الحكمة والتعليل في أفعال الله وأن الله يفعل بدون حكمة حتى لا يكون محتاج إليها فيوجِدون متصرفا في الكون مع الله .

٢- إنكار التحسين والتقبيح العقلي وأن العقل لا يعرف حسن الشيء من قبحه حتى لا يكون له شيء من التصرف والإرادة مع الله .

٣- إنكار الأسباب وتأثيرها وأن المؤثر هو الله وحده دون الأسباب .

٤- إنكارهم الاستطاعة الشرعية لنفس حجة الجبر .

٥- قولهم بامتناع الظلم وأنه لا حقيقة له .

٦- قولهم أن التوفيق والخذلان خلق وإجبار من الله .

٧- غلوهم في تجويز تكليف ما لا يطاق .

وغير ذلك من المسائل الفرعية التي سيأتي تفصيل قولهم فيها في فصول مستقلة .

مسألة (١٢) : الفرق بين الجبرية الغلاة والمتأخرين " الأشاعرة " :

الخلاف لفظي لأن الجهمية قالت ليس للعبد قدرة والأشاعرة قالت له قدرة ولكن غير مؤثرة ، ولم يعد الفرق بين المذهبين واضحاً مثل الفرق بين القدرية الغلاة منكري العلم والمعتزلة مثبتة العلم ومنكري الخلق، إلا ما كان من اعتراف وتقدير للأمر واحترام للشرع ومقت العاصي عند الجبرية المتأخرة من الأشاعرة بخلاف الغلاة فيكفرون بذلك .

مسألة (١٣) : أسماء الجبرية وسبب التسمية :

١- يسمون بالجبرية لأنهم قالوا الله يجبر العبد على الفعل، والعبد مجبور .

٢- ويسمون قدرية لخلافهم في القدر، وإن كان لابد من إضافة لفظ جبرية قدرية حتى لا يظن أنهم معتزلة فإذا أطلق لفظ قدرية انصرف للمعتزلة وممن سمى الجبرية بالقدرية الخلّال .

٣- ويسمون بالمشركين لأنهم أشركوا في باب الشرع وتوحيد العبادة.

مسألة (١٤) : الجبرية القدرية المشركة :

تزعم الجبرية الأشاعرة وغيرهم أن في قولهم بالجبر إثبات للتوحيد فيوحد الله في خلقه وزعموا أن إثبات قدرة مؤثرة للعبد إثبات خالق مع الله وهذا شرك .

والحق أنهم أقرب الناس للمشركين ولذلك هم القدرية المشركة .

وفي مثلهم قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾ الأنعام: ١٤٨.

حيث زعموا أن الله أجبرهم وأنهم لا يملكون قدرة مؤثرة واختيار حقيقي .

مسألة (١٥) : علاقة الجبر بالإرجاء :

إذا اجتمع الجبر والإرجاء عند شخص فسد عنده الشرع وضاع ، لأن حقيقة الجبر عدم اللوم على الفعل لأنه خارج عن إرادته ، وحقيقة الإرجاء خروج العمل من الإيمان فلا يجب أصلاً عليه، فيفسد الشرع عنده .

وممن جمع بين الجبر والإرجاء الجهمية والأشاعرة وأغلب الصوفية .

والقاعدة : أن كل جبري مرجئ وليس كل مرجئ جبري .

المبحث الثالث

من اتهم بالقدر من أهل العلم من أهل السنة

١-الحسن البصري رحمه الله :

أدعت القدرية المعتزلة أن الحسن البصري منهم وقال بقولهم وحاشاه وقد برّأه من عاصره من هذه التهمة ونقل اللالكائي في أصول الاعتقاد والذهبي في العبر نقول عن غير واحد في إبطال هذه الإشاعة عنه رحمه الله .

٢- مكحول الشامي ت (١١٣) :

فقد رمي بالقدر وقد برأه الأوزاعي رحمه الله .

ورمي بالقدر من أهل العلم أيضاً :

٣- قتادة بن دعامة السدوسي ت ١١٨ .

٤- وهشام الدستوائي ت ١٥٣ .

٥- ثور بن يزيد ت ١٥٣ .

٦- ابن ثوبان ت١٦٥ .

٧- صدقة بن عبدالله ت ١٦٦[1].

---

[1] انظر القدرية والمرجئة للعقل ص ٥٤ .

المبحث الرابع

رؤوس المخالفين في القدر

١- إبليس لعنه الله .

٢- سنسوية أو سوسن رجل نصراني ادّعى الإسلام نفاقاً ودسيسة[1].

٣- معبد الجهني – قتل سنة ٨٠هـ (قدري غالٍ).

٤- غيلان الدمشقي – قتل ١٠٥هـ (قدري غالٍ).

٥- واصل بن عطاء – ت ١٣١هـ (قدري) .

٦- عمر بن عبيد – ت : ١٤٣هـ (قدري) .

٧- الجعد بن درهم – قتل ١١٨هـ (جبري غالٍ) .

٨- الجهم بن صفوان – قتل ١٢٨هـ (جبري غالٍ).

٩- أبو الحسن الأشعري (جبري) .

١٠- القاضي عبدالجبار الهمداني (قدري) .

١١- الفخر الرازي [2]. (جبري) .

---

[1] هذا الرجل دوره في هدم الإسلام مشابه لدور عبدالله بن سبأ ، فهذا الرجل دخل من باب القدر وذاك من باب الإمامة والصحابة وآل البيت .

[2] عددت عبدالجبار والرازي في رؤوس القدرية لأنهما أعظم من قرر المذهبين، وإن لم يأتوا بقول جديد في باب القدر كسابقيهم لكن كان للأول دور في نشر مذهب القدرية وللثاني دور في نشر مذهب الجبرية .

المبحث الخامس

الفرق التي وافقت أهل السنة في باب القدر

يوجد بعض الفرق الضالة التي قالت بمذهب أهل السنة في القدر وخالفت القدرية والجبرية مع أنها تخالف أهل السنة في أبواب كثيرة كالصفات مثلاً ومن هذه الفرق :

أولاً : الإباضية : فإنهم على مذهب أهل السنة وقد ردوا على القدرية والجبرية وانظر مشارق أنوار العقول الباب الخامس في تقرير مذهبهم[1].

الثانية : الكلّابية : أتباع سعيد بن كلّاب شيخ الأشعري، والكلّابية اخذت عنهم الأشاعرة في الصفات ولم تأخذ القدر منهم بل أخذته عن الجهمية وأما الكلابية فإنهم على معتقد أهل السنة في القدر وتخالف القدرية والجبرية والجهمية[2].

الثالثة : الماتريدية : جمهورهم على مذهب أهل السنة في باب القدر[3].

الرابعة : بعض الأشاعرة : وانظر مثلاً الجويني شيخ وإمام الأشاعرة في رسالته النظامية فإنه خالف معتقد الأشاعرة الجبري ومال لمذهب أهل السنة[4].

الخامسة:الضرارية من المعتزلة قالت بمذهب أهل السنة في أفعال العباد (٥) .

---

[1] مشارق الأنوار ٢/ ١٦٨

[2] انظر أراء الكلابية . الشلالي .

[3] أنظر تبصرة الأدلة للنسفي ٥٤١/ ٥٧٠-٥٩٧-٦٩٠-٧٠٩ .

[4] انظر الرسالة النظامية .

[5] الضرارية اتباع ضرار بن عمرو الضبي وهو من رؤوس المعتزلة وقد اختلف أصحاب المقالات في عده من المعتزلة فجعله ابن حزم والذهبي وابن حجر من المعتزلة بينما أخرجه الشهرستاني والبغدادي من فرق المعتزلة . كذلك اختلفوا في مذهبهم في القدر فنسبه البعض إلى الجبر ومذهب جهم ولكن الصحيح أنه على مذهب أهل السنة في أفعال العباد مخالفاً بقية المعتزلة وانظر قول ضرار في درء التعارض ٧/ ٢٧٤ .

المبحث السادس

الفرق الضالة في القدر والتي على قول القدرية أو الجبرية.

الفرق التي على مذهب القدرية :

١- الفلاسفة والعصرية

٢- الرافضة

٣- الزيدية

٤- المنجمين والكهنة ومن يعتقد تأثير الكواكب

الفرق التي على مذهب الجبرية :

١- الجهمية

٢- الأشاعرة

٣- الصوفية

٤- الباطنية

٥- الماركسية

٦- المشركين

المبحث السابع

أسباب الضلال في القدر وخروج الفرق والمذاهب الضالة

هناك أسباب عامة وأسباب تخص بعض الفرق .

فمن الأسباب العامة :

١ – عدم التسليم بنصوص الكتاب والسنة والانقياد لأوامر وأخبار الوحي .

٢ – كثرة الاعتراضات والتشكيك والسؤال في القدر بلم وكيف والإكثار من السؤال عن الحكمة .

٣– التسوية وعدم التفريق بين الخلق والفعل والانفعال والفعل .

٤ – التسوية بين الإرادتين الكونية القدرية والشرعية الأمرية الدينية .

هذه أسباب عامة في القدرية والجبرية وهناك أسباب خاصة بكل طائفة.

الأسباب الخاصة بالقدرية :

١ – أن الكفر والمعاصي قبح وشر، والشر والقبح لا يضاف إلى الله .

٢ – كيف يريد الله خلاف ما أمر الله به والأمر مستلزم الإرادة .

٣– كيف يخلق الشيء ويريده ثم يعاقب عليه .

الأسباب الخاصة بضلال الجبرية :

١ – اعتقادهم أن كل شيء أراده الله فقد أحبه .

٢ – ظنهم أن في إثبات قدرة للعبد مؤثرة خروج عن خلق الله .

٣– ظهور القدرية ومحاولتهم الرد عليهم .

هذه الأسباب والشبهات مردود عليها والحمد لله وقد أفردنا بعضها بفصل مستقل .

المبحث الثامن

اللوازم الفاسدة من المذهبين

أولاً : اللوازم الفاسدة في مذهب القدرية :

١- وجود خالق غير الله وهو العبد الخالق لفعله وحصول أمور خارجة عن ملكه .

٢- الشرك في الربوبية كالمجوس ولازمه الكفر الأكبر .

٣- أن إرادة غير الله تغلب إرادة الله وكذا ضعف إرادة الله في معاصي الخلق .

٤- حصول أمور في ملكه لا يريدها ولا يقدر على إبعادها .

٥- عدم تفضل الله ومنته على خلقه .

ثانياً : اللوازم الفاسدة عند الجبرية :

١- إبطال الشرع والأمر والدين .

٢- معاقبة الناس على ما لا يستحقون وما لا قدرة لهم فيه .

٣- العبث في أفعال الله .

وغير ذلك كثير .

المبحث التاسع

المسائل التي حصل الخلاف والضلال فيها من القدرية والجبرية

أولاً: جامع أقوال القدرية في القدر:

١- إنكارهم مرتبتي المشيئة والخلق المتعلقة بأفعال العباد. فالله عندهم لم يقّدر أفعال العباد ولم يشأها ولم يخلقها.

٢- عندهم العباد هم الخالقون لأفعالهم.

٣- إنكارهم الإرادة القدرية،واقتصارهم على إثبات الإرادة الشرعية.

٤- أن الله لم يضل أحدا ولا يهدي أحدا.

٥- أن المؤمن لا يختص بهداية أو توفيق من الله ، بل كل الناس في هداية الله سواء، ويفسرون الهداية بالإثابة أو التسمية أو العلامة ، ومثل ذلك الضلال والطبع والختم مجرد العلامة غير المؤثرة.

٦- أن الجنة يدخلها المؤمنون بمجرد أعمالهم فهي عوض.

٧- يثبتون الحكمة ويخالفون من جهة الصفات فيها.

٨- أن العقل مستقل بالتحسين والتقبيح، والثواب والعقاب مترتب عليه.

٩- أوجبوا على الله أمور، ومنها فعل الأصلح لعباده.

١٠- أن الله لايكلف ما لايطاق، وأدخلوا في ذلك تكليف الكافر الإيمان.

١١- أنكروا الاستطاعة القدرية، واقتصروا على الشرعية .

١٢- فسروا الظلم بغير حقيقته،وهو أن يكون خالقا لأفعال العباد.

١٣- اعتمدوا على الأسباب وغلو في حقيقتها و تأثيرها حتى جعلوها مـؤثرة بـذاتها استقلالاً من دون الله .

١٤- كل ما أراده الله فقد أحبـه، والكفـر والمعـاصي لم يردهـا الله لأنـه لم يحبهـا، ولم يفرقوا بين الإرادتين .

١٥- كل ما أمر الله به فقد أراده وأحبه .

١٦- أنكروا أن يخلق الله الشر وأفعال العباد والكفر .

١٧- يجب عندهم الرضا بكل ما قدره الله، والكفر لا يرضى به لأنه غير مقدر.

١٨- ينكر القدرية حديث احتجاج آدم وموسى و زعموا أن الذي غلب موسى .

١٩- ينكر القدرية كثير من الأحاديث التي تخالف مذهبهم ولا توافقه.

ثانياً : جامع أقوال الجبرية :

١- غلت الجبرية في جانب القدر وأهملت الشرع، في مقابل القدريـة التـي غلـت في جانب الشرع وأهملت جانب القدر.

٢- زعمت أن العبد مجبور وليس له إرادة ولا اختيـار ولا قـدرة مـؤثرة، وابتـدعت الأشاعرة الكسب لترقّع قولهم في فعل العبد .

٣- أنكرت الجبرية الإرادة الشرعية وزعمت أن كل ما أراده الله قدراً قد أراده شرعاً وأحبه .

٤- عندهم الله يخلق الهداية والتوفيـق في المـؤمن، والـضلال والخـذلان والطبـع في الكافر، وليس للعبد اختيار ولا اهتداء ولا تسبب في ذلك كله.

٥- أن الله يفعل ويقدر من غير حكمة ولا تعليل حتى لا يكون محتاجاً لخلقه .

٦- أن العقل لا يعرف حسن الأفعال ولا قبحها .

٧- الجبرية أرادوا أن ينزهوا الله فنفوا عنه أشياء يفعلها وكتبها على نفسه وأثبتها لنفسه، بزعم أنه لا يجب عليه شيء ، ولم ينزهوه عن فعل مطلقا. فوقعوا في التناقض.

٨- زعمت أن الله يجوز أن يكلف بما لا يطاق .

٩- أنكرت الجبرية أحد جانبي الاستطاعة وهي الاستطاعة الشرعية التي قبل الفعل المصححة له .

١٠- الظلم عندهم ممتنع ومستحيل في حق الله لأنه من التصرف في ملك الغير ، وكل شيء تحت ملك الله .

١١- أنكرت الجبرية الأسباب وحقيقتها وتأثيرها وجعلوها مجرد علامات كالشرط للمشروط.

١٢- كل ما أراده الله فقد أحبه والكفر والمعاصي مرادة فيحبها الله .

١٣- لا يوجد شر مطلقاً في المعاصي لأنها من القدر .

١٤- يجب الرضا بكل ما قدر الله ويجب الرضا بالمعاصي لأنها من قدر الله .

١٥- يزعم الجبرية أن آدم حاج موسى بالقدر على الذنب لا المصيبة.

١٦- يفسر الجبرية بعض الأحاديث بغير معناها وبما يوافق مذهبهم.

وكل هذه المسأل سنأتي عليها بالتفصيل إن شاء الله تعالى، وإنما أحببنا أن نضع جميع مخالفات الفرق الضالة بين يديك ونحصرها لك حتى يتم لك ضبط مسائل القدر، والحمد لله على منته وفضله، ونعوذ بالله من الضلال وأهله .

*** قاعدة جامعة في التفريق بين الجبري والقدري :**

أولاً: الجبرية :غلو في القدر على حساب الشرع وأشركوا في توحيد الألوهية والشرع:

فأنكروا كل شيء شرعي: ١- الإرادة الشرعية . والاستطاعة الشرعية .

٢- كما زعموا أن المعاصي يحبها الله ويرضى الكفر.

٣- كما أنكروا الأسباب وتأثيرها .

٤- كما أنكروا أفعال العباد وقدرتهم المؤثرة في الفعل.

٥- وأنكروا الحكمة والتعليل في أفعال الله.

٦- وأنكروا التحسين والتقبيح العقلي .

٧- كما أنكروا حقيقة الظلم ووجوده .

٨- كما أنكروا اهتداء العبد وتزيين الشيطان وإضلاله.

ثانياً:القدرية:غلو في الشرع وأنكروا القدر والجانب الإلهي فأشركوا في الربوبية :

١- حيث أنكروا الإرادة القدرية . وأنكروا الاستطاعة القدرية .

٢- كما زعموا أن المعاصي والكفر غير مراده ولم يقدرها الله ولم يخلقها .

٣- غلو في إثبات الأسباب واستقلالها.

٤- كما غلو في إثبات أفعال العباد حتى أنكروا خلق الله لها .

٥- وغلو في العقل وتحسينه وتقبيحه .

٦- كما أوجبوا على الله بقياس عقولهم.

٧- كما أخطئوا في حقيقة الظلم ففسروه بخلق أفعال العباد .

٨- كما أنكروا التوفيق والخذلان وإضلال الله تعالى.

الفصل الثاني عشر

أدلة المخالفين وشبهاتهم والرد عليها :

تمهيد :

اعلم أن هذا الفصل سنذكر فيه الأدلة والخلاف مع الفرق التي استقّرت بـدعتها ولا تزال إلى اليوم وهم طائفتان القدرية والجبرية .

والذي حمل بدعة القدرية هم المعتزلة والرافضة والزيدية .

والذي حمل بدعة الجبرية الجهمية الأشاعرة .

والذي يهمنا من قال بها وهل هي باقية وأين توجد والرد عليها وتبيين عوارها ، وسبب منشأها وثمرة الخلاف، مع إيضاح علاقة كل مسألة ابتدع فيها بموضوع القدر، وهل المخالف وافق أصله أم خالفه وعلى سبيل المثال :

الماتريدية :

في أغلبهم وأغلب المسائل عندهم التمشي على مذهب أهل السنة ولكن لا يعني أنهم وافقوهم في كل شيء ففي مسألة التحسين والتقبيح وافقوا فيها المعتزلة.

والإباضية :

نجد بعضهم موافق لأهل السنة في مسائل ويقول بمذهب الجبرية في مسائل أخرى وإن كان جمهورهم على مذهب أهل السنة.

الأشاعرة :

والذين يعد مذهبهم من أوسع المذاهب رواجاً في البلدان وابتلى به كثير من المسلمين في العديد من البلاد الإسلامية نلحظ فيهم أمرين :

الأول : كثرة اختلافهم على أئمتهم، بل أقول أنه لم يعرف المذهب الأشعري الاستقرار وقلة الاختلاف إلا بعد الرازي الذي يعد أكبر منظر للأشاعرة ومدلل بعد إمامهم الأشعري وخذ على سبيل المثال أقوال الباقلاني وابن فورك والبيهقي في كتابه القدر وهو خيرهم والغزالي والجويني .

والجويني والذي هو من أعلمهم ومن أئمتهم قد رجع إلى مذهب أهل السنة في القدر وغيره وألف رسالته التي تعد من آخر ما ألف وهي العقيدة النظامية[1].

الأمر الثاني : تجد التناقض الصريح الواضح في أصل مذهبهم، بل ويصل بهم في بعض المسائل إلى العجز عن تفسير حقيقة قولهم وانظر على سبيل المثال مسألة الكسب، والرؤية في غير جهة، ووجود الله في غير جهة[2]، بل وتأمل من حيرة الرازي ودخوله في الفلاسفة والكلام ثم توبته منها، وسيمر عليك شيء من تناقضاتهم إن شاء الله وهذا الذي حصل لهم من أعظم أسبابه عدم الوقوف على ما وقف عليه السلف والإيمان بمحكمات الكتاب وصحيح السنة ومحاولتهم الجمع بين الفلسفة والشريعة واللهث حول الكلام المحرم الذي خلفه الجهمية والمعتزلة ، فصدق فيهم قول الأول الأشاعرة مخانيث المعتزلة اخذوا الفلسفة وأضاعوا الشرع، فلا الشرع حفظوا ولا الفلسفة وبالعقل انضبطوا بل تناقضوا واضطربوا وغيرهم مثلهم .

والآن نشرع في المقصود ثم المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الفرق القدرية بناء على أصل القدر أو لها أثر وعلاقة واضحة في مسائل القدر.

---

(1) الجويني له قولان في القدر الأول منهما على مذهب الجبرية الأشاعرة كما في كتابه الإرشاد والثاني على مذهب أهل السنة كما في رسالته النظامية .

(2) انظر كلام ابن عدلان الأشعري في مشكلات التوحيد ص ٢٣١.

المبحث الأول

القدرية " المعتزلة "

وهم القائلون أن العبد يخلق فعل نفسه والله غير خالق ولا مؤثر في فعل العبد واختياره، وأن هذا هو العدل وما سواه هو الظلم، وأن الله يجب عليه هذا الأمر، وأن الجنة والنار مترتبة على العمل دون غيره، وهذا من الاعتماد على الأسباب دون إرجاع السبب والمسبب إلى الله تعالى .

شبههم وأدلتها :

١ - قالوا أن في إيقاع العذاب على العبد على بذنبه، مع كون الله خلق الذنب فيه ظلمٌ وبعدٌ عن العدل، والله منزهٌ عن الظلم موصوفٌ بالعدل، وأين العدل لو خلق الله الذنب في العبد ثم عاقبه عليه.

وأيضاً في كون الله خالقاً لأفعال العباد إبطال للثواب والعقاب، فكيف يعاقبون على شيء خلق فيهم فهذا ظلم لهم .

وأيضاً الذنوب لا يحبها فهي غير مراده فكيف يخلقها وهذه شبهة ثالثة .

وهذه الشبه استدلوا لها بأدلة نقلية منها الآيات لتي تثبت تعلق العمل بالمخلوق :

كقوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ الكهف: ٢٩

وقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾ البقرة: ٢٨

وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي ﴾ القصص: ١٦

وقوله تعالى: ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ العنكبوت: ١٧ .

وغير ذلك من الأدلة .

٢- أن الله لا يريد المعاصي ولا يرضاها ويكرهها وأن الله لا يريد إلا الطاعة والعبادة، فعلم أن المعاصي لما وجدت والله لم يريدها أنها خرجت عن خلقه ومشيئته، واستدلوا لهذه الشبهة من القرآن بأدلة منها:

قوله تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ الزمر: ٧.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦ .

الرد على هذه الشبهات والإجابة عن الأدلة التي استدلوا بها :

أولاً : الآيات والأدلة القطعية التي أثبتت أن الله خالق لأفعال العباد ثابتة مثلها مثل الأدلة التي دلت على تحريم الظلم وأن الله عدل حكيم وأن الله يكره المعاصي ويريد الطاعات وأن الله خلقها ولو لم يحبها فوجب الإيمان بجميع الآيات وعدم ضربها ببعض وإظهار التعارض وتلمس ذلك وعدم التسليم لها .

ثانيا: أنه لا تعارض عقلاً بين أن يخلق أفعال العباد ويخلق لهم اختيار وإرادة تابعة لإرادة الله ثم يعاقبهم ويثيبهم على هذه الإرادة والاختيار المخلوقات وليس في ذلك ظلماً ولا إكراهاً بل هو مقتضى الكمال والعدل .

ثالثا: أنهم وقعوا في قولٍ هو أشر مما فروا منه، حيث أرادوا الفرار من أن يكون الله ظالما، إلى ما هو أشد شراً، وهو إثبات خالق مع الله، ووجود مخلوقات خارجة عن ملك الله وخلقه، وهي الأعمال والمعاصي، وأن إرادة المخلوق غلبت إرادة الله .

رابعا: وأما قولهم أن في خلق أفعال العباد وتعذيبهم عليها ظلم فهذا باطل من وجوه:

الأول: أن الظلم متصور لو لم يكن لهم اختيار وإرادة ومشيئة، أما إن كانت لهم إرادة تابعة لإرادة الله وهي مخلوقة فأي ظلم مادام العبد يستطيع أن يـؤمن ويكفـر ويطيـع ويعصي ويفعل ويترك والله أعطاه العقل والسمع والإرادة وأرسل إليه رسولاً فـأين الظلم في هذا ؟، وهل حتى لا يكون فيه ظلـم ويـرضى القدريـة المجـوس نقـول أن أفعال العباد لم يخلقها الله ولا يقـدر عليهـا وأن الله مكـره عليهـا وأن إرادة المخلـوق وقدرته غلبت إرادة الله وقدرته ومشيئته، فأي ظلم أعظم من هذا وأي بعد عن الحق وردٍ للنصوص أكبر من هذا، وما معنى أن الله علم المعاصي[1] فما المانع أنه أرادها، ثم كيف يحصل في ملكه ما لا يريد فهذا في غاية النقص ليس في الـرب تقـدس سـبحانه وإنما حتى في ملوك البشر والله أعلى وأجل وأعظم من أن يحـصل في سـلطانه أمـر لا يريده وأن يكون هناكمخلوقات لغيره، والحق أن هذا القول مـا تجـرأ عليـه إلا كـل مجوسي مثبت مع الله خالق غيره بعيد عن الشرع والعقل والهدى.

الثاني : أن المعاصي والكفر سببه العبد وإن كان الله خالق لها، فالله هدى المؤمن هداية دلالة فاستجاب، فاجتباه وهداه ووفقه، والكـافر هـداه الله هدايـة الدلالـة والبيـان فاستحب العمى والكفر على الهدى، فأضله الله وأغـواه وخذلـه ومـا ذاك إلا لعـدم

---

[1] تأمل كلام الشافعي رحمه الله في مناظرة القدرية يقول : ناظروا القدرية بالعلم فإن أقروا به خـصموا وإن أنكـروه كفروا، وكذلك يخاصمون ويناضرون بالقدرة فهل الله يقدر على خلق المعاصي وهل يعلـم بهـا إن قـالوا لا كفـروا لأنهم أنكروا العلم والقدرة وإن قالوا نعم خصموا فما المانع أن يريدها ويخلقها لما علمها وقـدر عليهـا وإن كـان لا يحبها ولا يرضاها لأنه لا تلازم بين المحبة والإرادة الكونية كما تزعمه القدرية بل قـد تتوافـق الإرادة والمحبـة مثـل إيمان أبي بكر وقد تتعارض مثل كفر أبو لهب.

دخوله في مطلق التسليم والانقياد وعموم العبادة والطاعة فتسبب في حرمان نفسه من الهداية وهذا ليس ظلم بل هو كمال العدل والحكمة .

الثالث : أن الظلم متصوّر فيما لو منع الله بعض العباد شيء من حقهم، أما والأمر أنه تفضل على البعض بإعانة وتوفيق ووكل آخرين لعقولهم فضلوا وكفروا وخذلهم الله وسلب منهم نعمة الهداية لأسباب في أنفسهم وسوء في قلوبهم فأي ظلم في هذا ؟ إن هذا لهو الكمال المطلق والعدل والرحمة .

الرابع : أن القول بأن خلق الفعل مع العقوبة ظلم، بمنزلة القول أن خلق السم وأكله ثم حصول الموت به ظلم فكما أن هذا سبب للموت فهذا سبب للعقوبة ولا ظلم فيهما.

خامسا: وأما قولهم : في خلق أفعال العباد إبطالٌ للثواب والعقاب فكيف يعاقبهم على ما خلقه فيهم.

فالجواب: أن هذا غير صحيح لا شرعاً ولا عقلاً .

فأما شرعاً فالأدلة المثبتة للثواب والعقاب مثلها مثل الأدلة المثبتة أن الله خلق أفعال العباد وأنها داخلة تحت مشيئته فوجب الإيمان بها جميعاً .

وأما عقلاً فلا إبطال للعقاب والثواب مع وجود الاختيار والإرادة الحقيقية المخلوقة، فإنه لو عاقبه على أمر لا يستطيع خلافه لأبطل مبدأ الثواب والعقاب، أما ما دام أنه أعطاه القدرة والإرادة وله الاختيار ثم عاقبه عليها أو أثابه، فهذا ليس بظلم ولا إبطال للثواب والعقاب فيه، ولا يمنع أن الله يزيد مع هذا مزيد توفيق وإعانة للمؤمن ولا يعين الكافر أو العاصي في شيء من ذلك لما يستحقه من ابتعاده

وعدم إيمانه وهذا مزيد فضل ورحمة ولم يظلم الكافر والعاصي ولم يمنعه شيء لا يستطيع الطاعة إلا به، فأعطاه سلامة الآلة والعقل ولم يعنه ولم يوفقه وهو ما يسمى بالخذلان وهو عدمي لا وجود له إلا أنه سلب للإعانة والتوفيق، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ولا ظلم في فضله، أماما يترتب على الاستطاعة الشرعية وسلامة الآلات وإرسال الرسل وهداية البيان فالناس فيها سواء المؤمن والكافر .

وهذه مسألة الاستطاعة. وتزعم القدرية أن عدم التسوية مطلقاً ظلم، فيجب التسوية في التوفيق[1] ظناً منهم أن الناس في الهداية سواء وأن غير المهتدي لا يمكن ولا يستطيع العمل لا عقلاً ولا شرعاً، وهذا باطل فالتوفيق مزيد فضل ورحمة من الله، مع أنها تحصل للمؤمن لطلبة لها ولا تحصل للكافر ببعده عن أسبابها إذا لا ظلم فلو كان الكافر معاق أو لا يقدر أو عديم العقل أو الإرادة فهذا يقال فيه ظلم على هذا، أما أن الله لم يعنه ولم يزيده توفيق فهذا ليس بظلم .

سادسا: وأما قولهم : المعاصي لا يحبها وما لا يحبه لا يريده :

فإن هذا مبني على أصلهم الفاسد وهو أن المحبة والإرادة بمعنى واحد وهذا باطل وله مبحث مستقل، وفيه أن الإرادة قسمان:

إرادة كونية بمعنى المشيئة، ومثالها قوله تعالى:﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾الأنعام: ١٢٥.

---

[1] وقولهم هذا مثل لو قال قائل يجب عليك العدل في الصدقة والهدية فإذا أعطيت فقيراً ألف تعطي كل من معه ألف ولا تفاضل بينهم لأنك تصبح حينئذ ظالماً لهم .

وإرادة شرعية أمرية دينية بمعنى المحبة ومثالها قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ﴾ البقرة: ١٨٥ .

والفرق بين الإرادتين واضح:

فالكونية لابد من وقوعها إذا أرادها الله، بينما الشرعية قد لا تقع .

والإرادة الشرعية يحبها الله مثل الطاعة هي إرادة شرعية يحبها الله ولكن قد لا تقع، والإرادة الكونية قد لا يحبها مثل إرادة الكفر من أبي جهل، فالله لا يحب الكفر مع أنه أراده من أبي جهل .

فإن قيل : كيف يريد الله شيء لا يحبه ؟

قيل : المراد قسمان :

مراد لذاته مثل الأكل للغذاء، ومراد لغيره مثل شرب الدواء المر طلباً للشفاء، فالإرادة ليست لذات الدواء وإنما لأجل الشفاء ولو كان الدواء مراً[1].

كذلك خلْق إبليس وخلْق كفر أبي جهل هو لحكمة وإرادة حتى يظهر الجهاد والدعاء ويصطفى الله من يحب وغير ذلك من الحكم والفوائد .

ثم أيضاً القول بأن الله أراد الإيمان من أبي جهل ولم يرد ويشاء كفره .

فيه إلزام فاسد ونقص بالخالق وهو أن الله أراد الطاعة، والكافر أراد المعصية، فغلبت إرادة الكافر إرادة الله وهذا في غاية الشناعة، فكيف الملك الجبار تُغلَب إرادته ويحصل في ملكه ما لا يريده ويشاءه، فإنه وإن كان لا يحبه ولا يرضاه إلا أنه لا يدل

---

[1] يستشكل بعض الفرق القدرية بقولهم هلا أراد الله الأمر مباشرةً وجعل كل مراداته محبوبة . وسيأتي الجواب عن هذه الشبهة .

على أنه لم يرده ويشاءه أو خرج عن خلقه، عليه فالجهة منفكة بين المحبة والرضا والإرادة والمشيئة [1].

سابعا: وأما قولهم: أن الجنة مترتبة على العمل مثل العوض:

فهذا باطل فدخول الجنة برحمة الله مع العمل ولذلك هذا الموضع ضلت فيه القدرية والجبرية: القدرية أنكروا الفضل والرحمة من الله، والجبرية أنكروا الأعمال وأنها سبب لدخول الجنة.

ويرد على الجبرية بقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ الأحقاف: ١٤ والباء هنا ليست عوضاً وإنما للسببية.

ويرد على القدرية بقوله صلى الله عليه وسلم: " لن يدخل الجنة أحد بعمله " والباء هنا بمعنى العوض، لأن الجنة لا يساويها شيء وإنما تفضل الله علينا برحمته فيسر لنا الأعمال وأثابنا عليها وجعل قليل العمل يحصل به كثير الجزاء والأجر والثواب.

ثامنا: وأما الآيات القرآنية التي استدل بها المعتزلة على أن الإيمان والكفر والظلم من الإنسان:

فالجواب أن هذه أدلة صحيحة ولكن لا يعني أنها لا تدل على أن الله خالق لها فأين الدليل منها على أن الله لم يخلق أفعال العباد بل أثبت الله أنه شاءها وخلقها بعد أن أثبتها للعبد كما في قوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ التكوير: ٢٩ وقوله تعالى: ﴿ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾ الشمس: ٨، فهذه وغيرها أدلة تثبت العمل للعبد وأن العبد

---

[1] ستأتي هذه المسألة في فصل مستقل وهو علاقة المحبة بالإرادة.

وعمله مخلوق لله وواقع تحت مشيئة الله، فكيف زاغت هذه العقول عن فهم الحقيقة والنظر الصحيح والجمع بين الأدلة .

تاسعا: ومن أسباب خطأ القدرية:

أولا: عدم التفريق بين الإرادة والمشيئة وبين المحبة والرضا.

ثانياً: وهو أمر مهم أيضاً في ضلال القدرية وهو أنهم لم يفرقوا بين فعل الله القائم به وبين ما هو من مخلوقاته المنفصلة عنه ، فالشمس وحركتها مخلوقتان وحركة الشمس لا يقال فعل الله بل فعل الشمس ولكن أيضاً لا أحد يقول أن حركة الشمس غير مخلوقة وأنها تنسب للشمس فالشمس هي التي خلقتها، كذلك السرقة والعبد وفعله، فالعبد وسرقته خلقها الله ولا يقال فعل الله السرقة وإنما خلق الله السرقة، ولا يقال خلق العبد السرقة وإنما فعلها، فالخلق صفة لله ثابتة والفعل للمخلوق، ولا يلزم من كونه للمخلوق أنه هو الذي خلقه وأن الله لم يخلقه بل الله الخالق والعبد العامل الفاعل ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الصافات: ٩٦ .

وهذه مسألة لها ارتباط وثيق وعلاقة مهمة بالصفات، وقد ضل فيها المعتزلة القدرية وسبب ضلالهم فيها خلطهم وضلالهم في مسألة هل الفعل عين المفعول وهل الخلق عين المخلوق وأثمرت المسألة قول فاسد وهو أن أفعال الله غير قائمة بالله ومنفصلة عنه وقد ذكر هذه الشبهة شيخ الإسلام ورد عليها[1] .

ثالثا : محاولة تنزيه الله عن الظلم

عاشرا: ومن أعظم ما يرد قول المعتزلة والقدرية آيات في كتاب الله :

---

[1] انظر : القدر بالمجموع ص ١٢٣ ، ودرء التعارض ج٥ ص ٤٩ .

١ - قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الصافات: ٩٦ .

و(ما) لها تفسيران :

إما مصدرية والمعنى خلقكم وعملكم .

أو موصولة والمعنى خلقكم والذي تعملون .

وكلا التفسيرين حجة على القدرية لأنه أثبت أن الله سبحانه خلق الكافر وعمله .

٢ - وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

وهذه الآية فيها رد على الجبرية والقدرية، فأثبتت للعبد مشيئة ولكنها لا تحصل إلا بعد إرادة الله ومشيئته وخلقه لها فأي حق بعد هذا .

٣ - وقوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ الشمس: ٨ .

فللنفس فجور وتقوى تنسب إليها وهي من أعمالها وترجع إلى إلهام الله وهدايته وإضلاله .

٤ - وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ السجدة: ١٣.

٥ - وقوله ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الزمر: ٦٢.

ويا عجباً كيف بالمعتزلة يدخلون كلام الله الذي هو صفة من صفاته في هذا العموم بل وجميع الصفات يقولون مخلوقة ، بينما يخرجون أفعال العباد من هذه العموم والتي هي في الحقيقة مخلوقة ومرادة لله .

الحادي عشر : الإجابة عن الأدلة لتي استدلوا بها :

أما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ المؤمنون: ١٤.

فلا دليل في على وجود خالق مع الله وهو العبد كما تزعم القدرية، بل معنى الخلق هنا التقدير وهو أحد مراتب الخلق .

وأما استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ العنكبوت: ١٧ .

فإن معناه تقدّرون .

لأن الخلق في لغة العرب على معنيين :

الأول : بمعنى الإبداع والإنشاء .

والثاني : بمعنى التقدير والتصوير، وهو المراد هنا.

والخلق له ثلاث درجات :

التقدير ثم التصوير ثم الإبراء والإفراء وهو خاتمة الخلق وتمامه .

المبحث الثاني

الجبرية "الأشاعرة"

مذهبهم :

أن الله خلق وأراد أفعال العباد وخلق لهم إرادة وقدرة ولكن لا تؤثر في الفعل، بل التأثير كله لله وليس للعبد تأثير واختيار وتقدم تفصيل قولهم .

وشبهتهم :

أنهم ظنوا أن إثبات قدرة مؤثرة وإرادة وفعل واختيار حقيقي إخراج لها من أن تكون مقدرة لله وأنها بمشيئته وأنها مخلوقة.

واستدلوا لذلك :

بأن الأفعال لما كانت بعلم الله وإرادته من الأزل ولن يحصل إلا ما يريده فكيف بعد ذلك يكون للعبد إرادة، ولذلك هو لا تأثير له لأن الله أراد فعله وأراد له أن لا يكون له تأثير وإرادة وقدرة مؤثرة .

واستدلوا لقولهم من القرآن بأدلة منها :

١ – قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾الأنفال: ١٧ .

٢ – وقوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ النساء: ٧٨ .

٣ – وقوله تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء: ١٥٥ .

٤ – وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الجاثية: ٢٣.

٥- وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾التكوير: ٢ .

٦- وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ السجدة: ١٣.

٧- وقوله ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الزمر: ٦٢.

الرد على شبهاتهم :

أولا: أما زعمهم التعارض بين أن يكون للعبد قدرة مؤثرة وإرادة حقيقية وبين أن تكون من خلق الله، فهذا في غاية الجهل بالتوحيد وبمسائل الشرع والأمر، فما المانع أن يكون الله خلق العبد وجعل له قدرة مؤثرة وإرادة ؟، وأن يكون العبد له الاختيار والإرادة المؤثرة والحقيقية في الفعل، ولكن تجري بعلم الله وتقديره وخلقه، ولم يجبره الله على شيء، فهل لابد من كون الله خالق لفعل العبد أن يكون العبد مجبور ولا تأثير لقدرته وإرادته، ثم أين الفرق بين الخلق والفعل فالخلق لله والفعل للعبد، فالله خلق السرقة والعبد فعلها بقدر الله وخلقه، ولذلك استحق العبد الجنة والنار بعمله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ واستحق اللوم على فعله لأن له اختيار وإرادة وقدرة مؤثرة وهذه كلها لا تخرج عن خلق الله وقدره .

ثانيا: أن الآيات التي استدلوا بها فيها ردّ عليهم، لأنها أثبتت الفعل للعبد، فقوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ فيها إثبات الفعل للرسولﷺ المخلوق، فالرمي ثابت له، وأما المنفي عنه فهو غير المثبت له .

وبيان ذلك أن الرمي له ابتداء وانتهاء، فابتداء الرمي من المخلوق، وأما انتهاؤه بالإصابة فهذا من الله، والمعنى وما أصبت لمّا حذفت ولكن الله أصاب .

ثم إنه يلزم على تفسيرهم الآية أن يقال : وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى ، وما سرقت إذ سرقت .. وفساد هذا القول ظاهر، تعالى الله سبحانه وتقدس.

وأما قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ فهذا في النعم والمصائب وليست في الطاعة والمعصية.

وأما قوله تعالى : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ففيها رد عليهم، حيث أثبتت الآية لهم الفعل وهو الكفر، فسبب معاقبتهم بالطبع على القلب فعلهم الكفر كذلك أثبتت لهم الإيمان ونسبته لهم . ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ وسبب الإضلال أن العبد اتخذ إلهه هواه مع علمه بالحق، فأثبت الله للعبد فعل وهو الاتخاذ والذي استحق بسببه العقاب وهو الإضلال ثم النار.

وأما قوله تعالى:﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فأثبت للعبد المشيئة ولكنها مخلوقة وتابعة لمشيئة الله، فكون الله خلقها وشاءها لا يدل على أن العبد ليس له اختيار ومشيئة كما أثبت ذلك سبحانه وتعالى.

وأما قوله:﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ فقد أثبتت الآية لله كمال وعموم المشيئة والخلق، ولكن من أين جاء الدليل منها على أن العبد ليس له قدرة وأنه لا يكون مريدا ولا مختارا ولا فاعلاً في الحقيقة، فهذا لا دليل عليه البتة من هذه الآية بل الدليل على خلاف ذلك .

ثالثا: أن الأدلة القرآنية دلت على أن العبد له فعل وقدرة حقيقية ومؤثرة وإرادة يثاب ويعاقب ويجازي عليها ويمدح ويلام عليها ومن هذه الأدلة :

قولـــــه تعـــــالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾الإسراء: ٩٤

وقوله تعالى:﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ ﴾البقرة: ٢٨

وقوله تعالى:﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾الواقعة: ٢٤

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴾المؤمنون: ٦٣ .

وغير ذلك من الأدلة الكثيرة الدالة على بطلان مذهب الجبرية والأشاعرة .

رابعا: أن العقل يفرق بين أفعال العبد فهي قسمان :

القسم الأول : نوع بدون قدرة ولا إرادة ولا اختيار فتكون اضطرارية صفة له ولا تكون فعلاً كحركات المرتعش ودقات القلب.

وقسم ثاني: يكون بقدرة وإرادة واختيار فتوصف بكونها صفة وفعلا وكسباً للعبد كالحركات الاختيارية، والله تعالى هو الذي أقدر العبد عليها وجعله فاعلاً مختاراً، ولهذا أنكر السلف الجبر لأن الجبر لا يكون إلا من عاجز ولا يكون إلا مع الإكراه .

خامسا: وأما قولهم بالكسب [1]:

فهو في الحقيقة عين قول جهم لأنه إنكار فعل العبد وأن يكون له قدرة وإرادة مؤثرة وتقدم الرد عليهم في ذلك، وأما تفسيرهم الكسب بما فسروه فليس عليه قول لأحد من السلف ولم يسبقهم أحد لهذه البدعة وهذا القول مردود عليهم .

---

[1] انظر الرد على الكسب مجموع الفتاوى ٨/ ١١٨ . وسيأتي مزيد بيان له عند الكلام عن أفعال العباد.

الخاتمة

بعد عرض المذاهب وأقوالهم وشبهاتهم في القدر، وما استدلوا به، والإجابة عنه، ورد شبهاتهم، يتضح القول الصواب والمذهب الحق الوسط، وهو مذهب أهل السنة والجماعة والأثر، والقول الحق الجامع بين الشرع والعقل، والمصدِّق لجميع نصوص الوحيين الكتاب والسنة .

بيان مذهب أهل السنة :

أن للقدر أربع مراتب :

العلم السابق بالأشياء ، وكتابته لها، ثم مشيئته، ثم خلقه لها، فكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، والدليل قوله تعالى:﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾القمر: ٤٩.

وأما عقيدتهم في أفعال العباد :

فيقولون أنها مخلوقة لله وتدخل تحت عموم المشيئة، ومع ذلك فالله أقدرهم عليها وخلق لهم إرادة وقدرة بها يفعلون ويقدرون ويستطيعون، والله أعان المؤمن ووفقه لأسباب الصلاح وفي ذلك رحمة من الله، وأضل الكافر وخذله لأسباب الشر والبعد عن الخير فيه عدل من الله وحكمة ورحمة، وجازاهم على أعمالهم، المؤمن برحمته والكافر بعدله سبحانه وبحمده، وكل ذلك له أدلة من الكتاب والسنة تثبت هذه العقيدة الحقة، المخالفة للغالي والجافي من الجبرية والقدرية .

فالجبرية من الأشاعرة وغيرهم القائلين بالجبر، المغالين في جانب خلق الله وقدرة والجافين في جانب الشرع وأفعال العباد، فأثبتوا الأول خلق الله، وأنكروا به الثاني

وهو الشرع وأفعال العباد، فقالوا بالكسب وهو في حقيقته عين الجبر وإنكار للإرادة والقدرة من العبد.

والقدرية من المعتزلة وغيرهم، أخرجوا أفعال العباد والكفر والمعاصي من خلق الله، وقالوا تجري باختيار العبد دون أن يخلقها الله أو يريدها، فغلو في جانب الشرع وأفعال العباد وجَفَوا وضيعوا وفرطوا في جانب القدر والخلق والربوبية.

ومن الآيات المحكمة الجامعة التي فيها رد على الفرقتين :

١ – قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾التكوير: ٢ .

٢ – وقوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾الشمس: ٨ .

٣ – وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾الصافات: ٩٦ .

ففي قوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا ﴾ وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ﴾ :

رد على القدرية الذين أخرجوا الأعمال عن خلق الله ومشيئته .

وفي قوله: ﴿ فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ وقوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ ﴾ وقوله: ﴿ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ :

رد على الجبرية الذين نفوا العمل عن العبد وسلبوا منه القدرة والإرادة والفعل .

ففي هذه الآيات رد صريح واضح على القدرية والجبرية، وإثبات لمذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب العظيم باب القدر، وقد جاءت عبارات السلف من الصحابة ومن بعدهم بهذه العقيدة وردوا على كلا الفرقتين فلله الحمد والمنة، ورزقنا الاستقامة على الهدى والسنة .

المبحث الثالث

مناظرات في القدر

١ – محاورة بين عبد الجبار المعتزلي وأبو إسحاق الاسفرائيني :

دخل القاضي عبد الجبار الهمداني المعتزلي على الصاحب بن عبَّاد وعنده الأستاذ أبو إسحاق فلما رأى القاضي أبا إسحاق.

قال القاضي لأبي إسحاق: سبحان من تنزه عن الفحشاء.

فقال الأستاذ أبو إسحاق: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

قال القاضي: أيشاء ربنا أن يعصي ؟

فقال الأستاذ : أيعصى ربنا قهراً ؟

قال القاضي : أرأيت إن منعني الهدى وقضا على بالردى أأحسن إلي أم أساء ؟

فقال الأستاذ : إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء.

فبهت القاضي عبد الجبار وخُصِم .

٢ – قصة الأعرابي مع عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة :

جاء أعرابي لعمرو بن عبيد وهو في درْسه وقد سُرِقَت ناقة الأعرابي، فقال ادع الله أن يردها علي، فقال عمرو : " اللهم إن ناقة هذا المسكين سرقت ولم تُرِدْ سرقتها اللهم أرددها عليه "، فقال الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك، قال : ولم ، قال : أخاف كما أراد ألا تُسْرق فسرقت، أن يريد ردها فلا ترد .

٣- مناظرة بين جبري وقدري ومجوسي :

جاء وقت الصلاة فلم يصلي الجبري فأنكر عليه القدري .

فقال الجبري : قدر الله على أن لا أصلي .

فلطمه القدري .

فقال الجبري: لم ضربتني .

فقال قدر الله على أن أضربك .

فالتزم الجبري بالصلاة وخُصِم .

وجاء القدري نفسه إلى مجوسي فقال لم لا تسلم .

قال المجوسي ما أراد الله لي أن أسلم .

فقال القدري بل أراد ولكن الشيطان الذي ما أراد .

فقال المجوسي أنا إذا أتبع إرادة من غلب وقهر فأيهما غلبت إرادته اتبعته .

فبهت القدري وخصم لفساد مذهبه .

تنبيهات نسوقها بين يدي المسائل الخلافية :

التنبيه الأول :

أن هذه المسائل التي سنذكرها لها علاقة بالقدر، فهي إما أن تكون أثّرت في الخلاف في القدر، أو العكس الخلاف في القدر أورث الخلاف فيها، وقد يتجاذبها أكثر من أصل مثل القدر مع الصفات أو القدر مع التوحيد في الألوهية ونحو ذلك.

التنبيه الثاني :

أن بعض المسائل الخلافية في القدر ليس ضرورياً أن تخالف فيه جميع الفرق القدرية الجبرية والقدرية، بل قد توافق مثلاً الجبرية أهل السنة و تخالفهم القدرية وقد يكون العكس، فالخلاف أحياناً يكون مع إحدى الفرقتين، وإن كان الغالب أن الفرقتين تخالف في أكثر المسائل تبعاً لأصولها في القدر، ولكن قد توافق في بعض المسائل مذهب أهل السنة ،أو تكون المسائل موافقة لأصولهم فلا يحصل لهم خلاف فيها .

التنبيه الثالث :

أن بعض الفرق الضالة في القدر قد تخالف أصولها، فالأشاعرة أو بعض رؤوسهم يخالفون مذهب الجبر في بعض المسائل، كذلك بعض رؤوس القدرية قد يخالفون مذهبهم كمخالفة الجبائي والنظّام في بعض المسائل، وقد اعتني بذكر أقوال رؤوس القدرية كعبدالجبار في كتابة المغني والشهرستاني في كتابة الملل ، ولا يهمنا الأشخاص بقدر ما يهمنا الفرق والمذاهب فلذلك قد لا نذكر خلاف بعض المنتمين للفرق إلا إذا كان لقوله فائدة مثل خلاف الجويني وقوله بمذهب أهل السنة ومخالفته للأشعرية .

التنبيه الرابع :

أن بعض المسائل التي سنذكرها قد يتجاذبها أصول أخرى غير القدر مثل الصفات والتوحيد أو الشرع وتوحيد الألوهية مثل الحكمة وغيرها .

التنبيه الخامس : المسائل التي وقع فيها الخلاف :

١- الإرادة أقسامها وما يلحق بها من مصطلحات قدرية .

٢- الهدى والتوفيق والضلال والخذلان والطبع والتزيين .

٣- أفعال العباد والكسب والجبر .

٤- الشرور وخلق الشر وعلاقته بالقدر وأفعال الله .

٥- الحكمة والتعليل

٦- التحسين والتقبيح العقليين

٧- فعل الأصلح ووجوبه

٨- تكليف ما لا يطاق .

٩- الاستطاعة .

١٠- الظلم .

١١- الأسباب .

١٢- علاقة الإرادة بالمحبة والرضا .

١٣- علاقة الإرادة بالأمر .

١٤- حكم الرضا بالقدر والمقدور .

١٥- الاحتجاج بالقدر وحديث احتجاج آدم وموسى .

الفصل الثالث عشر

الإرادة الربانية وأقسامها

المسألة الأولى: الإرادة الربّانية في القدر:

مما يجب معرفته أن الإرادة الربّانية تنقسم إلى قسمين قدرية وشرعية ويتبع هذا الأصل القضاء وملحقاته مثل الأمر والكتابة وغيرها، ومما ينبغي معرفته أن عدم اعتقاد هذا التقسيم يوجب الضلال في القدر وأفعال الله كما سنذكره .

المسألة الثانية: أقسام الارادة :

القسم الأول : الإرادة الكونية القدرية :

مسألة (١) أسماءها :

تسمى بالكونية: نسبة إلى الكون أي الوجود فلابد من وجودها .

وتسمى قدرية: نسبة للقدر وتعلقها به .

وتسمى وجودية: أي أنها موجودة ولابد من وقوعها .

وتسمى خلقية: لأنها مرتبط بالخلق، فهي بمعنى المشيئة المستلزمة للخلق، وهذه الإرادة لا تستلزم المحبة .

مسألة(٢) حقيقتها ومعناها :

هذه الإرادة هي بمعنى المشيئة فهي مرادفة لها، ولا يخرج عنها شيء فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء. فالطاعات والمعاصي كلها بمشيئة الله وإرادته .

مسألة (٣) مثالها :

إيمان أبي بكر أراده الله وكفر أبي جهل أراده الله وقـدّره وشـاءه، والعكـس إيـمان أبي جهل لم يرده الله لأنه لم يقع وكفر أبي بكر لم يرده الله أيضاً .

٤- الأدلة عليها :

١- قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾ الرعد: ١١.

٢- وقوله: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا ﴾ الأنعام: ١٢٥.

٥-منكريها:

هذه الإرادة أنكرتها القدرية واعتمدت عليها الجبرية دون غيرها .

القسم الثاني : الإرادة الشرعية الدينية :

مسألة(١) أسمائها :

تسمى الشرعية لأنها متعلقة بالشرع .

وتسمى بالدينية لأنها متعلقة بالدين .

وتسمى الأمرية لأنها متعلقة بالأمر وإن كان الأمر على قسمين كوني وشرعـي فهـي متعلقة بالأمر الشرعي .

وتسمى بالتكليفية نسبة للتكليف .

مسألة (٢) حقيقتها ومعناها :

هذه الإرادة تتضمن محبة الله ورضاه، وهي متعلقـة بالعبـادة، وهـذه قـد لا يتحقـق وجودها مثل الإيمان من أبي جهل أراده الله شرعاً ولم يرده كوناً وقدراً، وأما إيمان أبي بكر فقد أراده الله شرعاً وأراده قدراً .

مسألة (٣) أدلتها :

قوله تعالى :﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾البقرة: ١٨٥.

وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ النساء: ٢٧.

وقوله:﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ المائدة: ٦.

مسألة (٤) منكريها :

أنكرها الجبرية وقالوا كل شيء موجود أراده الله كوناً فقد أراده شرعاً وأحبّه ومن ذلك الكفر والمعاصي. وأثبتتها القدرية وغلوا فيها[1].

المسألة الثانية: الفرق بين الإرادتين :

١- أن الإرادة الكونية قد يحبها الله ويرضاها، وقد لا يحبها ولا يرضاها مثل كفر أبي جهل، أما الإرادة الشرعية فيحبها الله ويرضاها، فالكونية مرادفة للمشيئة والشرعية مرادفة للمحبة والرضا.

٢- الإرادة الكونية لابد من وقوعها، فإذا أراد الله حصول شيء قدراً لابد أن يقع مثل تقدير المعاصي، أما الشرعية فلا يلزم وقوعها فقد تقع وقد لا تقع، كالإسلام من الكافر يريده الله ولا يقع، ولو كان لابد من وقوعها لكان الناس كلهم مسلمين .

٣- أن الإرادة الكونية متعلقة بربوبية الله وأفعاله وصفاته وخلقه ، والإرادة الشرعية متعلقة بألوهيته وعبادته وشرعه .

[1] انظر شفاء العليل ص ١١١ .

٤- الإرادة الكونية قد تكون مقصودة لذاتها وقد تكون مقصودة لغيرها مثل خلق إبليس وسائر الشرور أُريدت ليحصل بسببها محاب كثيرة كالجهاد والتوبة والاستغفار، فتنقسم الكونية إلى مراده لذاتها ومراده لغيرها ، أمّا الإرادة الشرعية فكلها مقصودة لذاتها فالله أراد الطاعة وأحبّها وشرعها ورضيها لذاتها[1] .

المسألة الثالثة: أنواع الإرادة من حيث وجودها وعدمها :

إما أن توجد الإرادتان وإما أن تنعدمان وإما أن توجد إحداهما :

١- اجتمعت الإرادتين في مثل إيمان أبي بكر، حيث اجتمعت فيه الإرادة الكونية والشرعية .

٢- وتنتفيان في كفر المؤمن، مثل عدم الإيمان من أبي بكر، فلم تتحقق الإرادتين، حيث لم توجد إرادة الله بكفره قدراً ولم يرده شرعاً .

٣- وتنفرد الكونية في مثل كفر الكافر ومعصيته، مثل كفر أبي جهل أراد الله كفره كوناً ولم يرده شرعاً .

٤- وتنفرد الشرعية في مثل إيمان الكافر وطاعته مثل الإيمان من أبي جهل أراده الله شرعاً ولم يرده كوناً .

المسألة الرابعة: أنواع الإرادة من حيث تعلقها بالمحبوب والمراد :

١- إرادة محبوبة لذاتها مراده لذاتها مثل الطاعات .

٢- إرادة محبوبة ومراده لغيرها مثل إرادة ومشيئة الشرور والمعاصي .

---

[1] انظر القضاء والقدر الأشقر ص ١٠٤ . والإيمان بالقدر ص ٨٩ .

مبحث

المصطلحات القدرية التابعة للإرادة في التقسيم

ينقسم القضاء وأمور أخرى إلى كوني وشرعي ومنها :

القضاء والحكم والكتابة والأمر والأذن والجعل والكلمات والبعث والإرسال والتحريم والكره والإيتاء والاستطاعة وغير ذلك .

١- القضاء :

الكوني مثل قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ﴾﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾الزمر: ٦٩.

والشرعي الديني كقوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾الإسراء: ٢٣ بمعنى أمر وشرع .

٢- **الحكم** : الكوني القدري كقوله: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ الأنبياء: ١١٢ .

والشرعي الديني: كقوله ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ الممتحنة: ١٠ .

٣- **الكتابة** : الكونية ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ المجادلة: ٢١.

والشرعية :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ البقرة: ١٨٣ .

٤- **الإذن** :الكوني القدري:﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة: ١٠٢.

الشرعي:﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ الشورى: ٢١ .

٥- **الأمر** : الأمر الشرعي: كقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ﴾ النحل: ٩٠.

والأمر الكوني:كقوله:﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾مريم: ٢١.

٦- **الجعل** : الكوني : قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ النحل: ٧٢.

الشرعي الديني : قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ ﴾ المائدة: ١٠٣.

٧- **الكلمات** : الكونية : ﴿ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ هود: ١١٩.

الشرعية :كقوله: ﴿ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ آل عمران: ٦٤.

٨- **البعث** : الكوني القدري : قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ ﴾ يس: ٥٢.

والشرعي :كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ النحل: ٣٦.

٩- **الإرسال** : الكوني : قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا ﴾ الفرقان: ٤٨ .

والشرعي :قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ الفتح: ٢٨.

١٠- **التحريم** : الكوني : قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ ﴾ القصص: ١٢ .

والتحريم الشرعي : قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗا ﴾ المائدة: ٩٦.

١١- **الكره** : الكوني :كقوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ ﴾ التوبة٤٦.

والكره الشرعي: قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴾ الإسراء: ٣٨.

١٢- **الإيتاء** : الكوني : قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ﴾ البقرة: ٢٤٧.

والإيتاء الشرعي : قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ الحشر: ٧ .

١٣- **الاستطاعة والقدرة** :وهذه ليست متعلقة بالرب وأفعاله وإنما متعلقة بالعبد .

فالكونية:كقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾النساء:٢٥.

والاستطاعة الشرعية : قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ﴾المجادلة: ٤.

مسألة (١): الفرق بين هذه الأمور القدرية والشرعية :

هو نفس الفرق بين الإرادتين الشرعية والقدرية وتقدم ذكر الفروق .

مسألة (٢): بعض الأمثلة والأدلة تشتمل النوعين الكوني والشرعي:

١- قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ ﴾ المائدة: ٩٧ فقد جعلها كوناً وشرعاً.

٢- قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا ﴾ التحريم: ١٢كلماته القدرية والشرعية .

٣- قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦حكمه الشرعي والكوني .

مسألة (٣): أمور مختلف فيها :

بعض النصوص اختلف العلماء فيها مثل : {أمرنا مترفيها} وقوله: { يؤتى الحكمة} هل الأمر والإيتاء من الكوني أو الشرعي والصحيح أنه كوني .

مسألة (٤): الأمور التي لا تنقسم إلى قدر وشرع :

بعض الأمور لا تكون إلا من قسم واحد، فالمحبة والرضا مثلاً لا تكون إلا شرعية ولا يوجد رضا غير شرعي، والقدر لا يكون إلا كوني فلا يوجد قدر شرعي ليس بكوني مثل القضاء ، وهذا من الفروق بين القضاء والقدر .

مسألة (٥): سبب ضلال الفرق في القدر :

من أسباب الضلال في القدر عند الفرق عدم ضبط هذه المسألة وعدم التفريق بين الإرادة الكونية القدرية الموافقة للمشيئة والإرادة الشرعية الدينية الموافقة للمحبة والرضا واعتقادهم أن المحبة والإرادة شيء واحد .

مسألة (٦): خلاف الفرق الضالة :

أولاً: القدرية:قالوا كل شيء أحبه الله وشرعه فقد أراده، والذي لم يحبه ولم يأمر به فهو لم يرده ولم يقدره، فالمعاصي والكفر بزعمهم ليست مقدرة ولم يخلقها الله ولم يردها كوناً لأنه لم يردها شرعاً .

ثانياً: الجبرية: قالوا كل شيء خلقه الله وشاءه فقد أراده كوناً وشرعاً وأحبه ورضيه، وعلى ذلك فالمعاصي عندهم مرادة كوناً وشرعاً ومرضية ومحبوبة إليه .

فخالفت القدرية في الإرادة الكونية القدرية وأنكروها ، وخالفت الجبرية في الإرادة الشرعية الدينية وأنكروها، وسنبسط هذه المسألة في مسألة علاقة الإرادة بالمحبة .

والحق ما ذهبت إليه أهل السنة[1] من هذا التفصيل والتفريق بين الإرادتين ، وبين ما يوافق المشيئة وما يوافق الرضا والمحبة ، فالمعاصي مقدّرة ومراده لله كوناً لأنها وقعت ولا يوجد شيء إلا وهو مخلوق مقدر ، ولكنّها مكروهه مبغوضة فلا يحبها الله ولم يرضها لعباده .

مسألة (٧): مظان الإرادة :

تبحث الإرادة بإسهاب في باب القضاء والقدر، وفي الصفات[2] وقد خالف المتكلمون المبتدعة في كلا الجانبين .

---

[1] الماتريدية وافقت أهل السنة انظر مذهبهم في كتاب تبصرة الأدلة . للنسفي ص ٦٩٠ .

[2] عند الأشاعرة الإرادة قديمة لا تتجدد وتحدث بناءً على مذهبهم في الصفات، ويقولون أن إرادة الله عند تعلقها بفعل العبد وكل ما هو حادث تنقسم إلى تعلقين: الأول تعلق الإرادة الصلوحي والثاني:الإرادة التنجيزية أو التعلق التنجيزي للإرادة ويزيد البعض إلزامي وإعلامي ومعنوي أنظر كلامهم في شرح الجوهرة.

الفصل الرابع عشر

الهدى والضلال والتوفيق والخذلان والطبع [١]

المسألة الأولى : علاقة الهدى والضلال بالقدر :

قال ابن القيم رحمه الله في الشفاء : "هذا الباب هو قلب أبواب القدر ومسائله فإن أفضل ما يقدر الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدى وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه الضلال وكل نعمة دون نعمة الهدى وكل مصيبة دون مصيبة الضلال .

وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلى آخرهم وكتبه المنزلة عليهم على أنه تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء وأنه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .

وأن الإهداء والإضلال بيده لا بيد العبيد وأن العبد هو الضال أو المهتدي فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره والاهتداء والضلال فعل العبد وكسبه" [٢].

المسألة الثانية : تعريف الهداية والضلال في اللغة :

أصل الهداية في اللغة بمعنى الدلالة بلطف والإرشاد، تقول هديته الطريق إذا دللته وأرشدته وعرّفته وبيّنت له، وكل الهدايات فيها البيان والدلالة .

فائدة : كيف الجمع بين التعريف وقوله تعالى: ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ؟

الجواب: هذا من باب التهكم والسخرية مثل قوله ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾الانشقاق: ٢٤.

---

[١] قد تلاحظ في هذا الفصل نوع من التكرار إلا أن المقصد توضيح المسألة بصور مختلفة وذلك لأهميتها ثم أن التكرار للمسألة لا يخلو من إضافات وفوائد والله الموفق .

[٢] شفاء العليل ص١٤٠ .

تعريف الضلال :

قال الراغب الأصفهاني في المفردات : الضلال العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية وكل عدول عن المنهج ضلال عمداً كان أو سهواً[1].

وقال الرازي : ضلل وضل الشيء ضاع وهلك وخفي ولم يعرف، وهو ضد الهداية والمعرفة يقال ضللت الدار إذا لم تعرف موضعه ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[2].

المسألة الثالثة : معاني الهداية والضلال في القرآن :

أولاً : ورد في القرآن لفظ الهداية على معاني منها :

التأييد والتوفيق والدلالة والدعوة والبيان .

تنبيه : ورد ذكر الهداية في القرآن قرابة ثلاثمائة وعشرة موضع ، وليس في معانيها الثواب ، كما تزعم القدرية وسيأتي مزيد بيان لذلك.

ثانيا : معاني الضلال :

١- العدول عن القصد .

٢- الضياع وأضل الشيء إذا أضاعه ﴿ ضَلُّواْ عَنَّا ﴾ غافر: ٧٤ .

٣- الإغواء: كقوله ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ ﴾ النساء: ١١٩.

٤- الصد: ﴿ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ النساء: ١١٣.

٥- الخسارة ﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ يس: ٢٤.

---

[1] مفردات القرآن للأصفهاني ص ٥١١-٨٣٤ .

[2] مختار الصحاح ص ١٦١ .

٦- الشقاء والعناء: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ الملك: ٩.

٧- الخطأ : ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي ﴾ طه: ٥٢ ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان: ٤٤.

٨- النسيان: ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا ﴾ البقرة: ٢٨٢.

٩- إبطال العمل: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ محمد: ١[1].

١٠ – الهلاك : ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا ﴾ السجدة: ١٠ .

المسألة الرابعة : مراتب الهداية :

إذا علمت أهمية هذه المسألة وأن موضوع الهداية يقوم عليها جانب كبير من القدر، وتبين كثرة ورودها في القرآن وورودها على معاني، فأعلم رحمك الله أن الهداية ليست على مرتبة واحدة وإنما على أربعة مراتب وهي [2]:

المرتبة الأولى : الهداية العامة هداية المعاش والتقدير :

وهي هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها والمعارف الضرورية وهذه أعم أنواع ومراتب الهداية.

فأعطى الله كل شيء صورته التي تصلح له والمختصة به وهي شاملة للحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره من الأكل والحركة والتناسل كسكن الطير في أعلى الشجر والوليد للرضاعة والجماد المسخر وكل لما خلق له ، وكل شيء هداه الله ودله لما يصلح له في دنياه ومعاشه .

---

[1] الانتصار . العمراني ١/ ٢٧٧ -٢٨٦ .

[2] انظر مراتب الهداية والمسائل اللاحقة المتعلقة بالهداية في كلام ابن القيم في شفاء العليل ١٦٣-١٩٨ ، ومدارج السالكين ١/ ٤٤٥ .

ودليلها:

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ طه: ٥٠.

وقوله تعالى في سورة الأعلى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ .

فذكر سبحانه أربعة أمور عامة : الخلق والتسوية والتقدير والهداية، وجعل التسوية من تمام الخلق والهداية من تمام التقدير .

المرتبة الثانية : هداية الدلالة والبيان والإرشاد :

وهي هداية البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده وآخرته، وهذه خاصة بالمكلفين وهي وظيفة الرسل والمصلحين، وهي لا تستلزم حصول التوفيق واتباع الحق وإن كانت شرطاً فيها أو سبب لها بيد أنها لا تستلزم حصول المشروط والمسبب إما لعدم كمال السبب أو لوجود مانع .

دليل هذه المرتبة:

قوله تعالى :﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ فصلت: ١٧.

وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾الشورى: ٥٢ .

وهذه المرتبة أخص من الهداية الأولى وأعم من المرتبة الثالثة التالية.

المرتبة الثالثة : هداية التوفيق :

وهي الهداية المستلزمة للاهتداء .

وعرفها ابن القيم بقوله : وهي هداية التوفيق والإلهام والإعانة وخلق المشيئة المستلزمة للفعل ، ومشيئة الله لعبده الهداية وخلقه دواعي الهدى .

وهذه المرتبة هي التي زلت فيها أقدام الفرق القدرية حيث أنكرتها القدريـة وضـلت فيها الجبرية وسنفردها بمبحث إن شاء الله تعالى.

وهذه المرتبة تستلزم وتقوم على أمرين وفعلين :

أحدهما: فعل الرب تعالى: وهو الهدى والإهداء .

الثاني: فعل العبد: وهو الاهتداء وهو أثر فعله سبحانه فالله الهادي والعبد المهتـدي .

قال تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾الكهف:١٧وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾محمد١٧.

ودليل هذه المرتبة :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾القصص: ٥٦.

وأمرنا الله أن نسأله الهداية كل يوم في الصلوات الخمس وذلـك يتـضمن الهدايـة إلى الصراط والهداية فيه بقوله تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ .

المرتبة الرابعة : الهداية إلى الجنة أو النار يوم القيمة :

ودليلها قوله تعالى : ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ الصافات: ٢٣ .

وقوله تعالى في الهداية للجنة للذين قتلوا في سبيل الله ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾محمد: ٥.

فائدة : ذكر ابن القيم في المدارج أن مراتب الهداية عشر وذلك بطريقة تفصيلية وهي عائدة للمراتب الأربع السابقة.

المسألة الخامسة : تلازم وترتب الهدايات بعضها على بعض :

هداية المعاش والتقدير ثم هداية الدلالة والبيان والإرشاد ثم هداية التوفيق والإلهام ثم هداية يوم القيامة للجنة فمن لم تحصل له الهداية الأولى لا تحصل له الثانية بل لا يصلح تكليفه كالمجنون ، ومن لم تحصل له الثانية لا تحصل له الثالثة ومن لم تحصل له الثالثة لا تحصل له الرابعة دون العكس فمن حصلت له الرابعة فقد حصلت له الهدايات الثلاث ومن حصلت له الثالثة فقد حصلت له الأولى والثانية وقد تحصل الأولى دون الثانية، والثانية دون الثالثة .

وكل هداية في الوجود في العرف واللغة والقرآن لا تخرج عن أحد هذه الهدايات الأربع فنسأل المولى أن يحقق لنا جميعها ويرزقنا أوفر الحض منها .

المسألة السادسة: أنواع الهداية من حيث الخاص بالله وما هو عام:

١ – الهداية العامة :

وهي التي يفعلها الله تعالى كما يفعلها المخلوق من نبي وغيره، وهي هداية الدلالة والإرشاد والبيان، ودليلها قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

٢ – هداية خاصة :

لا تكون إلا لله وحده ولا يشترك معه أحد فيها، وهي هداية التوفيق والإلهام والتأييد، ودليلها قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾

قوله تعالى: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾

وقوله: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾الزخرف٤٠.

المسألة السابعة : تعديات الهداية :

١ – تتعدى الهداية بنفسها:﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ ﴿ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ ﴾ .

٢ – تعدي الهداية بإلى :﴿ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ ﴿ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴾.

٣– تعدي الهداية باللام : ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ ﴾.

٤ – تعدي الهداية بالباء: ﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ ﴾المائدة:١٦ ﴿ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا ﴾الأنعام: ٩٧.

فائدة :

الأصل في الضلال أنه في الدين، وقد يسمى ما يتعلق بالدنيا ضلال مثل النسيان ﴿ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا ﴾ خلافاً للمعتزلة القدرية، الضلال عندهم في الدنيا، وليس هناك إضلالا من الله في الدين إلا التسمية .

المسألة الثامنة : الهداية والضلال لهما جانبان من الرب والعبد[1]:

أولاً : الهداية :

١ – الجانب الذي من الرب:

وهو الهدى وخلق الطاعة والتوفيق في قلب عبده .

٢ – الجانب الذي من العبد : وهو الاهتداء وهو أثر فعله سبحانه ويكون من العبد بتعرض أسباب الهداية. يدل له أمثال قوله:﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى ﴾مريم: ٧٦

﴿ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ ﴾ ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى ﴾.

﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا ﴾ الإسراء: ١٥

[1] انظر شيء من التفصيل لهذه المسألة المهمة في المبحث القادم ، هداية التوفيق .

ثانياً : الضلال :

١ – الجانب الذي من العبد :

وهو ضلال العبد وذلك بعدم الاهتداء ويكون بالإعراض عن أسباب الخير والهداية والتولي واتباع الهوى فهذا من العبد وهو سبب الإضلال وبداية الضلال .

٢– الجانب الذي من الرب :

وهو إضلال العبد بعد إعراضه وتوليه وكفره وجحوده وعدم اهتداءه، فاستحق الإضلال والإبعاد عن الله فيضل قلبه ويغطيه ويختم عليه ويضل بدنه عن الحق حتى يستحق النار والعياذ بالله .

يدل لذلك أدلة منها :

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ .

﴿ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾.

وقوله: ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .

المسألة التاسعة : موقف الفرق القدرية من الجانبين :

القدرية والمعتزلة:

أنكرت الجانب المتعلق بالله، وجعلوا كل هداية أو ضلال سببها الإنسان، وهو خالقها بنفسه، وادّعوا أن ذلك من تنزيه الله عن الظلم .

الجبرية والأشاعرة :

أنكرت الجانب المتعلق بالعبد، وجعلوا كل هداية من الله، وأما العبد فمخلوق فيه الهداية والضلال بدون سبب ولا حكمة ولا تعليل، وهو راجع لأصل قولهم بالجبر.

مبحث

هداية التوفيق والإلهام

هذه الهداية هداية التوفيق من أهم أبواب القدر، فمسألة الهداية وخصوصاً هداية التوفيق من أعظم المسائل التي وقع الخلاف فيها مع القدرية والجبرية، وهي من أهم مسائل القدر، وفقهها يساعد على فهم جوانب كثيرة من القدر، ولذلك خصصناها بمزيد من البسط دون بقية أنواع الهدايات .

المسألة الأولى : تعريف التوفيق وهدايته :

قال ابن القيم في الشفاء في تعريف هداية التوفيق:" الهداية المستلزمة للاهتداء وهي التوفيق والإلهام والإعانة وخلق المشيئة المستلزمة للفعل "[1] .

أما التوفيق فهو : أن لا يكللك الله إلى نفسك وهو أن لا يدع ولا يخلي الله تعالى العبد ونفسه ولا يكله إليها، بل يفعل بعبده ما يصلح به بأن يجعله قادراً على فعل ما يرضيه مريداً له محباً له مؤثراً له على غيره ، فيلطف به ويعينه ويدفع عنه ويكلأه .

والخذلان : ضد ذلك كله، فمن تركه الله ووكله إلى نفسه وخلى بينه وبين نفسه فقد هلك وخسر .

وتأمل دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم في طلب التوفيق والسلامة من الخذلان :" أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين " .

وقوله صلى الله عليه وسلم:" يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك".

---

[1] شفاء العليل ص ١٦٣ ص ١٩٨ . مدارج السالكين ١/ ٤٤٥ .

المسألة الثانية : الخذلان ضد التوفيق وتعريفه :

الخذلان ضد التوفيق، وأصل الخذلان الترك والتخلية .

وهو كما عرفه ابن القيم في المدارج: أن يخلي بينك وبين نفسك ولا يعينه.

إذاً فالخذلان عكس التوفيق فهو أن يترك الله عبده فلا يعينه ولا يلهمه وأن يكله إلى نفسه ويخلي بينه وبين هواه .

المسألة الثالثة: أدلة هداية التوفيق وضدها الخذلان "ضلال الخذلان":

قال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ النحل:٣٧.

وقوله : ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ الأعراف: ١٧٨.

وقوله : ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ الأعراف: ٤٣.

وقوله: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ غافر: ٣٣ .

وقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ القصص:٥٦.

وقوله: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ الأنعام: ١٢٥.

وقوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ السجدة: ١٣.

وقوله ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ البقرة: ٢٧٢ .

وقوله: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ فاطر: ٨ .

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ الجاثية: ٢٣.

قوله: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ آلعمران١٦٠.

وقوله: ﴿ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ الروم: ٢٩

المسألة الرابعة : علاقة التوفيق بالهداية :

التوفيق أحد أنواع الهداية، وهو هداية التوفيق والإلهام، ولا توجد إلا بعد وجود ما قبلها من الهدايات الهداية العامة المعاشية التقديرية والهداية الدلالية الإرشادية البيانية، وإذا لم توجد هداية الدلالة لم توجد هداية التوفيق ، وقد توجد هداية الدلالة ولا توجد هداية التوفيق ، مثل من كذب بالرسل هدوا ودلُّوا وأرشدوا ولكن لم يوفّقوا، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ فصلت: ١٧ فهداهم الله هداية الدلالة ولم يهدهم هداية التوفيق .

المسألة الخامسة: الجمع بين آية نفي الهداية عن الرسول وآية إثباتها له :

في قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ القصص:٥٦.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ الشورى: ٥٢ .

الأولى: الهداية المثبتة للرسول صلى الله عليه وسلم، هي هداية الدلالة والبيان والإرشاد .

الثانية: الهداية المنفية عن الرسول صلى الله عليه وسلم والمثبتة لله وحده، هي هداية التوفيق والإلهام .

المسألة السادسة : الفرق بين هداية الدلالة وهداية التوفيق :

١ – أن هداية التوفيق خاصة بالله عز وجل، وأما هداية الدلالة فهي ثابته لله ولغيره من صالحي خلقه .

٢- أن كل هداية توفيق متضمنة لهداية الدلالة دون العكس، فليس كل هداية دلالـة متضمنة للتوفيق فقد يوجد إرشاد ودلالة ولا يوجد توفيق .

٣- أن هداية الدلالة عامة لكل العباد فهي لكل النـاس مـسلمهم وكـافرهم حيـث هداهم الله هداية دلالة وإرشاد، وأما هداية التوفيق فخاصة بمن اهتدى وآمن وهـو المسلم والمؤمن.

٤- أن هداية الدلالة تتقدم هداية التوفيق وتسبقها .

٥- أن هداية التوفيق يشترط لحصولها فعل مـن العبـد وهـو الاهتـداء وهـو سـبب الهداية والتوفيق، وأما هداية الدلالة فلا يشترط لحصولها فعل من العبد لا إيـمان ولا كفر ولا اهتداء ولا إضلال وضلال .

المسألة السابعة : قيام هداية التوفيق على جانبي الهدى والاهتداء:

الجانب والأمر الأول : جانب الرب وهو الهدى والإهداء :

وهذا الجانب يكون قيامه من الرب سبحانه وتعالى وهـو مـن فعلـه وخـاص بـه، لا يستطيع أحد أن يتجاوزه أو يحصله، فمن هداه الله ووفقه لا يستطيع أحـد أن يـضله ومن يضله الله ويخذله فلا هادي له ولن يصل أحد إلى هدايته وتوفيقه، وهـذا فـضل من الله يؤتيه من يشاء وأمـر يقذفـه الله في قلـوب عبـاده وأوليـاءه المـؤمنين وطاعـة ومشيئة وخير وإقبال يخلقه الله في قلب من أحب من عبـاده لحكمـة وسـبب يعلمـه سبحانه، ولكون ذلك المحل يصلح لنزول فضل الله عليه، فهو مكـان وقلـب طيـب فاستقل بفضل الله واستحق عبادته دون غيره من المحلات والقلـوب التـي في بقيـة

العبادة، فالله لم ينزل فضله وتوفيقه عليهم لأنهم ليسوا أهل لهذا الفضل ولم يمنعهم شيء يستحقونه وهذا الجانب يسمى الهدى .

موقف الفرق من هذا الجانب :

هذا الجانب غلت في إثباته الجبرية والأشاعرة واعتمدت عليه دون الجانب الآخر الذي من العبد، بينما أنكرت القدرية والمعتزلة هذا الجانب، وادعت ظلماً وبغياً أن في إثباته ظلم لمن لم يوفق فسارعت بإنكاره بناء على أصولهم المعروفة الفاسدة في إخراج أي شيء يتعلق بالعبد من فعل ونحوه من خلق الله وتقديره وجانبه سبحانه وقد رد عليهم أهل السنة وأنكروا باطلهم .

الجانب والأمر الثاني جانب العبد " الاهتداء " :

وهذا الفعل قيامه من العبد ومن جانبه ولا يحصل هذا الأمر من كل الناس، وإنما من البعض وهم المهتدين المؤمنين، مع العلم أن هذا الجانب لا يتساوى فيه العباد المؤمنين بل حتى هم متفاوتون فيه، ولأجل هذا التفاوت بينهم حصل التفاوت الذي في الجانب الآخر وهو الجانب الذي من الله " الهدى " فمنهم من نال أوفر الحظ من هدى الله ومنهم أقل بحسب تسابقهم في جانبهم وفعلهم وهو الاهتداء والتعرض لأسباب الهداية .

وهذا الفعل من العبد هو في الحقيقة تعرضاً لأسباب الاهتداء ووقوف في مظان التوفيق وسعي في ذلك الخير ويسمى هذا الجانب بالاهتداء.

فائدة : وهذا الجانب سبب في حصول الهدى من الله ومستلزم للتوفيق وانشراح الصدر ولكن ليس هو كل شيء ، ولا يكفي هذا الجانب وحده ، ولا تتحقق الهداية

الحقيقية النافعة للعبد بمفرده ، فقد يوفق الله إنسانا ابتـداءً فيعمـل الخـير ويهتـدي فيـزداد توفيقه فيكون قد اهتدى وعمل بعد أن هداه الله، ووفقه فالتوفيق يكون قبل العمـل وبعده وإن كان العمل سبب، فإن كل شيء بأمر الله وإلهامه فالعمل وإرادة العبد هي بتوفيق الله ورحمته، ولذلك فالإنسان بطبعه ضعيف البنيـة والإرادة والقـوة والعقـل والعلم والصبر، وبالاضـطرار لابـد لـه مـن حـافظ معـين يقويـه ويعينـه وينـصره ويساعده، فإن تخلى عنه الإله المعين جل جلاله فالهلاك أقرب إليه من نفسه، ومن هنا كانت حاجة الإنسان لهداية الله وعونه وتوفيقه أعظم المهمات. وهذا التوفيق والعون للعبد ليس مستحقاً له وإنما ناله بتوفيق الله وبفضله وبرحمته لما رأى إقبال عبده إليـه، فتبارك الله رب العالمين الكريم أرحم الراحمين .

ذكر نحوه ابن القيم في طريق الهجرتين والمدارج والشفاء.

موقف الفرق القدرية من الجانب الذي من المخلوق:

هذا الجانب من التوفيق وهو جانب العبد والذي هو الاهتـداء والتعـرض لأسـباب الهداية والتوفيق وعدم الإعراض عنها:

غلت في إثباته القدرية المعتزلة، وأنكرت الجانب الأول تفريطاً وظلماً منها، وظنـاً أن ذلك ظلم فلم يثبتوا لله أي فضل وإحسان من هذه الجهة وتناسوا فضل الله وأننـا في الحقيقة لا يـسعنا إلا أن نقـول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ الأعراف: ٤٣، وزعموا جهلاً وخطأً وجحداً أن الهداية هنا التي هي هداية التوفيـق هي مجرد بيان ودلالة يشترك فيهـا أصـحاب النعمـة المـؤمنين أهـل الجنـة والكفـار

المعرضين المخذولين الضالين أو أنه الثواب وهذا تأويل لهم وهو في الحقيقـة تحريـف يرده بداهة الفهم وصحيح العقل والشرع.

وفي مقابل هذه الطائفة القدرية جاءت الجبرية من الجهمية والأشـاعرة فـردّت قـول القدرية ولكن دون اهتداء للحق، فأنكروا هذا الجانب مـن التوفيـق وهـو الاهتـداء القائم بالعبد الحاصل منه بتعرض منـه لأسـباب الهدايـة، فظلمـوا أنفـسهم بإنكـار الأسباب والقوى وإنكار فعل العبد وقدرته وأن يكون لـه تـأثير في فعلـه البتـة وأن الهداية مجرد خلق الطاعة في العبد دون سبب كما تقدم .

وتأمل حصول الجانبين في مثل:

وقوله تعالى: ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ ﴾ المائدة: ١٦ وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ وقوله: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ مريم: ٧٦.

وتأمل في إثبات فضل الله مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ الحجرات:٨ .

وغيرها من الآيات التي جمعت نصوصها الرد على الجبرية والقدريـة، فكانـت دلـيلا لأهل السنة على ما قررناه هنا في هذه الفائدة وفي مواضع أخرى .

المسألة الثامنة : أسباب التوفيق :

هناك أسباب تتعلق بالعبد الموفّق، وهـي الاهتـداء، ومـن صـور الاهتـداء وأسـبابه الأعمال الصالحة والدعاء وطلب الحق والتعرض لأسـباب الهدايـة والوقـوف عنـد محصِّلاتها وكون قلبه محلاً واعياً للهداية .

وقبل ذلك وبعده يأتي السبب الحقيقي وهو فضل الله يؤتيه من يشاء كما يشاء لحكمـه وسبب يعلمه فيوفق من يحب ويخذل من لا يحب، ومن كان قلبه ليس محـلاً للتوفيـق فيتركه الله ويخليه لنفسه وعقله وعمله فيضل .

المسألة التاسعة : الحكمة من عدم توفيق كل العباد وهداية الكفار:

هذه المسألة لأهميتها ولوجود من خالف فيها وللشبهة حولها نفردها بمبحث إن شاء الله.

المسألة العاشرة : تفاضل الموفقين في التوفيق :

العباد الموفقون المؤمنون الصالحون ليسوا على درجة واحدة من الفـضل فتوفيـق الله الأنبياء ليس كتوفيق الصديقين، وتوفيق الـصديقين لـيس كتوفيـق غـيرهم وتوفيـق السابق بالخيرات ليس كتوفيق الظالم لنفسه والعامي فهو موفق من جانب مخذول من جانب، وهذا مما ينبغي فهمه أن التوفيق يتفاضل أهله فيه.

المسألة الحادية عشر : تبعض التوفيق والخذلان :

هذه المسألة يفرق فيها بين المؤمن والكافر ، فالكافر ضال مخـذول مطبـوع عـلى قلبـه ومختوم ومقفول عليه، ولا يجتمع مع كفره وضلاله توفيق، فهـو غـير موفـق ولـيس ملهم ولم يعنه الله إلا إذا تاب وأسلم زال ضلاله وانفتح قفله وقلبـه، وهـذا في أمـور الدين وأما أمور الدنيا فقد يهدى هداية المعـاش الهدايـة العامـة ويرزقـه الله حكمـة وعقل وإحسان للناس مثل حاتم الطائي، وأما الدين فليس كذلك فهو مهدي هداية دلالة وإرشاد ولكن غير مهدي هداية التوفيق والإلهام .

وأما المسلم المؤمن والعاصي الموحد فهذا قد يجتمع في حقه صلاح وفساد خير وشر هداية وضلال توفيق وخذلان [١].

فالتوفيق والخذلان من الأمور التي تتبعض مثل الإيمان والفسوق ولابن القيم في الشفاء كلام جيد نورده بنصه قال رحمه الله : " ومما ينبغي أن يعلم أنه لا يمتنع مع الطبع والختم والقفل حصول الإيمان بأن يفك الذي ختم على قلبه وطبع عليه وضرب عليه القفل ذلك الختم والطابع والقفل ويهديه بعد ضلاله ويعلمه بعد جهله ويرشده بعد غيه ويفتح قفل قبله بمفاتيح توفيقه التي هي بيده حتى لو كتب على جبينه الشقاوة والكفر لم يمتنع أن يمحوها ويكتب عليه السعادة والإيمان "[٢].

قلت فمن طبع على قلبه لا يمنع أن يزيل الله هذا الطبع وذلك إذا أسلم الكافر أو تاب العاصي وحصول الطبع ثم زواله لا يجتمعان في وقتٍ واحد، بعكس الخذلان فقد يجتمع مع التوفيق، يقول ابن القيم في مدارج السالكين: " فالعبيد متقلِّبون بين توفيقه وخذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه ويسخطه ويغفل عنه بخذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخذلانه، فإن وفقه فبفضله ورحمته وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو المحمود وعلى هذا وهذا له أتم حمد وأكمله، ولم يمنع العبد

---

[١] يجتمع التوفيق والخذلان باعتبار الوقت أو العمل أو المحل أو غيره فقد يوفق في وقت ويخذل في وقت آخر وقد يوفق في عمل كالصيام ويخذل في عمل آخر كالجهاد ونحوه ، وقد يوفق زيد ويحرم ويخذل غيره .

[٢] شفاء العليل ص ١٨٠ . وستأتي مسألة المحو والإثبات حول ما ذكر ابن القيم .

شيئاً هو له، وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله "[١].

وقال: " والعبد يملك أسباب الهداية ولا يملك الهداية، ويملك أسباب فك وفتح قلبه من قفله وختمه والطبع وأسباب التوفيق وإزالة الخذلان، ولا يملك فك وفتح القفل ولا يملك التوفيق وزوال الخذلان، فهو يملك السبب دون المسبب كما أنه يملك أسباب الشفاء دون الشفاء "[٢].

وهذه القاعدة أن الإنسان يملك الأسباب دون المسببات فيملك سبب الهداية والتوفيق وسبب إزالة الخذلان والضلال دون أن يملك حقيقتها وهي ذات الهداية والتوفيق وزوال ما يعارضها دلت عليها الأدلة .

فدليل أن الإنسان يملك السبب قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾الشورى:٥٢ وقوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ فصلت: ١٧.

ودليل تفرد الله بحقيقة التوفيق وإعطائها لمن يحب قوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾القصص:٥٦ وقوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾الأنعام: ٣٥، وهذه قاعدة في غاية النفع،ودرجة بين الحق والضلال والإفراط والتفريط وقد قام القدر عليها،ولا يفهمها إلا سني موحد لله.

---

[١] مدارج السالكين ١/ ٤٤٦ .

[٢] شفاء العليل ص ١٨١ .

وقد ضل في هذه القاعدة الفريقان القدرية والجبرية :

فالقدرية: زعمت أن ذلك الهدى والتوفيق غير مقدور لله ولا يدخل تحت فعله وخلقه وقدره .

والجبرية: زعمت أن كل إنسان مجبور لا يملك السبب، وزعمت أن الله لا يغير ولا يمحو ولا يثبت فلا يزال الله محباً وراضياً عن عبده الكافر إذا علم أنه سيموت على الإيمان فيحبه في حال كفره وتكذيبه ويبغض المؤمن الذي سوف يضل ويختم على قلبه فلا يجتمع عندهم توفيق وخذلان[1] ولا يفتح الله قلباً طبع عليه ولا يكسر ختماً قدَّره الله، ولم يعلموا أن كل شيء بتقديره. الطبع بقدر الله، وزواله بتقديره وتوفيقه بالقدر وزواله وحصول الخذلان بالقدر فتأمل هذا جيداً وافهمه فما أقل من يفهمه وما أندر من يعتقده ويؤمن به .

وهذه المسألة مع المسائل السابقة مترابطة مع التي ستأتي يوضح بعضها بعضاً ويترتب بعضها على بعض .

المسألة الثانية عشر : عقوبات المعاصي :

كما أن الطاعة يجازي الله صاحبها تكرماً بالثواب والأجر وتفضلاً منه وقد يجازيه بتوفيقٍ في قلبه أو يهديه أي يثيبه على الهداية أو يزيد في هدايته وتوفيقه ويجزيه بإقبال

---

[1] ينازع هذه المسألة أصل فاسد عند الأشاعرة وهو متعلق بقولهم في صفات الله الفعلية الاختيارية المتعلقة بالمشيئة والتي يقولون فيها بعدم التغير والتجدد ومن هذا الباب ضلوا في باب القدر هنا كما ضلوا في باب الإيمان والأسماء والأحكام وهو ما يسمونه بالموافاة فأصل ضلالهم في المسألتين مذهبهم الباطل في الصفات الفعلية الاختيارية .

على أعمال أخرى، وهذا كله راجع للتوفيق، وهذا التوفيق قد يكون مقارن للعمل والطاعة أو بعدها أو قبلها مع وجود توفيق سابق قبل العمل .

فكذلك المعصية يعاقب الله عليها بالإثم أو بذنب آخر أو بالخذلان والضلال حتى تزيد عقوبة صاحبها بالران والطبع ونحوه .

المسألة الثالثة عشر: مجالات الهداية في قوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾:

الهداية لها مجالات وطرق كثيره ولذلك الإنسان في حاجة أن يطلب الهداية في كل صلاة يصليها لعِظمها وأهميتها، ولهذا وردت في أعظم سورة في فاتحة الكتاب وتقرأ كل يوم .

والهداية لا تتم إلا بالهداية إلى الصراط والهداية فيه ، والناس ليسوا على درجة واحدة من الهداية بل العبد ليس في كل أموره على درجة واحدة من الهداية، فإن العبد قد يهتدي إلى طريق تصده وتزيله عن غيرها ولا يهتدي إلى تفاصيل سيره فيها وأوقات السير في غيرها وزاد المسير والحذر من آفات الطريق .

فللهداية مجالات منها :

١- قد يكون العبد في بعض الأمور على غير الهداية فيحتاج التوبة منها .

٢- وأمور هدي إلى أصلها دون تفاصيلها أو وجوه دون وجوه فيحتاج إلى تمام الهداية ليزداد هداية .

٣- وأمور هدي إليها في الماضي ويحتاج إلى الهداية فيها أيضاً في المستقبل فيحتاج الثبات على الهدي .

٤- وأمور لم يفعلها محتاج إلى الهداية فيها أصلا.

٥- وأمور يجهلها يحتاج معرفة الهداية فيها .

وغير ذلك من مجالات الهداية، لأجل ذلك احتاج الإنسان سؤال الهداية والثبات عليها ومزيد منها وقد تكلم في هذا الباب شيخ الإسلام في بعض كتبه ورسائله كشرح خطبه الحاجة والفاتحة ونقل شيء من كلامه ابن القيم رحمه الله في الشفاء[1] .

المسألة الرابعة عشر : علاقة الاستطاعة بالهداية والتوفيق :

للتوفيق علاقة بجانب من جوانب أقسام الاستطاعة وهي القدرية، وسنفردها ببحث الاستطاعة بفصل مستقل لأهميتها والخلاصة أن في الاستطاعة جانبان وقسمان .

الأول : الاستطاعة الشرعية:

وهي بمعنى الصحة وسلامة الآلات وقدرة البدن ودليلها قوله: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ آل عمران: ٩٧.

الثاني : الاستطاعة القدرية :

وهي من نوع الباطن وهي من جنس الإعانة والإلهام والتوفيق الذي هو من الله وهي المصححة للفعل ومن أدلتها قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴾هود: ٢٠ سماع استجابة وتوفيق لا سماع الآلة والأذن .

والتي تهمنا منها هنا هي الثانية والتي هي الاستطاعة القدرية التي من جنس هداية التوفيق والإعانة والإلهام ، وهذه الاستطاعة أنكرتها القدرية كما أنكرت جنسها من

---

[1] شفاء العليل ص ١٦٥ .

الهدايات التوفيقية والإلهامية لأصلهم الفاسد في القدر، كما أنكروا الإرادة الكونية لأن أفعال العباد بزعمهم غير مقدّرة ولا مخلوقة وإلا لكان ظلم بزعمهم .

المسألة الخامسة عشر : أقوال الفرق القدرية في هداية التوفيق :

أقوال القدرية والجبرية في موضوع الهداية عموماً والتوفيق خصوصاً سنفرد له مبحث مستقل ، وسنذكر هنا خلاصة مذهبهم.

أولاً : مذهب القدرية والمعتزلة :

تنكر وجود هداية التوفيق والإلهام ، وترجعها إلى عموم هداية البيان والإرشاد، فكل هداية عندهم لا تخرج عن هداية الدلالة والإرشاد والبيان، فكون الله وفق فلان أي دله وأرشده، وعندهم الناس في هداية الله سواء لا تفاضل بينهم فلم يفضِّل مؤمناً على كافر لأن هذا يقتضيه العدل ويزعمون أن تفضيل المؤمن بتوفيق أو هداية على الكافر ظلمٌ للكافر، ويفسرون الآيات التي أطلقت الهداية على العباد بأن معناها التسمية أو الثواب فيقولون في مثل قوله ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ أي ليس عليك تسميتهم، أو أن معناها الثواب .

إذاً فالتوفيق عندهم أمر مشترك بين المؤمن والكافر لأنهم فسروه بالبيان العام والهدى العام والإقبال والتمكن من الطاعة وتهيئة أسبابها، وهذا حاصل لكل كافر بلغته الحجة وتمكن من الإيمان، وألزمهم هذا الأصل لوازم قامت عليهم بها سوق الشناعة بين العقلاء[1].

---

[1] شفاء العليل ص ١٦٣ ص ١٩٨ .

ثانياً : مذهب الجبرية والأشاعرة :

عندهم التوفيق خلق الطاعة في العبد، والخذلان خلق المعصية، والهداية خلق الاهتداء .

وردوا الأمر إلى محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة ولا أي تأثير أو قوة وفعل للعبد، وهذا على أصلهم الفاسد في القول بالجبر والكسب، ونفي تأثير أفعال العباد على الحقيقة وإنكار الأسباب والحِكَم والغايات والمقاصد .

المسألة السادسة عشر : أمور عاقب الله بها الكفار والعصاة من جنس الضلال:

الضلال ، الخذلان ، الختم ، الطبع ، الأكنة ، الغطاء ، الغلاف ، الحجاب ، الوقر ، الغشاوة ، الران ، الغل ، السد ، القفل ، الصمم ، البكم ، العمى ، الصد ، الصرف ، الشدّ على القلب ، الإغفال ، المرض ، التزيين ، عدم إرادة هداهم وتطهيرهم ، تقليب الأفئدة ، الحول بين المرء وقلبه ، إزاغة القلوب ، الخذلان ، الإركاس ، التثبيط ، إماتة القلوب ، إمساك النور عنها ، جعل القلب قاسياً ، جعل الصدر ضيقاً حرجاً [1]. ولأهمية هذه المسائل سنفردها بمبحث مستقل .

المسألة السابعة عشر : الإضلال وعدم توفيق الكافر ليس ظلماً له :

الإضلال والخذلان وعدم التوفيق للكافر ليس ظلماً له كما توهمته القدرية، بل منعهم الرب فضله ولم يمنعهم شيء يستحقونه، فقد أعطاهم القوة والعقل ودلهم وبين لهم الحق وأرسل لهم الرسول وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته وجاء الرسول

---

[1] ثلاث وثلاثون عقوبة قلبية من جنس الضلال على الكافر والعاصي والله المستعان .

بالآيات والمعجزات وكل ما من شأنه أن يؤمنوا ويهتدوا لا أن يكذبوا ويعرضوا، ولم يعنهم ويلهمهم ويخلق الهداية في قلوبهم لأن الله أعلم بمواقع فضله ومحل كرمه ورحمته فيعطيه من يحب فله الحكمة البالغة ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

مبحث

في الحائل بين الكافر والعاصي وبين الأيمان وأنه مجعول للرب

١ - الختم والطبع :

قال الأزهري: أصله التغطية وكذا الطبع التغطية على الإيمان والقلب .

قال تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ البقرة: ٧ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ النحل: ١٠٨ .

٢ - الأكنة :

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ الإسراء: ٤٦أصله من الستر والتغطية .

٣- الغطاء :

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ الكهف: ١٠١ أعينهم وأعين قلوبهم. وغطاء القلب هو الأكنة، وغطاء الأذن هو الوقر، وغطاء العين هو الحجاب والغشاوة .

٤ - الغلاف :

قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ النساء: ١٥٥فكل شيء مغطى فهو أغلف والتغليف التغطية، وقالت طائفة: قلوبنا أوعية وأغلفة للحكمة فلم لا تفهم القرآن والذكر إن كن فيه حكمة والقول الأصح أن المعنى قلوبنا لا تفقه ولا تفهم .

٥- الحجاب :

قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ فصلت: ٥ وهو الستر وما يمنع الرؤية وفهم الحق.

٦- **الران :**

قال تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ المطففين: ١٤ غلب على قلوبهم وغطاها وهو الذنب قاله مجاهد .

٧- **الغل :**

قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ﴾ يس: ٨ حبسوا ومنعوا عن الهدى والإيمان .

٨- **القفل :**

قال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴾ ضرب عليها أقفال وطبع عليها .

٩- **الصم والوقر :**

قال تعالى: ﴿ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآ ﴾ الأعراف: ١٧٩ ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ البقرة: ١٨ ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى ﴾ فصلت: ٤٤ فنفى عنهم سمع الاستجابة والفهم وهو صمم يحول بينهم وبين الاستماع للقرآن الكريم والاستجابة له وفهمه .

١٠- **البكم :**

قال تعالى: ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ والبكم بكم للقلب واللسان، كما أن النطق نطق قلب واللسان، فإذا أراد الله هداية عبد فتح قلبه وسمعه وبصره، وإذا أراد إضلاله أصمه وأعماه وأبكمه .

١١- **الغشاوة :**

قال تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ البقرة: ٧ غطاء العين ويأتي غطاء العين بعد غطاء القلب .

١٢- الصد :

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ غافر: ٣٧ صد نفسه وأعرض وصد غيره وهما قراءتان صحيحتان بالبناء للمعلوم والبناء للمجهول .

١٣- الشد على القلب :

قال: ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ ﴾ الصد والمنع وعدم اللين .

١٤- الصرف :

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ التوبة: ١٢٧ صرف ومنع قلوبهم من تدبر القرآن والانقياد له والإذعان، وصلاحية المحل بشيئين حسن فهم وحسن قصد وقلوبهم لا تفقه وقصودهم سيئة .

١٥- الإغفال :

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ الكهف: ٢٨ الغفل الشيء الفارغ فبقي على العدم الأصلي فامتنع عن الذكر .

١٦- المرض :

قال: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ البقرة: ١٠ وهو خروجه عن صحته واعتداله .

١٧- تقليب الأفئدة :

قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الأنعام: ١١٠ قلب قلوبهم عن وجهها فرجعت للكفر وحال بينهم وبين الإيمان وفي الآية قولان .

١٨- **إزاغة القلب :**

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ الصف: ٥ والزيغ الميل فمالت قلوبهم عن الهدى إلى الضلال .

١٩- **الخذلان :**

قال تعالى: ﴿ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ آل عمران: ١٦٠وهو الترك والتخلية فيترك الله العبد ويخليه لنفسه ويكله إليها .

٢٠- **الإركاس :**

قال تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴾ أي المنافقين والإركاس الرد إلى الكفر .

٢١- **التثبيط :**

قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ ﴾ التوبة: ٤٦ والتثبيط رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله وتكسيله وهذا عقاب لهم لما كرهوا الخروج للجهاد ، وارتابت قلوبهم ولم تثق بما عند الله كره الله خروجهم فثبطهم .

٢٢- **التزيين :**

قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ ﴾ فاطر: ٨ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ النمل: ٤

فأضاف التزيين إلى نفسه سبحانه وأضافه إلى سببه تارة أخرى ابتلاء واختباراً.

أقسام التزيين :

كما أن التزيين المضاف إلى الله تعالى على نوعين :

تزيين خير : كما في قولـه : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ ﴾ الحجرات: ٧

وتزيين شر : كما في قولـه: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴾ محمد: ١٤ عقوبة لهم .

ويضاف التزيين إلى الـشيطان كـما في قولـه : ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾ العنكبوت: ٣٨.

ويكون معنى تزيين الله خلق دواعي الخير في المؤمن وخلق دواعي الشر وإيجادها في الكافر وجبلهم على ذلك، ويكون معنى تزيين الشيطان بالوسوسة في الصدر والحـض والإغـراء بالفعل وكل ذلك بمشيئة الله .

وأنكرت المعتزلة القدرية تزيين الله ، وأنكرت الأشاعرة الجبرية تـزيين الـشيطان ، وأثبـت القسمين أهل السنة .

٢٣- عدم مشيئته سبحانه وإرادته أن يهديهم ويطهرهم :

قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا ﴾ السجدة: ١٣.

فإن قيل هل يقدر الإنسان على فعل ما لم يـشاءه الله؟ قيـل القـدرة نوعـان، قـدرة شرعيـة بسلامة البدن فهذه موجوده والعبد قادر بها وقدرة كونية مقارنـة للفعـل موجـودة فلـيس مقدور للعبد وهذه مسألة الاستطاعة وفيها كلام وتفصيل وسنفردها بفصل مستقل .

٢٤- إماتة القلب :

وقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴾ النمل: ٨٠ فوصـف الكـافر بأنه ميت لموت قلبه الذي هو أساس الحياة، والقلب الحي هو الذي يؤمن ويخشى ويخشع .

٢٥- جعل القلب قاسياً :

كقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ المائدة: ١٣الشدة والصلابة ضد اللين والإخبات .

٢٦- تضييق الصدر وجعله حرجاً :

قال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ الأنعام: ١٢٥.

هذه أهم ما يحول بين الإنسان وبين الهدى فاحفظها واحذرها واحذر أسبابها .

وهناك أسباب تشرح الصدر وأسباب تضيقه، والتي تضيقه هي من أسباب الضلال وهي راجعة إليه .

وأعلم رحمك الله أن هذه الآيات من أعظم آيات القدر التي ضلت في فهمها القدرية وكذا الجبرية وحرَّفت معناها عن اللغة وفهم السلف وأهل التفسير منهم، ومن أراد الوقوف على ذلك فلينظر في كتب التفسير التي لهم وقد تفرد بالرد عليهم أئمة من أهل السنة والجماعة[1]منهم ابن القصّاب الكرجي الشافعي في تفسيره والعمراني اليماني في الانتصار وابن القيم في الشفاء وغيرهم.

ثم أعلم أن من أراد مزيد من العلم والفائدة فليرجع لتفسيرات السلف كابن جرير والبغوي وابن كثير وغيرهم حتى ينفتح له فيها باباً ربما كان مغلقاً وليرجع إلى كتب ابن القيم كمدارج السالكين وطريق الهجرتين ومفتاح دار السعادة ، وشفاء العليل وغيرها فيعلم كثيراً من الفوائد .

---

[1]للاستزادة في أراء القدرية والجبرية والرد عليهم في هذه الألفاظ انظر الانتصار للعمراني (٢/ ٣٦١) وشفاء العليل ص ١٧٢ .

المسألة الأولى : المذاهب الضالة فيها بالأمور السابقة الختم والطبع وتوابعها[1]:

مذهب الجبرية والأشاعرة :

زعمت أن الله أكرهها خلقه وقهرهم وأجبرهم عليها، من غير فعل منهم ولا إرادة ولا اختيار ولا كسب ألبتة، بل حال بين قلوبهم وبين الهدى ابتداءً من غير ذنب ولا سبب من العبد يقتضي ذلك، بل أمره وحال مع أمره بينه وبين الهدى فلم ييسره له سبيلاً ولا أعطاه عليه قدرة ولا مكّنه من الهدى والفعل، وقال بعضهم : بل أحب لهم الضلال والكفر والمعاصي ورضيها منهم .

المذهب الثاني : قول القدريّة المعتزلة :

حيث حرفوها فكل لفظ من الألفاظ السابقة ادّعوا التأويل فيه بتحريف مبطل لمعانيها وما أريد منها، وقالوا فيها بما يتماشى مع مذهبهم وأصلهم في القدر وأفعال العباد والظلم، فقال بعضهم: الكافر هو الذي طبع على قلبه، وبعضهم قال طبع الله على قلبه أي وضع علامة على قلبه، ومما يرد عليهم في هذا التحريف أن الهداية بقلب المؤمن لاتسمى طبع مع أنها صارت علامة مثل الطبع، وقال بعضهم طبع أي شهد .

المسألة الثانية : جهات الأمور السابقة وآلاتها :

١- ما يرجع إلى القلب كالختم والطبع والقفل والأكنّة والإغفال والمرض ونحوها .

٢- ما يرجع إلى رسوله الموصل إليه الهدى كالصمم والوقر في السمع والأذن .

٣- ما يرجع لطليعته ورائده كالعمى والغشاوة في العين والبصر .

٤- ما يرجع إلى ترجمانه ورسوله المبلّغ عنه كالبكم النطقي وهو نتيجة البكم القلبي .

---

[1] شفاء العليل ص ١٧٢ ، الانتصار (٢/ ٣٦١) .

المسألة الثالثة : هذه الأمور على الحقيقة :

قال ابن القيم رحمه الله: "ولا تصغ إلى من قال أنها مجـازات واسـتعارات، فإنـه قـال بحسب مبلغه من العلم والفهم وكان من قال بهذا وهم الجبرية والقدرية القفل عنده أن يكون من حديد والمرض بحمى أو نحوه ، وهذه الفرق من أغلظ النـاس حجابـاً وأضلهم" .

المسألة الرابعة :

بعض هذه الأمور خاصة بالكافر . وبعضها يشترك فيهـا كـل عـاصي كـافر كـان أو مسلم .

المسألة الخامسة :

لا يمتنع مع الطبع والختم زوالها وحلول الإيمان وتقدم الكلام عن ذلك.

مبحث جامع في أقوال الفرق الضالة

في باب الهداية والضلال والتوفيق والخذلان والطبع وملحقاته

قبل الخوض في مذهب المخالفين والفرقتين القـدريتين نبـين أن كـل فرقـة غلـت في جانب من جوانب الهداية، ولكي تدرك سبب الخلاف لابد أن تعلم أن الهدايـة عـلى قسمين، وهي التي عليها مدار الكلام والخلاف:

الأولى : هداية البيان والإرشاد والدلالة .

الثانية : هداية التوفيق والسداد والإلهام والتأييد والإعانة .

غلت القدرية في الأولى وأنكرت الثانية والجبرية على الضد منها، وأنكرت كل فرقـة هداية الفرقة الأخرى وفسرت الهداية التي تمسكت بها على غيرالحق.

أولاً : مذهب القدرية المعتزلة والزيدية :

١ – أقوالهم في تفسير الهداية :

أ– جاءت **الهداية** في كتب المعتزلة والزيدية القدرية على تفسيرات هي:

١ – فسروا الهداية بالدلالة والدعوة والبيان .

٢– كما فسروها في مواضع بالإثابة والثواب .

٣– فسروها بالعلامة هدى الله فلان أي وضع فيه علامة يعرف بها.

٤– وتجيء عندهم بمعنى زيادة التوفيق .

٥– وفسروها بالاسم والإخبار والشهادة فهدى الله فلان أي سـماه مهتـديا أو أخـبر أنه مهتدياً أو شهد.

٦– وفسروها بأنه وجده مهتدياً هدى الله فلان إذا وجده مهتدياً .

ب- وفسروا **التوفيق** : بالثواب أو التسمية .

ج- وفسروا **الضلال** :

بالتسمية أو الإخبار أو العلامة مثل الهداية، وفسروه بالإهلاك والعذاب وإبطال الأعمال .

د- وفسروا **الخذلان** : بالتسمية أو العقوبة .

وسيأتي الجامع لهذه الأقوال ومرجعها .

٢- أنواع الهداية والضلال عندهم :

قال جعفر ابن أبي يحيى صاحب كتاب خلاصة الفوائد[١]:

" الهدى ثلاث أقسام ومعاني :

أحدها : بمعنى الدلالة : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

ثانيها :الزيادة في الهدى بالتوفيق والسداد:﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ .

ثالثها : بمعنى ثواب الآخرة :ومن أدلتها : قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ .

وينقسم الضلال إلى معاني نذكر منها :

١- الهلاك ٢- العقاب في الآخرة ٣- إبطال العمل

٤- الإغواء والاستدعاء من الكافر أو الشيطان لا من الله" [٢].

---

[١] هذا كتاب مستقل في القدر على مذهب القدرية وكلامه ص ١٣٧-١٤٥ .

[٢] تقدم مذهب القدرية في التزيين وأنهم ينكرون الذي من جهة الله ويجعلونه كله من العبد ومن الشيطان .

وأنظر مذهبهم هذا في الكشاف للزمخشري حول الآيات التي فيها التزيين .

ولا يجوز أن يحمل الإغواء والإضلال المضاف إلى الله بالإغواء عن الآيات والاستدعاء للكفر بل هذا من الكافر ويستدلون بقوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ ".

وبمثل ذلك قال أحمد الشرفي المعتزلي في كتابه شرح الأساس[1].

٣- هل يشترط في الهداية والدلالة أن توصل للمطلوب عند المعتزلة:

ليس من شروط الهداية أن توصل للمطلوب عند أهل السنة، وأما المعتزلة فنقل السفاريني في لوامع الأنوار أن المشهور من مذهب المعتزلة في الهداية أنها توصل للمطلوب .

ولم أجد لقولهم تخريجاً في كتبهم بل الأكثر على أن الكافر هداه الله وليس شرطاً للهداية حتى تسمى هداية أن توصل للمطلوب، وقد يكون هذا عند البعض منهم .

٤- الجامع لأقوال القدرية ومرجع الهداية عندهم :

بعد أن ذكرنا تفسيرات الهداية عندهم وأنواعها ننبه أن أقوالهم في الهداية لا تخرج عن ثلاثة أقوال في تعريف الهداية وتفسيرها :

الأول : التسمية والعلامة والإخبار وما في نحوه .

الثاني : المكافئة على اهتداءه إما الثواب أو الزيادة في التوفيق .

الثالث : دلالته والبيان له وإرشاده .

وكل آية ورد فيها لفظ الهداية والهدى فإنهم يفسروها بأحد هذه التفاسير .

---

[1] شرح الأساس ٢/ ١١٠ .

فمثلا هدى الله المؤمنين ولم يهد الكافرين فالمعنى هدى الله المؤمن بأن سماه مؤمنا أو أخبر أنه مؤمن أو وضع فيه علامة تميّزه وتعرفه الملائكة بها، أو هدى الله زيداً أي وجده مهتدياً هذا المعنى الأول .

ويفسرونها أيضاً بالمكافئة ومعناها أن مكافئة المؤمن على أعماله بالثواب أو الزيادة في الثواب فهدى الله المؤمن عندهم أي زاد في توفيقه أو أثابه .

ويفسرونها أيضاً بالدلالة وهذا التفسير ليس خاص بالمؤمن بل ويدخل فيه الكافر فالله دلّ وبين للمؤمن والكافر .

من خلال ما تقدم فأي الهدايتين تنكرها القدرية ؟

الجواب : تنكر هداية التوفيق والإلهام وتثبت هداية الدلالة والإرشاد .

وأما تفسيرهم هداية المؤمن بزيادة توفيقه لا يقولون توفيق مجرد بل زيادة توفيق لأن أصل التوفيق في فعل العبد . وعليه فكل هداية توفيق مثل قوله:﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ يفسرونها إنك لا تسمى من أحببت أولا تعلم علامة في مَنْ أحببت أو لا تثيب من أحببت.

٥- سبب قول القدرية هذا وإنكار هداية التوفيق وتأويلها :

لأن تخيلوا أن هداية التوفيق والتي هي إعانة من الله وإلهام ومحض فضل منه سبحانه يختص بها المؤمن دون الكافر، فيها بزعمهم ظلم للكافر إذ كيف لا يعينه فيدخله النار ويعين آخر فيدخله الجنة والله منّزه عن الظلم.

والجواب: تقدم أن ذلك ليس ظلماً لأنه لم يمنع الكافر شيئاً من حقه ولكن شيئاً زائداً من فضل الله يعطيه من يشاء.

وبهذا السبب الباطل والشبهة الداحضة أنكرت القدرية هداية التوفيق وحملتها على أحد تأويلين : فمعنى توفيق الله للمؤمن :

١- إما بتسميته موفقاً مؤمناً .

٢- أو أعطاه الثواب وزاد في هدايته وتوفيقه .

وليس لله عناية وإلهام وإعانة خاصة بالمؤمن، بل إعانته سواء لكل إنسان، بار أو فاجر هكذا زعموا .

إذاً قول القدرية في الهداية راجع لأصلهم الفاسد في القدر أن الناس في قدر الله وهدايته سواء ولذلك قالوا العباد يخلقون أفعالهم وليس لله فيها تأثير ولا خلق .

٦- تفسير بعض القدرية الهداية والتوفيق باللطف :

إلا أنه عندهم كله من العبد لا من الله، فالله لا يتدخل في هداية العبد وتوفيقه وإيمانه، فبين وأرشد ودل ووضح ووفق وأعان الجميع فالخلق في حضه سواء .

٧- ما وافقت القدرية فيه أهل السنة وما خالفوهم فيه من تفسيراتهم:

١- وافقت القدرية الصواب في بعض التفسيرات : مثل تفسير الهداية بالدلالة والإرشاد في بعض الآيات وكذلك الضلال بالإهلاك ونحوه.

٢- يخالفون في أمور كثيرة خلاصتها إنكار التوفيق والخذلان من الله ويزعمون أن الله يملك التسمية بموفق أو مخذول مهتدي أو ضال وأما الإعانة وإدخال من يشاء في الدين فهذا ينكرونه وينكرون تفاضل الناس في الهداية والتوفيق .

٨- الخلاصة : في مذهب القدرية :

١- أن كل الناس في الهداية والتوفيق سواء المؤمن والكافر فكلهم دلّه الله وأعانه .

٢- أن معنى الآيات التي فيها اختصاص المؤمن بالهداية دون الكافر محمولة على أحد تفسيرين :

الأول : معنى هداهم أي سماهم وحكم عليهم وأخبر بأنهم مؤمنون أو أوجدَهم مؤمنين أو علّمهم جعل فيهم علامة .

الثاني : أثابهم وأدخلهم الجنة .

٩- الرد عليهم :

أولاً : أن الهداية في كتاب الله على قسمين :

الأولى: هداية الدلالة والبيان والإرشاد :

ومن أدلتها : قوله تعالى:﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾الشورى:٥٢ .

الثانية: هداية التوفيق والإلهام الإعانة والتسديد: ومن أدلتها :

قوله:﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾القصص:٥٦.

والأولى وافقت فيه القدرية والثانية أنكروها وردّوها وأولوها عن حقيقتها .

ثانياً : أنه لم يرد تفسير الهداية بالثواب مطلقاً لا في اللغة ولا في الشرع .

واستدلالهم بقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾محمد: ٥ .

لا يصلح لهم دليل لوجوه :

١- أن الآية قُرأت قاتلوا ولا يمكن التمسك بإحدى القراءتين ورد الأخرى .

٢- أن معنى سيهديهم أي يهديهم في القبر بالثبات عند الفتنة كما في قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ ابراهيم: ٢٧ .

٣- أن يكون معنى الآية الذين طلبوا الشهادة سيثبتهم الله ويوفقهم إلى ما يحبه ويرضاه .

٤ – أن هذه الهداية هي المرتبة الرابعة من مراتب الهداية وهي الهداية إلى الجنة .

ثالثاً : أن تفسير الهداية بالتسمية والعلامة وما قالوه في معنى ذلك لا يعرف في اللغة ولا يدل عليه الشرع فالعلامة السمة وليست الهداية وقد تقدم الرد على هذا في مبحث الختم والطبع .

ثم أيضاً لا يصلح أن يقال : أنك يا محمد لا تسمى وتعلم من تشاء ولكن الله يفعل ذلك بدليل أن الرسول والمؤمنون يسمون الناس مؤمنين وكفار .

وماذا يقولون عن قوله ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى ﴾ الذين سميناهم زدناهم تسمية أو علامة وما الفائدة من التسمية والعلامة من دون أثر وتوفيق .

رابعاً : أن تفسيرهم التوفيق والهداية بزيادة في التوفيق فيه رد عليهم :

وذلك أن القول في الزيادة كالقول في الأصل فزيادة التوفيق إن كانت خاصة بالمؤمن من الله فهذا مزيد فضل وغاية توفيق وإلهام من الله وقد حرم هذا الفضل الكافر وهذا ظلم بزعمهم، وإن قالوا الزيادة في التوفيق من العبد فما معنى قوله:﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ فهداية الله هنا من محض فضله لمن أحب واستحق ذلك لتعرضه لأسباب هدايته وتوفيقه .

وبهذا الأوجه وغيرها يتبين بطلان قول القدرية المنكرين لهداية التوفيق التي من محض فضل الله وإعانته وعنايته وتسديده .

ثانياً : مذهب الجبرية والأشاعرة :

١ – مذهب الجبرية في القدر:

هو أن الله خالق لكل شيء، وأن العبد ليس له اختيار ولا تصرف ولا إرادة في فعله، وأنه مجبور بخلق الله فيه كل شيء، ومن ذلك الذي خلقه الله فيه الهدى أو الضلال والتوفيق أو الخذلان وقد تقدم.

٢ – مذهب الجبرية في الهدايتين :

أولاً : هداية التوفيق والخذلان:

ردوا كل الهدايات إليها، وفسروها بالجبر والخلق، فالهداية خلق الهدى، والتوفيق خلق الهدى والطاعة في العبد .

والضلال خلق الضلال، والخذلان خلق الضلال والمعصية في العبد، وليس للعبد في ذلك تأثير أو اختيار أو اهتداء أو أي سبب لحصول التوفيق أو الخذلان .

ثانياً : هداية الدلالة والإرشاد والبيان :

وهذه الهداية كلام الجبرية فيه مضطرب غير واضح وهو محل اختلاف بينهم فيها :

١ – فمنهم من أنكر هذه الهداية وأرجعها للتوفيق .

٢ – ومنهم من خصها بالمؤمنين دون الكفار وقال هداية الله فقط للمؤمن فلم يدل الله الكافر ولم يرشده ولم يبين له .

٣ – ومنهم من فرق بين الإرشاد والدلالة كما ذكر الكلْبي في تفسيره فالله دل الكافر وبين له ولم يرشده فيسمونها هداية الدلالة والبيان بدون الإرشاد .

٤- ومنهم من يثبت هذه الهداية للمؤمن والكافر ولا يخالف فيها ويوافق أهل النسة في هذه الهداية ويخالفونهم في الهداية الأخرى الخاصة بالتوفيق .

الخلاصة :أن الجبرية والأشاعرة في هداية الدلالة على قولين :

الأول: من أثبتها ووافق أهل السنة فيها ، وإن كان خالف في الأولى التوفيق .

الثاني: من خالف فيها وأنكرها للكافر ويرجع كل الهدايات لنوع واحد وهي هداية التوفيق .

٣- الرد عليهم :

أولاً : الرد على من أنكر منهم هداية الدلالة والإرشاد من دون أن يقارنها توفيق :

يرد على منكري هداية الدلالة بدون مقارنة التوفيق بأن لها أدلة في كتاب الله، بينت أن الله هدى الكفار مع عموم الناس وبين لهم ودلّهم للحق وأرشدهم وأمرهم به، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون فمن ذلك قوله تعالى:﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ فصلت: ١٧.

وهذه الآية رد على الجبرية من جهتين :

الأولى : أن الله هدى الكافر وبين له . ومعنى هداية الله لهم هنا هداية الدلالة والإرشاد والبيان والمعنى أن الله هدى ثمود للدين وبين لهم الحق وأرشدهم إلى اتباع الرسول .

الثانية : أن الضلال والخذلان ليس الإنسان بمجبور عليه، وإن كان مقدّر ومكتوب، ولكن ذلك لعلمه السابق وإرادته الكونية ومع هذا جعل الله للكافر إرادة واختيار يميز بها بين الحق والضلال والدليل قوله:﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ البلد: ١٠طريق الخير

والشر فالكافر تسبب في إضلال الله له والمؤمن تسبب في توفيق الله له ، فالاهتداء من المؤمن والهداية من الله .

والأدلة التي فيها الرد على من أنكر أن يكون الله هـدى جميع النـاس هدايـة التبيـين والإرشاد والدلالة كثيرة جدا .

ثانياً : الرد عليهم في إنكار أن يكون العبد له تـأثير في توفيـق الله لـه وكـذا الخـذلان والضلال وأنها مجرد خلق الطاعة من دون سبب وأثر من العبد .

ويرد عليهم بردود وآيات كثيرة منها :

١ – مقتضى عدل الله وحكمته أن يخلق السبب والمسبب ولم يسوّ بين طالبٍ ومعرضٍ جاحدٍ وسيأتي لهذا الكلام مبحث مستقل.

٢ – ومن الردود ما جاء في كثير من الآيات من امتنان الله على عباده بزيادة أعطائه لمن أقبل إليه ومنها قوله تعـالى : وقولـه:﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى ﴾ مريم: ٧٦ فكان التوفيق ما جمع بين الاهتداء من العبد والإهداء من الله.

٣ – وكذلك قوله تعالى في إثبات أن العبد له اختيار قوله تعالى عن ثمود :﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ وقولـه: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ وقولـه ﴿ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ قولـه: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ وقولـه: ﴿ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾ وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾.وقوله:﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .وقولـه:﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ﴾ الكهف: ١٧ ﴿ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ .

الخلاصة في منشأ الخلاف:

أولاً : بالنظر من ناحية القدر الذي هو أصل الباب :

اختلف أهل الضلال في فهمه إلى فريقين غاليين:

الأول: القدرية :

غلبوا جانب العبد وادعوا أن له شيئاً من خصائص الله وقدره، فهو الخالق لفعله، والله لم يخلق شيء من أفعال العباد ولم يقدرها ولم يردها، ومن هذا الأصل الفاسد أنكرت القدرية أن يكون الله يضل أحداً أو يهدي أحداً أو يوفق أحداً أو يخذله، بل كل ذلك من العبد ، العبد يهدي نفسه ، والعبد يضل نفسه ، والعبد يوفق نفسه أو يخذلها، وأما ما أضافه الله لنفسه فإن لله التسمية والعلامة يسمى من يشاء مهتدياً ومن يشاء ضالا بعد وقوع العبد في إحداهما، وكذلك الله يهدي من باب الدلالة والبيان والإرشاد ، فيدل ويرشد ويبين، ولا تفاضل بين الناس في الهداية والدلالة .

الثاني: الجبرية :

غلّبت جانب الخالق سبحانه، وادعت أن كل شيء تحت تصرف الله وخلقه، والعبد ليس له تأثير ولا اختيار، بل الله يخلقه مهتديا أو ضالا، والعبد لا يستطيع أن يختار أحد الطريقين ولهذا قالوا الهداية والتوفيق يخلقها الله في العبد، والعبد ليس له عندهم اختيار ولا إرادة، إذ لو كان له إرادة في شيء من ذلك لكان هذا خروج عن خلق الله وقدرته وإرادته وقضائه وقدره على حد زعمهم .

ثانياً : النظر من ناحية نوعي الهداية :

المعتزلة القدرية :

أنكرت هداية التوفيق، وزعمت أن كل هداية هداية دلالة وبيان وأن الناس متساوون فيها لا تفاضل، والعبد يهدي نفسه ويوفقها وأما ما أضافه الله إلى نفسه، وكونه يهدي ويضل فإن المعنى يكون على إحدى معان:

١ – يسمى مهتدياً أو يحكم عليه أو يضع فيه علامة تبين أنه مهتدي ومثله الضلال .

٢ – أو يكون معنى يهديه يدله ويبين له ويرشده .

٣– أو يكون معنى يهدي يثيبه ويضله أي يهلكه ويعاقبه .

الجبرية والأشاعرة :

غلت في هداية التوفيق فلم تجعل للعبد تأثير في هدايته أو زيادته وخالفوا النصوص، وأما هداية الدلالة فمنهم من يثبتها ومنهم من ينكرها ويقول من دله الله فقد وفقه ويجعلون الهدايتين من باب واحد ولم يهد الكافر مطلقاً[1].

مسألة : بيانُ ضلالِ الفرقتين وخلافهم للحق :

هل هدى الله الكافر وأراد هدايته :

١ – القدرية : قالت الله هداه وأراد هدايته ولكن الكافر ردها وأضل نفسه .

---

[1] أما أهل السنة فيثبتون الجانب الإلهي التوفيق وهو فضل من الله ومنه ، ولا يقدر عليها العبد إن لم يهبها لـه، فمن فضل الله في هذا الجانب إدخال الإنسان في الدين أو ولادته عليه وتثبيته عليه وتزيينه في قلبه والجانب الثاني العبدي وهو الذي يحصل من العبد بالسعي في أسباب الهداية والتوفيق والثبات وهذا سبب والأول هو الأصل وهو الحقيقة التي لابد منها .

٢- الجبرية : قالت الله لم يهده ولم يرد هدايته لأنه لم يوفقه بل خلق الضلال والخذلان فيه من دون سبب ولا حكمة.

٣- أهل السنة : قالوا هناك هدايتان :

هداية الدلالة : وهذه حصلت للكافر فأراد الله هدايته شرعاً ودينا وكذلك أرسل له رسول وبين له وأرشده لكي يمتثل أوامره وبين له أن هذا طريق الجنة وأنه طريق الهداية الوحيد .

وهداية التوفيق : لم تحصل للكافر حيث لم يهده الله أي لم يوفقه ويسدده ويثبته ويلهمه فلم يهده كوناً وقدراً .

إذاً الحق في الكافر :

١- أن الله هداه دلالة وبياناً وأمراً وشرعاً .

٢- ولم يهده توفيقاً وإلهاماً ولم يسدده قدراً وكوناً .

مسألة : المولود على الإسلام :

حصل له التوفيق والهداية ابتداءً فضلاً من الله ومنّه من دون كسب من العبد واجتهاد .

ثم بعد بلوغه إن سعى في أسباب زيادة الاهتداء والثبات على الهداية زاده الله توفيقاً وهداية وثبته على ذلك إعانة له وفضلاً ومنّه .

وإن أعرض واستحب العمى ولم يسعى في تحصيل الهداية ويقبل بقلبه إلى الله، بدل الله هدايته بضلال وسلب منه نعمة الهداية والتوفيق والإعانة فيضل والعياذ بالله ويصير مخذولاً ضالاً عقوبةً من الله له .

مبحث

لماذا منّ الله سبحانه وتعالى بالهداية والإعانة على المؤمن دون الكافر وهل فيه ظلم له؟

الجواب من أوجه :

الأول : أن الزعم بأن منة الله بالهداية على المؤمنين دون الكافرين ظلم باطل لأمرين :

١- أن هذا تفضُّل من الله يختص به من يشاء كما قال تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ ﴾ الحجرات: ١٧، فالتفضل في الزيادة والفضل وليس في أصل الدلالة، فتخصيص هذا بالإيمان كتخصيص هذا بمزيد علم وقوة وصحة وجمال ومال[1]، وقد تفضل الله على عباده بنعم جليلة لا تحصى ولا يوازيها شيء ولو فعلوا ما فعلوا ولو عبدوا الله طِوَال أوقاتهم ما وفوا، فإذاً تفضل الله على بعض عباده بالهداية كان ذلك له سبحانه ولا يعد ظلماً، ولم يمنع المحروم شيء من حقه .

٢- أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه والله سبحانه وتعالى إنما يضع العقوبة في محلها فإذا بين الله الهدى للناس جميعاً وأقام الحجة عليهم وأقدرهم على الإيمان وعدمه، كان كل ذلك محقّقٌ للعدل، فحين يمن الله على البعض بالإيمان دون البعض لا يكون ظلماً لأنه وضّح لهم جميعاً وبين ودل فتساوو في الأصل المطلوب، ومثاله إكرامك زيدا دون عمرو أو إهداءك زيداً دون عمرو لا يعد ظلماً إنما الظلم في الشيء الواجب أصلاً كالتفضيل بين الابنين في النفقة والهدية .

---

[1] وهذا يحصل في موازين البشر فقد يتصدق الإنسان على فقير بأضعاف ما يتصدق على الآخر والسؤال هنا هل للفقير الثاني حق في اعتراضه ومطالبته للغني مساواته مع الفقراء الآخرين والجواب لا .

الثاني : أن حجة الله قد قامت على من منعهم الهدى وذلك بتخليته بينهم وبين الهدى حيث أرسل إليهم الرسل ليردُّوهم إلى الصراط المستقيم ، كما أقام لهم أسباب الهداية ولم يمنعهم أياها، فبعد ذلك لا يبقى لمعترض اعتراض على توفيق الله ومنته لـبعض عباده بالهدى والتوفيق وكم لله من النعم على الكفار في الدنيا ؟.

الثالث : لماذا أعان المؤمن ولم يعن الكافر فالجواب :

١ – أن حقيقة هذا القول : كالقول لماذا لم يهد الله جميـع النـاس، وهـذا فاسـد لأن لله حكماً كثيرة وعظيمة في خلق الناس متفاوتين ولو شاء لجمعهم على الهدى .

٢ – أن الله بيَّن الحق ودلّ عليه وعّرف العباد بما ينفعهم في الدنيا والآخرة فمن عرف أن هذا يضره وهذا ينفعه فعليه أن يذل ويخضع له حتى يعينه على فعل ما ينفعه.

٣ – أن الله خلق الإنسان وهو متمكن من الإيمان قادر عليه فلو أراده لفعلـه، فـإذا لم يؤمن كان دليلا على أنه لم يرده لا أنـه عـاجزٌ غـير قـادر، فتـوفُّر القـدرة مـع الإرادة الجازمة توجب الطاعة، ولا يتصور توفر الأمرين ولا يحصل الفعل.

٤ – أن الإعانة والهداية والتوفيـق لهـا جانبـان جانـب مـن العبـد بتعرضـه للـسبب والاهتداء وجانب من الله وهو الهداية والإعانة والتوفيق ، فالله بيـّن وأرشد والعبـد تسبب وتعرض واهتدى والله بعد ذلك أعطى وهدى وثبت فضلاً منه ورحمة.

٥ – أن إعانة الكافر على الطاعة قد تستلزم فوات ما هو واجب وأعظم طاعـة، مثـل الجهاد والدعاء والإقبال على الله وغيرها من الطاعات التي لا توجد إلا بوجود كافر

معاند، وغير ذلك من الحكم التي تستلزم اختصاص المؤمن بتوفيق الله وإعانته علمنا القليل وجهلنا الكثير منها[1].

الرابع : أنه يجب الإيمان والتسليم بالقدر وعدم معارضة الشرع بالقدر وعلى المسلم أن يقف على ما أوقفنا عليه الرسول صلى الله عليه وسلم حين سأله صحابته فقال: " اعملوا فكل ميسر لما خلق له".

[1]انظر في هذا المبحث العظيم وما قبله في منهاج السنة لابن تيمية ١/ ٩٢ ، ٢/ ٧ . شفاء العليل ص٨٠، شرح الطحاوية والفصل لابن حزم والقضاء والقدر للمحمود ص ٤٢٣ .

الفصل الخامس عشر

أفعال العباد والكسب والجبر

المسألة الأولى : دخول أفعال العباد وأعمالهم في عموم خلق الله:

خلق الرب عز وجل أعمال العباد فأفعالهم مخلوقة كما أن ذواتهم مخلوقة.

الأدلة على ذلك:

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الصافات: ٩٦ .

ومما عملوه صناعة الأصنام وعبادتهم لها في قصة قوم إبراهيم عليه السلام .

قول النبي ﷺ في حديث حذيفة رضي الله عنه : "إن الله يصنع كل صانع وصنعته"[1].

كما أن أفعال العباد داخله في عموم قولـه تعـالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر: ٤٩

وأفعال العباد من هذا لشيء .

حديث الاستخارة وما فيه من سؤال العبد ربه أن ييسر له في أفعاله ويقدره عليها[2] .

قوله تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ الشمس: ٨ .

قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ الحديد: ٢٧ .

قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ النجم: ٤٣.

وقوله : ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ الملك: ١٣ - ١٤ وغير ذلك كثير .

---

[1] انظر خلق أفعال العباد ص ٦٦ . والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك والبزار وابن أبي عاصم .

[2] شفاء العليل ص ٢١٣ .

المسألة الثانية : الفعل له جانبان من الرب والعبد :

الجانب الأول : جانب الرب الخالق : وفعله الخلق .

والجانب الثاني : من العبد المخلوق وفعله العمل والفعل وليس الخلق .

فالصلاة والتسبيح والقيام والسرقة والزنا وغير ذلك الله سبحانه خالقها والعبد الذي عملها وفعلها، ولا يمكن أن نقول الله صلى وصام وغير ذلك ، وإنما نقول خلق الصلاة والسرقة ونحوها . كما لا يمكن أن نخرج هذه الأشياء من عموم خلق الله ونثبت خالق مع الله كما يقوله المشركون والمجوس والقدرية تعالى الله عن ذلك.

قال الإمام البخاري في خلق أفعال العباد [1]:

واختلف الناس في الفعل والفاعل والمفعول :

فقالت القدرية : الأفاعيل كلها من البشر ليست من الله .

وقالت الجبرية: الأفاعيل كلها من الله .

وقالت الجهمية:الفعل والمفعول واحد ؛ لذلك قالوا لـ " كن " : مخلوق .

وقال أهل العلم : التخليق فعل الله وأفعالنا مخلوقة ففعل الله صفة الله والمفعول غيره من الخلق ".انتهى كلامه رحمه الله .

فينبغي التفريق بين الفعل الذي هو الخلق وهو فعل الله الفاعل للخلق سبحانه، وبين أثر هذا الفعل وهو المفعول الذي هو المخلوق وهو فعل العبد.

فالأول صفة الله وهو الجانب الرباني ، وهذا أنكرته القدرية المعتزلة.

والثاني صفة العبد وهو الجانب الإنساني ، وهذا أنكرته الجبرية والأشاعرة .

---

[1] خلف أفعال العباد ص ٢٩٩ .

واصطلح على الأول أنه الخلق، والثاني الفعل في مقابل الخلق . أو المفعـول المخلـوق في مقابل الفعل والخلق . فتأمل هذه القاعدة التي بين غلـو وإفـراط الجبريـة وجفـاء وتفريط القدرية . وأعمل بها تكن سنيّاً موحداً في القدر لا جبرياً ولا قدرياً .

وكلا الفرقتين وقعتا في الشرك :

فالجبري أشرك في توحيد الألوهية والشرع.

والقدري أشرك في توحيد الربوبية والأفعال والقدر .

المسألة الثالثة : تأثير قدرة العبد :

صفة التأثير في فعل العبد وكون قدرته مؤثرة محل اختلاف بين الطوائف:

فالقدرية تجعل قدرة العبد مؤثرة على سبيل الاستقلال والاخـتراع والابتـداع أي أن العبد هو الخالق لفعل نفسه وقدرته .

والجبرية قابلوهم بالضد فسلبوا قدرة العبد وأنكروا أي تأثير في مقدورها .

وقال أهل السنة أنّ قدرته مؤثرة بتأثير الله وخلقه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في جوابه عن هذا السؤال : هـل قـدرة العبـد المخلوقـة مؤثرة في وجود فعله فإن كانت مؤثرة لزم الشرك وإلا لزم الجبر ؟.

فأجاب رحمه الله بقوله : " التأثير اسم مشترك قـد يـراد بالتـأثير الإنفـراد بالابتـداع والتوحيد بالاختراع، فإن أريد بتأثير قدرة العبد هذه القدرة فحاشا لله لم يقلـه سـني وإنما هو المعزو إلى أهل الضلال وهم المعتزلة ، وإن أريد بالتأثير نوع معاونه وإمـا في صفة من صفات الفعل أو وجه من وجوهه كما قاله كثير من متكلمي أهل الإثبـات وهم الأشاعرة فهو أيضاً باطل بما به بطل التأثير في ذات الفعل .

وإن أريد بالتأثير أن خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسط القدرة المحدثة، بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله سبحانه الفعل بهذه القدرة كما خلق النبات بالماء فهذا حق وهذا شأن جميع الأسباب والمسببات وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركاً وإلا فيكون إثبات جميع الأسباب شركاً "[1].

وقال رحمه الله : " المقصود هنا أن التأثير إذا فُسِّر بوجود الشرط الحادث أو سبب يتوقف حدوث الحادث به على سبب آخر وانتفاء مانع فهذا حق وتأثير قدرة العبد في مقدورها ثابت بهذا الاعتبار . وإن فُسِّر التأثير بأن المؤثر مستقل بالأثر من غير مشارك. فليس شيء من المخلوقات مؤثر بل الله وحده خالق كل شيء"[2].

المسألة الرابعة : إمكانية وقوع فعل بين فاعلين ومقدور بين قادرين:

فالفعل كالصيام والسرقة وغيرها وقع بقدرتين وفعلين :

الأول : فعل العبد ومقدروه وعمله .

والثاني : فعل الله ومقدوره وهو الخلق .

فإضافة الفعل إلى القادِرَين مختلفة فالعبد له قدرة مؤثرة في الفعل بإقدار الله وخلقه فليست مستقلة ولا خالقة للفعل ، وللرب قدرة مؤثرة مستقلة في التأثير فالله الذي أقدر العبد وخلق فيه القدرة والإرادة وخلق الفعل [3].

والقدرية زعمت استقلال العبد في الفعل والقدرة فالعبد الذي خلق وفعل .

---

[1] مجموع الفتاوى ٨/ ٣٨٩ .

[2] مجموع الفتاوى ٨/ ١٣٤ .

[3] شفاء العليل ص ١١٥ .

والجبرية ألغت قدرة العبد وفعله فالله الذي خلق وفعل وليس العبد عندهم.

وأما أهل السنة فعندهم: العبد فعل والله خلق، ففعل العبد بقدرة الله وخلقه ومشيئته ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾.

وفي قوله: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ :

جمع بين الرد على القدرية في زعمهم أن الله لم يخلق أعمالهم .

ورد على الجبرية في أن العبد لا يعمل، فأثبت الله العمل للعبد والخلق لنفسه سبحانه.

ومثلها قوله : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ التكوير: ٢٩ :

فللعبد مشيئة وفعل ولكن تابعه لمشيئة الله وخلقه .

المسألة الخامسة : الفرق بين الفعل والانفعال وفَعَل وأفْعَل :

قال ابن القيم رحمه الله : "ينبغي الاعتناء بكشف هذا الباب وتحقيق معناه فبذلك ينحل عن العبد أنواع من ضلالات القدرية والجبرية حيث لم يعطوا هذا الباب حقه من العرفان . اعلم أن الرب سبحانه فاعل غير منفعل ، والعبد فاعل منفعل"[1].

وعند الجبرية العبد منفعل لا فاعل .

والقدرية : العبد عندهم فاعل وليس منفعل وأهل السنة العبد فاعل ومنفعل .

أمثلة توضح القاعدة :

١-النطق والإنطاق : النطق من العبد والإنطاق من الله .

﴿ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ .

---

[1] شفاء العليل ص ٢٥٢ .

فالإنطاق فعل الله الذي لا يجوز تعطيله، والنطق فعل العبد الذي لا يمكن إنكاره .

٢-الضحك والإضحاك: ﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾،﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ .

فالضحك والبكاء فعل العبد، والإضحاك والإبكاء فعل الرب .

٣- الزيغ والإزاغة : في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ الصف: ٥ .

الزيغ من العبد والإزاغة من الله.

فائدة : زعمت القدرية أن معنى أضحك و أبكى وأنطق :خلق لهم آلة يضحكون بها وينطقون بها.وهذا باطل لأن الآلة موجودة عند من لم ينطقه الله ويضحكه الله .

المسألة السادسة : الأقوال في أفعال العباد :

أولا: مذهب القدرية :

١ – الغلاة منهم أتباع مِعْبَد وغيلان :

قالوا أن الله لا يعلم بأفعال العباد إلا إذا فُعِلت ووقعت.

٢- المتوسطون أتباع واصل وعمرو: قالوا أن الله علمها وكتبها ولكن لم يشاءها ولم يخلقها فالعباد يخلقون أفعالهم وبهذا شابهوا المجوس بإثبات خالق مع الله .

ثانيا: مذهب الجبرية :

١ – الغلاة أتباع جهم : قالوا أن العبد ليس له فعل وإنما هو مجبور .

٢- المتوسطون : أتباع الأشعري ابتدعوا الكسب :

فقالوا أن العبد له قدرة غير مؤثرة وإرادة وقدرة يقع الفعل عندها لا بها وأن الفعل يثبت للعبد مجازاً والله الفاعل للفعل .وقدمنا أقوالهم وأدلتهم والرد عليها[1].

---

[1] انظر الفصل ١١-١٢ من هذا الكتاب .

المسألة السابعة : أفعال التولد عند المعتزلة :

يقسّم كثير من المعتزلة أفعال العباد إلى قسمين: المباشرة والمتولدة .

واختلف أقوال المعتزلة في تعريف أفعال التولد وقد ذكر أقوالهم الأشعري في مقالات الإسلاميين[1] والقاضي عبد الجبار في المغني[2].

ويمكن أن يقال أن جامع أقوال المعتزلة في الأفعال المتولدة ثلاثة أقوال [3].

الأول: أن المتولدات أفعال لا فاعل لها أو هو الذي يكون بسبب من المخلوق ويحل في غيره .

الثاني:أن المتولدات فعل ما وجدت فيه بحسب الطبع أو بإيجاب الخلقة .

الثالث : أن المتولدات فعل للإنسان ينسب إليه كالأفعال المباشرة .

ويمثل للأفعال المتولدة بالشبع والري وتسخين الماء والنور الخارج من السراج.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في درء التعارض بعد كلامٍ حول المسألة:

" فأما الأمور المنفصلة عنه التي يقال أنها متولدة عن فعله :

فمن الناس من يقول ليست مفعولة له بحال بل هي مفعولة لله تعالى كما يقوله كثير من متكلمي المثبتين للقدر، ومنهم من يقول بل هو مفعول له على طريق التولد كما يقوله المعتزلة ويحكى عن بعضهم أنه قال لا فاعل لها بحال، وحقيقة الأمر أن تلك قد اشترك فيها الإنسان والسبب المنفصل عنه فإنه إذا ضرب بحجر فقد فعل الحذف ووصول الحجر إلى منتهاه حصل بهذا السبب وسبب آخر من الحجر والهواء،

---

[1] مقالات الإسلاميين ٤٠٨ .

[2] المغني لعبد الجبار ٩/ ١١ .

[3] أفعال العباد ص ١٨٠ .

وكذلك الشبع .. وهذا مما يبين أنه ليس في المخلوقات ما يستقل بمفعول أصلاً – مثل القلب وولاة الأمور – وهذا كله مما يبين عجز كل مخلوق عن الاستقلال بمفعول ما "[1] .

المسألة الثامنة : الجبر :

الجبر : تقدم كلام الأوزاعي عنه وأنه ليس له أصل في الشرع .

والجبر في اللغة على معاني :

١ – الغنى من الفقر وجبر المصاب والعظم من ذلك، والجبار اسم من أسماء الله تعالى يجبر الكسر ويغني الفقير .

٢– الغزو والامتناع .

٣– الإكراه والقهر والقوة .

والجبرية سموا بذلك لزعمهم أن العبد مجبور على فعله .

المسألة التاسعة : الكسب عند الفرق :

تعريف الكسب :

في اللغة الجمع وجاء في القرآن بمعنى العزم وتحصيل المال والسعي والعمل .

---

[1] درء تعارض العقل والنقل ٩/ ٣٤٠ .

أولاً : الكسب عند أهل السنة :

بمعنى الفعل فهو فعل العبد المخلـوق ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾، فللعبد قدرة وإرادة كسِب بها وهي تابعة لقدرة الله وخلقه .

ثانياً : الكسب عند القدرية :

العبد مستقل في كسبه وفعله من دون أن يخلقه الله .

ثالثاً : الكسب عند الجبرية :

كسب العبد محض خلق الله وفعله ولـيس للعبـد في كـسبه أثـر ولا تـأثير ولا قـدرة مؤثرة.فهو بمعنى الجبر في الحقيقة ولا فرق بينهما عند التحقيق وتقدم قول الدسوقي في التحفة:"العبد مجبور في صورة مختار".

المسألة العاشرة : الكسب عند الأشعري[1] :

من الأمور التي اضطربت الأشاعرة في تفسيرها الكسب ووصـلت أقـوالهم فيـه إلى أكثر من عشرين قولاً .

وخلاصة معناه عندهم : أن للعبد إرادة وقدرة يحصل الفعل عندها لا بها .

ففعل العبد وقدرته وإرادته مجازية ليست حقيقية بزعمهم . وهـذه البدعـة لم يـسبق أحد فيها أبو الحسن الأشعري .

---

[1] أفرد ابن القيم رحمه الله الباب السابع عشر من كتابه شفاء العليل في الكسب والجبر ص ٢٣٠ ، وانظر كـلام ابـن تيمية عنه في الفتاوى : ٨/ ١١٨ -١٢٨ .

إنكار الأشعري لقدرة العبد :

قال الرازي في محصل أفكار المتقدمين : " زعم أبو الحسن الأشعري أنه لا تأثير لقدرة العبد في مقدور" .

وقال اللقاني صاحب الجوهرة :

" وعندنا للعبد كسب كلفا * ولم يكن مؤثرا فلتعرفا ".

وقال الشهرستاني في نهاية الأقدام : " ولم يثبت شيخنا أبو الحسن للقدرة الحادثة صلاحية أصلاً".

قال ابن تيمية في منهاج السنة : " ولكن ليس هذا قول من ينكر الأسباب والقوى التي في الأجسام وينكر تأثير القدرة التي للعبد التي يكون بها الفعل كما يقول ذلك جهم والأشعري " .

وقال ابن القيم في شفاء العليل : " الذي استقر عليه قول الأشعري أن القدرة الحادثة لا تؤثر في مقدورها ولم يقع بها المقدور ولا صفة من صفاته ".

اضطراب الأشاعرة في معنى الكسب وحقيقته عندهم :

إن عقيدة لا يفهمها أصحابها كيف يراد لها أن يفهمها غيرهم، وفي إيجاب الأشاعرة الإيمان بالكسب تجنٍ على الله، لأنه يلزم منه أن الله يأمر عباده بما لا يعرفوه واعتقادهم ما لا يفهموه وهذا تكليف لهم بما لا يطيقون، ولذلك فالكسب كثرت أقوالهم في تعريفه واضطربوا في حقيقته ولم يأتوا بتعريف صحيح يوضّحه ويبينه .

ولأجل ذلك صار يضرب بكسب الأشعري المثل في خفاء المعنى وعدم معرفته والسفسطة وإنكار الحقائق واعتبر وجوده من المستحيلات الثلاث مع طَفْرة النظام وأحوال ابي هاشم : وقد قيل في هذا :

مما يقال ولا حقيقة تحته * معقولة تدنوا إلى الإفهام

الكسب عند الأشعري والحال * عند البهشمي وطفرة ا لنظام

قال الإمام ابن القيم في شفاء العليل : " وقد اضطربت آراء اتباع الأشعري في الكسب اضطراباً عظيماً واختلفت عباراتهم فيه اختلافاً كثيراً " .

ثم ساق أقوال لهم في تعريف الكسب ولخص أقرب تعريف فيه حيث قال : " **إجراء العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته لابها فهذا الاقتران هو الكسب** " أ هـ .

وقول الأشاعرة بالكسب في أفعال العباد وقولهم في الأسباب وإنكار تأثيرها في الحقيقة إنكار لوجود فعل العبد والسبب، لأنهم اعتبروها من باب الاقتران لا من باب التأثير، ففعل العبد وقدرته هي الحاصلة عند الفعل وليست هي الفعل والقدرة نفسها لأن هذا في الحقيقة فعل الله وقدرته والعبد محل لفعل الله، ويسمى اقتران القدرة الحادثة والفعل بالحدث فعل العبد هو قدرته وتأثيره فعندهم هذه صفة الله ليست للعبد.

الفرق بين الكسب الأشعري والجبر التجهمي :

لا فرق في الحقيقة بين الكسب عند الأشاعرة والجبر، فهما بمعنى واحد وإن اختلف الاسم وادعت الأشاعرة وجود فرق، ولقد وضح الدسوقي مذهبهم حين قال : " فالعبد مجبور في صورة مختار " .

المسألة الحادية عشر : سبب ومنشأ قول الأشاعرة بالجبر والكسب في أفعال العباد:

سبب قول الأشاعرة بالجبر أنهم ظنوا أن الفعل هو المفعول والخلق هو المخلوق، ولم يفرقوا بين فعل الله وفعل العبد وتقدم ذلك في المسألة الثانية ونقلنا لكلام البخاري رحمه الله، وسبّب قولهم هذا فساد مذهبهم في الصفات، واعتقادهم أنه لا يثبت وجود الله إلا عن طريق إثبات حدوث العالم والجوهر والعرض، وغير ذلك من ضلالاتهم .

قال شيخ الإسلام : " ولكن طائفة من أهل الكلام المثبتين للقدر - الأشاعرة - ظنوا أن الفعل هو المفعول والخلق هو المخلوق ، فلما اعتقدوا أن أفعال العباد مخلوقة مفعوله لله قالوا فهي فعله ، فقيل لهم مع ذلك أهي فعل الله، فاضطربوا فمنهم من قال هي كسبه لا فعله ولم يفرقوا بين الكسب والفعل بفرق محقق. ومنهم من قال بل هي فعل بين فاعلين ومنهم من قال بل الرب فعل ذات الفعل والعبد فعل صفته" [1].

المسألة الثانية عشر :علاقة أفعال العباد بالمدح :

يجتمع في أفعال العباد متعلقان :

١ - فعل الله وهو الخلق .

٢ - فعل العبد وهو فعله الذي يستحق المدح أو الذم عليه، وهو ماله فيه كسب وإرادة واختيار [2].

---

[1] مجموع الفتاوى ٢/ ١١٩ .

[2] لمزيد من بيان مسألة أفعال العباد والرد على القدرية والجبرية انظر الفصل الحادي عشر والثاني عشر من هذه الرسالة ورسالة الحميدي أفعال العباد بين أهل السنة ومخالفيهم .

الفصل السادس عشر

الشر وعلاقته بالقضاء الإلهي

المسألة الأولى: جوانب الشر وجهاته وعلاقته بقدر الله:

أولا: الشر لا ينسب إلى الله،وليس في أفعاله شر،وإنما الشر في مفعولاته ومخلوقاته .

ثانيا: لا يوجد في مفعولاته شر محض بل شر نسبي .

المسألة الثانية: عدم نسبة الشر إلى الرب تبارك وتعالى :

لا ينسب الشر إلى الله ولا إلى أفعاله ولا إلى قضائه وقدره الذي هو فعله، وإنما الشر في المفعولات والمخلوقات .

وبيان ذلك أن القضاء والقدر يطلق على شيئين :

١- يطلق ويراد به فعل الله وصفته :

فإذا أراد الله وشاء أمرا يقال قدّره الله وقضاه، وإذا خلق يقال قدر الله وإذا علم وكتب يقال قدْر الله أو قدّر الله، فيكون القدر من أفعال الله وصفة من صفاته .

٢- يطلق ويراد به المفعول لله وهو المخلوق، ويسمى تارة المقدور والمقضي، ويسمى أيضاً بالقدر وبالقضاء على أنه المخلوق المقدور المقضي .

وهذا الإطلاق والاصطلاح كثير في اللغة مثل:

الألوهية :

تطلق على صفة الله والتي هي إستحقاقه واختصاصه بالعبادة دونها سواه .

كما تطلق على فعل العبد المخلوق والذي هو العبادة والتأله والتعبد.

كذلك الصيد :يطلق على الفعل (فعل الصيد) وعلى الحيوان المصاد .

ومثله الوضوء والطهور يطلق على الفعل(فعل الطهارة والوضوء) ويطلق على الماء.
وبيان هذه القاعدة نقول :

أن الأفعال المتعدية تقوم على فعل وفاعل ومفعول به ، مثل الخلق والرزق والقـضاء وغيرها: قائمة على خلق وخالق ومخلوق ،ومثله رزق ورازق ومرزوق .

كذلك القدر يتضمن الفعل: قدر/ والفاعل: مقدِر(قادر) / والمفعول: مقدور.

والقضاء قائم على:القضاء(الفعل) والمقضي(المفعول) والقاضي(الفاعل) وهو الله.

وكما أن الخلق يطلق على المخلوقات المفعولات ويطلق على فعل الله القائم به والـذي هو صفته، فكذلك القضاء والقدر يطلق على المقدور المقضي وهو المخلوق والمفعـول ويطلق ويراد به فعل الله الذي هو صفته وفعله القائم به سبحانه وتعالى.

وعلى هذا التقسيم المعروف يعرف الحكم في المسألة، والجواب عنها.

هل الشر في قدر الله وهل ينسب الشر إلى الله ؟ .

فإن أريد بالقدر الراجع إلى الله الذي هو فعله وصفته كما تقدم:

فهذا لا شر فيه بل خير من جميع الوجوه، فالله منزه عن الشر فالقدر في نـسبته إلى الله كله خير، من علم وكتابه ومشيئة وخلق كلها خير ولا شر فيها ولا في فاعلها، فالشر ليس في الرب لا في ذاته ولا في أفعاله ولا في صفاته تقدس وتنزه .

ودليل ذلك دعاء الاستفتاح :" لبيك وسعديك والخير كله في يـديك، والـشر لـيس إليك "رواه مسلم، فالشر ليس إلى الله لكماله وجلاله وجماله سبحانه وبحمده .

وإن أُريد بالقدر المفعول المخلوق المقدور المقضي كما تقدم:

فهذا فيه ما هو خير وفيه ما هو شر، ولكن مع ذلك هو شر نسبي ، وعلى ذلك فالمعاصي والمصائب من باب الشرور ، وإبليس المخلوق المقدور شر .

وهذا المقصود بالشر المنسوب للقدر فنؤمن أنه من خلق الله لا يخرج عن قضاء الله وقدره رداً على القدرية المجوسية، وهذا المراد في الإيمان بالقدر خيره وشره كما في حديث جبريل، فالشر المنسوب للقدر الذي يجب الإيمان به ليس في فعل الله وإنما في مفعولاته ومخلوقاته، من مصائب ومعاصي وغيرها، وبهذا يتضح الجواب ويجمع بين الحديثين، والحمد لله الموفق للحق والصواب .

المسألة الثالثة : هل يوجد شر في الوجود وما نوعه :

الشر ينقسم إلى قسمين كما أن الخير ينقسم إلى قسمين :

الأول: شر محض :

وهذا لا وجود له في المخلوقات بعكس الخير فيوجد خير محض .

الثاني: شر نسبي :

وهو المقصود وهو الموجود في الكون وهو كل ما ليس خير مثل المصائب والمعاصي والكفر وإبليس والكفار وغير ذلك .

وهذه شر في ذاتها ولكن في وجودها خير نسبي وشر نسبي، وليس شر محض صِرْف من كل الوجوه .

فهذه الشرور المخلوقة ينسب الشر إلى ذواتها، لا إلى خلق الله لها وفعله، فالله يخلق الشر النسبي لحكمة وخير ، فنؤمن بأن الله لا يفعل إلا الخير وأن الشر الذي في مخلوقاته نؤمن به وأنه من الله حتى نصبر ونلتجأ إلى الله منه .

قال ابن القيم في الشفاء ما مفاده وملخصه : " القدر لا شر فيه بوجه من الوجوه فإنه علم الله وقدرته وكتابته ومشيئته وذلك خير محض وكمال من كل وجه، فالشر ليس إلى الرب لا في ذاته ولا صفاته وأسمائه ولا أفعاله وإنما يدخل الشر الجزئي الإضافي في المقضي المقدر ويكون شراً بالنسبة إلى محل وخيراً بالنسبة إلى محل أخر"[1].

وسنفرد الحكمة والخير من وجود الشرور كإبليس والمعاصي والمصائب بفصل إن شاء الله، ولو لم يكن في وجودها من الخير إلا ظهور بعض آثار أسماء الله وصفاته، وظهور بعض العبادات كالصبر والدعاء والجهاد لكفى ذلك خيراً .

المسألة الرابعة : الجمع بين حديث "وأن تؤمن بالقدر خيره وشره " وحديث " والشر ليس إليك " :

الشر المثبت في الحديث الأول : هو الشر الموجود في المخلوقات المفعولات المقدورات المقضيات مثل المصائب والمعاصي .

والشر المنفي في الحديث الثاني : هو قدر الله وخلقه الذي هو فعله وصفته.

ولذلك في الحديث الأول، قال نؤمن والإيمان لا يستلزم الرضا لأنها، ليست أفعال الله بل مفعولات فنؤمن ونرضى بأفعال الله وصفاته لأنها كلها خير وحكمة، ونؤمن بدون لزوم الرضا في مفعولات الله ومخلوقاته وسيأتي تفصيل ذلك في مسألة الرضا بالقدر .

---

[1] شفاء العليل ص ٤٥٨ ، وهذه تبحث في مسألة الرضا بالقدر والمقدور والحكمة من وجودها، مسألتان ستأتي قريباً .

فائدة : أقوال بعض أهل العلم في تفسير حديث "الشر ليس إليك" :

ذكر النووي في شرح مسلم في معنى " الشر ليس إليك " خمسة أقوال منها:

١ – أي لا يتقبله ولا يصعد إليه ولا يتقرب به .

٢ – من باب الأدب فلا يقال يا خالق القرد والعذرة .

المسألة الخامسة : المخالف في مسألة الشر :

١ – غلاة الجبرية:

الذين قالوا لا يوجد شر في الكون بل كل قضاء الله وقدره خير وكل خلق الله ومخلوقاته خير فإبليس وفرعون والكفر كلهم خير ، وهؤلاء غلاة الجبرية من الصوفية وغيرهم .

٢ – القدرية:

قالوا يوجد شر ولكن الشر لم يخلقه الله فآمنوا بجانب وكفروا بجانب من القدر ، امنوا بالشرع وكفروا بالخلق وهم القدرية، وأول سبب لظهورهم إنكارهم الشر أن يكون الله خلقه أو فعله ثم أدخلوا الخير وهي مسألة أفعال العباد .

فالشر موجود والله الذي خلقه لحكمة، فنرضى بفعل الله وقدره ولا نرضى بالمخلوق المفعول من معاصٍ وكفرٍ، ونؤمن أنها كلها مخلوقات الله خلقها لخير وحكمة .

المسألة السادسة : الشر ينقسم إلى قسمين :

١ – شر ذاتي حسي مثل إبليس والكافر والحيوانات المؤذية كالحيات .

٢ – شر معنوي مثل المعاصي والكفر والمصائب .

وهذا القسم أدعت الجبرية أن الله يحبه ويرضاه، وادعت القدرية عدم خلقه .

المسألة السابعة : أقسام الشر المذكورة في القرآن :

لا يذكر الشر ويضاف إلا على أحد ثلاثة أوجه[1]:

١- دخوله تحت عموم الخلق والمشيئة كقوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ .

٢- وأما بحذف الفاعل مثل قول مؤمني الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴾ وقوله ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

٣- إضافته للسبب كقوله: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ ﴾ النساء: ٧٩ ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ .

المسألة الثامنة : الفرق بين الخير والشر والحلو والمر:

الحلاوة والمرارة تعود إلى مباشرة الأسباب في العاجل .

والخير والشر يرجع إلى حسن العاقبة وسوئها .

فهو حلو ومر في مبدئه وأوله ، وخير وشر في آخره ومنتهاه وعاقبته [2].

فائدة :

أجرى الله سبحانه سنته وعادته على أن حلاوة الأسباب في العاجل تعقبها المرارة في الآجل الآخر ، ومرارتها تعقب الحلاوة .

فحلو الدنيا مر الآخرة، ومر الدنيا حلو الآخرة . ومن هذا الباب الجنة حفت بالمكاره ، والنار حفت بالشبهات والشهوات والملذات والله تعالى أعلم.

---

[1] مجموع الفتاوى ، القدر : ص ٩٤ .

[2] شفاء العليل ص ٤٥٨ .

الفصل السابع عشر

الحكمة والتعليل في أفعال الله وقدره [1]

المسألة الأولى : تعريف الحكمة وحقيقتها :

أولا: تعريف الحكمة :

الحكمة هي الإتقان والمنع ووضع الشيء في موضعه والإصابة .

وتطلق الحكمة على العدل والحلم ، والنبوة ، والقرآن ، وغير ذلك .

ويلاحظ في هذه الإطلاقات معنى المنع والإتقان فالعدل منع للظلم والحلم منع الغضب ، والنبوة والقرآن يمنعان من وقوع الشرك والجهل .

ثانيا: الحكمة من صفات الله:

الحكمة من صفات الله والحكيم من أسمائه، وهو المتقن المانع واضع الشيء في موضعه، ولا يوصف الله بالعلة والغرض وإنما بالحكمة، ويفسر كثير من المتكلمين الحكمة بالعلم والإرادة والقدرة وهذا غلط .

ثالثا: العلة :

هي السبب والداعي والباعث للشيء والموجب والمؤثر وغير ذلك من المعاني والتعريفات، والملاحظ أن الأصوليين تختلف تعاريفهم للحكمة بناء على اختلافهم في مسألة تعليل أفعال الله كما سيأتي .

---

[1] معنى هذه المسألة هل يوجد حكمة في أفعال الله وصفاته وهل هناك فائدة من خلق المخلوقات وما يفعله الله أم أن الله سبحانه يفعل كل شيء هكذا بدون حكمة . ورأس المخالفين في هذه المسألة الاشاعرة حيث اشتهروا بخلافهم في هذه المسألة وإنكارهم الحكمة .

رابعا: مذهب الفلاسفة في العِلَّة :

هي عندهم بمعنى الإيجاد، ولذلك يسمون الله علة بمعنى الموجد، ويقسمون العلـة إلى: تامة وناقصة، والناقصة إلى جزء من الشيء المعلول وهي أما عاديـة أو صـورية ، أو خارجاً عن المعلول وهـي إمـا فاعلـة أو غائيـة ، فالعاديـة مثـل الخـشب للـسرير والصورية كهيئة السرير وشكله والفاعلة كالنجار للسرير والغائية وهـي الغايـة مـن صنع السرير وهو الجلوس ونحوه، والعلة الغائية هي المقصودة هنا [1].

خامسا: الفرق بين العلة والحكمة :

أن الحكمة غايتها محمودة وخير، وأما العلة فقد تكون خـير وتكـون شر، ولـذلك لم تثبت صفة لله أو فعل وإن كانت تطلق من باب الإخبار .

والأصوليون يفرقون بينهما :

فالعلة وصف ظاهر منضبط، أما الحكمة فوصف مناسب يتحقق في أكثر الأحوال لا كلها فهو غير منضبط وغير محدد.

ومثاله : قصر الصلاة في السفر فعله القصر السفر، وأما الحكمة من القـصر فوجـود المشقة ، فالسفر منضبط وأما المشقة فغير محدودة وغير منضبطة وقد لا توجد أصـلاً ولذلك لم يبنى الحكم على الحكمة وإنما على العلة لأنها واضحة .

سادسا:الغرض :

---

[1] الحكمة للمدخلي ص ٢١ .

هو بمعنى الهدف والقصد والحاجة، ويطلقه المعتزلة على أنه بمعنى العلـة والحكمـة، وأهل السنة ينكرونه ولا يطلقونـه في حـق الله لعـدم وروده، ولأنـه يـوهم الـنقص والحاجة غالباً[1] .

سابعا:المخالف في مسألة الحكمة:

الأشاعرة الجبرية بينما وافقت القدرية أهل السنة في إثباتها .

المسألة الثانية: الأقوال في الحكمة والتعليل :

هل يفعل الله لعلة وحكمة :

القول الأول : المنكر لها وهم الفلاسفة والأشاعرة والظاهرية:

وهم قسمان :

١- قول الفلاسفة :

قالوا الله واجب بذاته لا تقوم به صفة ولا فعل ولا اختيار ولا إرادة، فينكـرون مـن باب أولى العلة وصـفة الحكمـة، فإنكـارهم لـيس للقـدر كالاشـاعرة وإنـما لأجـل إنكارهم الصفات .

٢- قول الجبرية والأشاعرة والظاهرية:

أن الله خلق وأمر المأمورات لا لعلة ولا لداعٍ ولا باعث، بل إنه سـبحانه فعـل ذلـك لمحض المشيئة وصرف الإرادة، قال الآيجي في المواقف: " لا يجوز تعليل أفعاله بشيء من الأغراض والعلل الغائبة" .

وهؤلاء عمدة المخالفين فالأشاعرة أشهر المخالفين في مسألة الحكمة والمنكرين لها .

---

[1] منهاج السنة ١/ ٢٢٠ .

القول الثاني : المثبت للتعليل والحكمة في أفعال الله وأوامره :

وهذا مذهب أهل السنة، وهو قـول المعتزلـة والكراميـة والمرجئـة والماتريديـة والكلابية على اختلافات بينهم .

١- المعتزلة :

قالوا الله يفعل لحكمة مخلوقة منفصلة عنه غير قائمة بـه، وهـذه الحكمـة تعـود للعباد ومصالحهم ولا تعود إلى الله، وهي واجبة على الله .

كما ذكر عبد الجبار في كتابه المغني .

٢- الماتريدية :

خالفوا المعتزلة في أنها مخلوقة، ووافقوهم في رجوعها للعباد دون الله .

فقالوا هي صفة لله ولكن قديمة ليست حادثـة، وقـالوا أفعـال الله معللـة عـلى سبيل اللزوم لا الوجوب، فالحكمة لازمة لأفعال الله لا تنفك، وليست واجبـة وهي قديمة، كما ذكره عنهم التفتازاني وصدر الشريعة .

٣- ابن كلاب وأتباعه :

وافقوا في إثباتها وخالفوا المعتزلة في أنها مخلوقة وواجبة عـلى الله أو لازمـة كـما تقوله الماتريدية، بل قالوا هي قديمة قائمة بالله وليست حادثة، فـالله عنـدهم لم يزل راضيا عمن علم انه سيموت مؤمنا وقت كفره، فلا تقارن الحكمـة الفعـل

ولا تحدث أو تتجدد حتى لا تقوم به الحوادث، وهذا قول الماتريدية أيضا[1]، ووافقوا الماتريدية والمعتزلة في أن هذه الحكمة تعود للعباد ولا تعود لله .

٤- قول أهل السنة والجماعة :

قالوا أن أفعال الله معللة وتصدر منه بحكمه ولعلة، خلافا للأشاعرة والفلاسفة. وهذه الحكمة غير مخلوقة كما تقول المعتزلة، بل الحكمة قائمة به وصفة من صفاته الثباتة له والقائمة به. وهذه الحكمة ليست قديمة لا تحدث عند الفعل كما تقول الكلابية والماتريدية، بل هي قديمة النوع متجددة الآحاد كغيرها من صفات الأفعال متى شاء فعل لحكمة حادثة. وهذه الحكمة راجعة إلى العباد وهي كونها نعمة عليهم وراجعة وعائدة إلى الله بمعنى انه يحبها ويرضاها، لا كما تقول الأشاعرة والمعتزلة والماتريدية والكلابية أنها راجعة إلى مصالح العباد فقط حتى لا يكون محتاج إليها. وهذه الحكمة ليست واجبة على الله كما تقول المعتزلة. ولا يقولون بلزومها كما تقول الماتريدية بل واقعة مع الفعل لكمال علمه وتصرفه وإتقانه .

والملحوظ في خلاف المعتزلة والماتريدية والكلابية ، أنه راجع للصفات وليس للقدر، فهم مثبتون للحكمة وهذا الذي يهمنا في هذه المسألة القدرية، وإن كان إثباتهم لها ليس على ما يراد وينبغي ويليق بالله، وليس على ما هي عليه في الحقيقة وأنها ثابتة في حقه، بل تخلل إثباتهم لها إدخال عقائدهم الفاسدة عليها

---

[1] وقول الكلابية والماتريدية في أن أفعال الله قديمة لا تتجدد راجع لأصلهم الباطل في صفات الله الفعلية الاختيارية حيث ينكرونها لأنها تستلزم عندهم حصول الحوادث بالله .

والمتعلقة بالصفات، ولذلك الرد عليهم مبسوط في بـاب الأسـماء والـصفات، والخلاف مع المعطلة في الصفات معروف ولا داعي لذكره والرد عليه هنـا لأن هذه الرسالة خاصـة بالقـدر . وكـذلك خـلاف الفلاسـفة لـيس للقـدر وإنـما للصفات فـالكلام فـيهم مثـل الكـلام في المعتزلـة والمعطلـة، والـذي يهمنـا في المخالفين هم الأشاعرة لأن خلافهم نجم عن خلافهم في القدر والقول بـالجبر وهـم الوحيدون من الفرق القدرية القائلة بإنكار الحكمة والتعليل أما القدريـة المعتزلة فقالوا بإثباتها تبعا لأهل السنة .

وعلى ذلك فالأقوال الستة في الحكمة راجعة لقولين :

١- قول الأشاعرة: المنكر للحكمة والتعليل في أفعال الله .

٢- قول أهل السنة ومن تبعهم: المثبت للحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى .

المسألة الثالثة : شبهات منكري الحكمة وهم الأشاعرة الجبرية :

الأولى: أن من فعل الحكمة فهو محتاج إليها وتكون مكملة لـه، والله منـزه عـن ذلك فهو كامل من دونها وغير محتاج لها .

الثانية: أن إثبات الحكمة والعلة إما أن تكون قديمة فيلزم بقدمها قدم الفعل مع الله وهذا محال، أو حادثه وهو محال لأن فيه قيام الحوادث بالله، وفيه ترجيح بلا مرجح . وكذا إذا قلنا بأنها حدثت مع الفعل فإنه يلزم أن تكون الحكمة منتفية قبل وجود الفعل وهذا نقص .

الثالثة: أن جميع الأغراض يرجع حاصلها إلى شيئين، إما تحصيل لذة وسرور أو دفع ألم وحزن والله منزه عن ذلك وقادر على تحصيل المطلوب بدون وسائط .

الرابعة: أننا نشاهد أفعال لا حكمة فيها فما الحكمة من موت الأطفال ومرضهم ومن انتصار الكفار على المسلمين[1].

الخامسة:يستدلون على نفي الحكمة بقوله تعالى ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ الأنبياء: ٢٣.

الرد على هذه الشبهات :

أولا: الآيات التي لا حصر لها في إثبات الحكمة والعلة وسنذكرها في المسألة التالية .

ثانيا: أن في نفي الحكمة وقوع في لازم شر مما فروا منه، وهو العبث فمن يفعل بدون حكمة يسمى عابثا لاعبا والله منزه عن العبث .

ثالثا: أنه لا يلزم من فِعْل الحكمة أن يكون محتاج إليها ، بل تدل على كمال علمه ولطفه، وهذه الحاجة في البشر، أما الله فقد اثبت أنه غني، فوجب الإيمان بذلك حيث لا تعارض أصلا بينهما وإنكار احدهما مما يرده الشرع والعقل فهما يبطلان أن يكون محتاجاً أو عابثاً في فعله تعالى سبحانه وتقدّس.

رابعا: إن الحكمة صفة قائمة بالله كغيرها من الصفات، ولا يقال أن الله محتاج إلى صفاته لأنها أصلا لا تنفك عنه، فالله بعلمه وحكمته ولا يقال محتاج لعلمه وحكمته، وما أصّل هذا القول الفاسد إلا المعطلة المعتقدين أن الصفات مخلوقة أو غير قائمة به منفصلة عنه، كما يلزم الأشاعرة أن يقولوا أن الله ليس له إرادة ولا علم ولا غيرها من الصفات التي يثبتونها حتى لا يكون محتاجا لها . فكما

[1] الأربعين في أصول الدين ، والرازي ص ٢٤٩ .

يقولون أن الحكمة لا تثبت لله لأنه يستلزم أن يكون محتاجا إليها فكذلك يقال في العلم مثلا لا يثبت لله حتى لا يكون محتاجا إليه أو لأنه يستلزم أن يكون الله محتاجا إليه فوقعوا في التناقض .

خامسا: أن الحكمة مرتبطة بوقوع الفعل، وأما قبل وقوعه فليس لها تعلق ولا يقال الحكمة انتفت حتى يلزم النقص، لأن الحكمة قبل حصولها لا تعتبر كمالا وما ليس بكمال في وقت لا يعتبر عدمه نقص فيه .

سادسا: أما قولهم أن في إثبات الحكمة قدم الفعل مع الله أو حدوثها في الله:

فهذا راجع إلى مسألة الصفات وضلالة الأشاعرة فيها، حيث بنو باطلهم على باطل وهو من زخارف القول وشبهة حلول الأعراض في الأجسام التي أنكروا بها الصفات، والرد عليها في مباحث الصفات، والحق في المسألة أن الحكمة كغيرها من الصفات حادثة الآحاد والأعيان قديمة النوع والجنس ومثلها الكلام والرحمة وغيرها .

سابعا: أن قولهم في الحكمة لتحصيل لذة أو دفع ألم، هذا في المخلوق وأما الخالق فهو أجلُّ من ذلك، وتقدّم انه غني غير محتاجٍ لخلْقه يفعل بحكمة لكمال علمه ولطفه سبحانه .

ثامنا: أما دعواهم وجود أمور لا حكمة فيها :

فهذا لفرط جهلهم إذ كل أفعاله بحكمة، فخلق إبليس للكفر والشر لحكمة بالغة منها ظهور آثار صفاته ويدعى بها ويميز الخبيث من الطيب، وغيرها من الحكم التي نجهلنا ، وجهلنا بالشيء لا يدل على عدم وجوده .

تاسعا: وأما استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ : فهي لا تدل على انه لا حكمة في فعله بل عكس ذلك فلا يسأل لكمال علمه وقدرته وحكمته فلا يحتاج في أفعاله لمعقب لأنها لا نقص فيها ولا عبث .

المسألة الرابعة : الأدلة على إثبات الحكمة لله تعالى :

أولا: إجماع السلف والمسلمون عامة عدا المبتدعة على أن الله تعالى حكيم ولا يخلو فعل الحكيم من حكمة .

ثانيا:العقل وما يشهد به من إحكام الله وبديع صنعه، والمتقن لا تكون أفعاله عبثا وإنما لغاية وحكمة .

ثالثا: النصوص من القرآن وهي كثيرة جدا نذكر منها :

أ- التصريح بذكر الحكمة :

قوله تعالى ﴿ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ القمر: ٥.

ب- التعليل :

مثل قوله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ ﴾ ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فهذه اللام وكي ولعل كلها للتعليل.

فائدة : واللام هنا للتعليل وليست للعاقبة والصيرورة كما يـزعم المبطلـة وكـما تزعم الأشـاعرة، لأن لام العاقبـة لا تكـون إلا مـن جاهـل بالعاقبـة مثـل: ﴿ فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا ﴾ القصص: ٨ .

ج- ومن الأدلة : قوله: ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ المائدة: ٣٢

د- ومن الأدلة على إثبات الحكمة لله وإنكار العبث وعدم الحكمة في أفعاله كما في قولـه:﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ الدخان: ٣٨ وقولـه: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ القلم: ٣٥ وقوله: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا ﴾ المؤمنون: ١١٥ .

وغير ذلك من الأدلة الصحيحة الصريحة العقلية والنقلية عـلى إثبـات الحكمـة والتعليل وقد توسع ابن القيم في ذكرها وسردها في كتاب شفاء العليل .

فائدة : لشيخ الإسلام كلام ثمين في تفسير (إلا ليعبدون) ومعنى اللام فيها[1].

المسألة الخامسة:هل الحِكَم والعِلَل تعود إلى العباد أو إلى الرب ؟:

أهل الكلام عموما من المعتزلة والماتريدية والكلابية يقولون أن الحِكَم لا تعود إلى الله وإنما إلى العباد بل حتى الأشاعرة المنكرون لها يتفقون مع المعتزلة في أنـه يستحيل رجوعها إلى الله.

والحق أن الحكمة عند أهل السنة متضمنة لشيئين :

١)حكمة تعود إلى الله سبحانه وذلك بحبه لها ورضاه عنها .

٢)حكمة تعود إلى عباده وهي كونها نعمة عليهم يفرحون بها ويتلذذون بها[2] .

---

(١) الفتاوى ٨/ ١٨١ .

(٢) المجموع ٨-١٤٥ .

المسألة السادسة : صفة الحكمة :

هل الحكمة قائمة بالله أو مخلوقة؟ وهل هي قديمة؟ وهل هي واجبة؟

الحكمة صفة من صفات الله القائمة به وليست مخلوقة ولا منفصلة عنه.

وهي قديمة وأزلية النوع والجنس حادثة الآحاد والأعيان .

ولا يقال أنها واجبة على الله كما تقول المعتزلة، أو أن الله محتاج إليها، لأن صفات الله لا يقال الله محتاج إليها، ولا شيء من أفعاله واجب عليه.

المسألة السابعة : علاقة الحكمة بالقدر :

الحكمة مترتبة على تقدير الله وقضاءه وفعله، فالخلق وقع بحكمة الله وكذا المشيئة، فهناك ترابط بين الحكمة الثابتة التي هي صفة لله وبين الفعل من خلق وغيره، فالخلق فعل لله مرتبط به الصفة التي هي الحكمة .

وهناك ترابط بين أفعال العباد وبين إثبات الحكمة، فمن نفى حقيقة الفعل للعبد والتأثير والسبب وقال بالجبر نفي الحكمة والتعليل وهم الأشاعرة، وقد وافقوا أصولهم هنا، لأن تعذيب المؤمن وتنعيم الكافر يخالف الحكمة، والأشاعرة يجوّزون مثل ذلك وينكرون الحكمة عن أي فعل يفعله الله .

المسألة الثامنة : خلاصة المخالفات القدرية والصفاتية في الحكمة:

١) أن الله لا يفعل بحكمه وهذا هو المشهور عن الأشاعرة.

٢) أن الحكمة لا تعود إلى الله وإنما تعود للعباد وهذا قول جميع الفرق الضالة.

٣) أن الحكمة قديمة فلا تحدث الحكمة عند الفعل ولا تتجدد ولا تحصل متى شاء عند المتكلمين . وهذه مسألة متعلقة بالصفات .

٤) أن إيجاد الحكمة واجب على الله وهذا قول المعتزلة .

٥) القول بأن الله محتاج لحكمته .

٦) القول بأن حكمة الله مخلوقة وهذا قول المعتزلة في الصفات.

٧) القول بأن الحكمة بمعنى الإيجاد وهذا قول الفلاسفة .

٨) القول بأن الحكمة بمعنى الإرادة والعلم وهذا قول الأشاعرة .

٩) إطلاق الغرض على الله وجعل ذلك من صفاته وتفسير الحكمة به .

الفصل الثامن عشر

التحسين والتقبيح العقليين

المسألة الأولى : معنى المسألة :

تشمل خمس أسئلة :

هل الأفعال مثل الظلم والسرقة والكذب والإحسان لها صفة الحسن والقبح؟

هل الأفعال يعرف حسنها وقبحها بذاتها من نفس الفعل أم بصفات أخرى ؟

هل العقل يعرف حسن الأشياء والأفعال وقبحها من ذاته أم لابد من الشرع يخبر بأن هذا حسن ويأمر به وهذا قبيح فينهى عنه فبأمر الشارع يكتسب الفعل صفة الحسن وبنهيه اكتسب صفة القبح،والعقل لا يعرف ذلك الحسن والقبح ؟

وعلى القول بأن العقل يعرف الحسن والقبح في الأمور. هل يعاقب الله بمجرد العقل أم لابد من الرسل ؟

هل يجب على الله الحسن والتحسين في أوامره وأفعاله ؟

تحقيق هذه المسألة يدور حول هذه الأسئلة، وخلاف القدرية والجبرية حولها. في الأفعال وأوامر الله هل العقل يعرفها وهل لها صفة الحسن والقبح في ذاتها حتى ولو لم يأت الشرع بذلك ؟.

هذا معنى المسألة وما سنذكر الخلاف حوله والمذهب الحق فيه إن شاء الله .

المسألة الثانية : الأقوال في المسألة :

القول الأول : قول المعتزلة القدرية والماتريدية والكرامية :

قالوا أن الحسن والقبح صفتان ذاتيتان في الأشياء والأفعال، وحسن وقبح الأفعال إما بذاتها أو بصفة لازمة فيها - قولان عند المعتزلة - والحاكم بالحسن والقبح هو العقل وأما الشرع فهو مجرد كاشف ومبين لتلك الصفات . والعقل يكفي عن ورود الشرع وهو حجة يتحقق معه الثواب والعقاب. وهذا الحسن والقبح واجب على الله .

القول الثاني : قول الأشاعرة والجبرية :

لا يجب على الله شيء من جهة العقل ولا يجب على العباد شيء قبل ورود الشرع. والعقل لا يعرف حسن شيء ولا قبحه . والأفعال ليس لها صفة الحسن والقبح من العقل بل من الشرع فقط فلو أمر بالمنهي عنه كالزنا ونهي عن الصدق والبر والصلاة مثلا لما عد ذلك قبيحا بل حسنا في الشرع . فيجوز عقلا عندهم أن يأمر الله بالظلم والزنا مثلاً ويعتبر لو أمر به شيئا حسنا . والطاعة والمعصية لا تستلزم الثواب والعقاب وإنما هي أمارات عليها[1].

القول الثالث : مذهب أهل السنة :

أن الأفعال قسمان :

١- ما هو معروف المصلحة، والحكمة ظاهرة فيه إما بذاته أو صفة فيه كالصدق وتحريم الظلم فهذا العقل يحسنه ولو لم يرد الشرع .

٢- قسم لا يعرف العقل فيه ذلك، فهذا اكتسب صفة الحسن والقبح بالشرع ويصير حسناً بمجرد تحسين الشرع له، وقبل ورود الشرع لا يعرف العقل حسنه

[1] انظر شرح الجوهرة للبيجوري . وطوالع الانوار للبيضاوي والمواقف للأيجي .

وقبحه ولا عقاب قبل ورود الشرع ، وفي هذا القول الحق إجابة عن الأسئلة الخمسة[1].

المسألة الثالثة : وسطية مذهب أهل السنة :

المعتزلة ادعت أن كل الشريعة من القسم الأول والأشاعرة ادعت أن كل الشريعة والأفعال من القسم الثاني، وأهل السنة يوافقون المعتزلة ويقرونهم في القول بأن العقل يدرك الحسن والقبح في كثير من الأفعال، إلا أنهم لا يوافقونهم في استقلال العقل وعلى وجوب الفعل وحرمته بمعنى استحقاق الثواب والعقاب قبل ورود الشرع ، وأيضا يخالفونهم في إيجاب شيء على الله وستأتي هذه المسألة مستقلة .

وأما الأشاعرة فيوافقونهم على أنه لا ثواب ولا عقاب قبل ورود الشرع، ويخالفونهم في أن العقل لا يعرف حسن الأفعال وقبحها بدون الشرع، كما يخالفونهم في أن الأفعال في نفسها سواء ، وأنه لا فرق بينها بل لو عكس الشرع الأمر إلى نهي لكان حسنا .

قال شيخ الإسلام في رسالته الاحتجاج بالقدر :

" أن الحسن والقبح يطلق على ثلاث معان :

---

[1] انظر كلام ابن تيمية في مذهب أهل السنة هذا في المسألة في درء التعارض بين العقل والنقل ٨/ ٤٩٢ . واقتضاء الصراط المستقيم ٢ / ٧٧٦ . وكتاب النبوات . ورسالة الاحتجاج بالقدر في مجموع الفتاوى ج ٨ وتحقيق ابن القيم للمسألة في مفتاح دار السعادة .

الأول : على ملائمة الطبع والنفور منه، فما يلائم الطبع ويوافـق الغـرض وفيـه مصلحة فهو حسن وما يخالفه قبيح .

الثاني : كون الفعل صفة كمال أو صفة نقص كالعلم والجهل، وهذا راجع لنفس المعنى الأول وهذا القسم بنوعيه يدرك العقل حسنه وقبحه وأنهما عقليان خلافا للأشاعرة .

الثالث : كون الفعل يتعلق بالمدح والثواب والذم والعقاب . وهذا للعقل مجال فيه في الدنيا أما العقاب في الآخرة مجاله السمع وليس العقل خلافا للمعتزلة ". انتهى كلامه رحمه الله بتصرف .

تنبيه : وعلى هذه الأقوال فينقسم الناس في إثبات معرفة العقل للحسن والقبح في الأشياء إلى منكر ومثبت :

فالمثبت للتحسين العقلي هم أهل السنة والمعتزلة والماتريدية : واختلفوا هل هو تابع للشرع وهذا قول أهل السنة أو مستقل والشرع تابع وهم المعتزلة .

والمنكر لدور العقل في معرفة حسن الأفعال وقبحها وهم الاشاعرة الجبرية .

والحق مع من أثبت ولكن إثبات بلا غلو، فالعقل له مجال لا يتعـداه ولا يخـرج عن كونه مكلف تابع للشرع عرف الحكمة أو لم يعرفها، ولكن غالب الأوامر مما يعرف العقل حسنها وعلى ذلك فالخلاف دائر في هذه المسألة من ناحية الموافقة على أصل المسألة هو مع الاشاعرة الجبرية مثل المسألة السابقة (الحكمة) ولكن لا يعني ذلك موافقة المعتزلة القدرية لأهل السنة في حقيقة المسألة وأجزائها .

فائدة : التحقيق في مذهب الماتريدية في المسألة :

جرى عند الكثير أن الماتريدية على مذهب المعتزلة في المسألة مطلقا، إلا أنه عند التحقيق يتضح أنهم يوافقون المعتزلة في إثبات الحسن العقلي واستحقاق الثواب والعقاب من أجله، إلا ما تريدية بخارى فهم موافقون للأشاعرة في الحكمة وأنه لا يحرم كفر ولا يجب إيمان قبل الشرع وان العقل لا يحسن ولا يقبح، ويتفق جميع الماتريدية على عدم إيجاب شيء على الله كما توجبه المعتزلة .

وعلى هذا فيصبح الماتريدية موافقون للمعتزلة في أغلب الجوانب، ويخالفونهم في جوانب أخرى، وينقسمون في ما يخالفونهم فيه، فبعضهم مع أهل السنة وبعضهم مع الاشاعرة إلا أن جميع الماتريدية في أصل المسألة مع المعتزلة مخالفين للأشاعرة إلا قلة منهم في بعض الصور[1].

المسألة الرابعة : شبهات منكري تحسين العقل في الأفعال :

الأولى : أن العبد مجبور على فعله والمجبور لا يتصور منه الحسن والقبح في فعله لأن ما ليس بفعل اختياري لا يكون حسنا ولا قبيحا عقلا باتفاق .

الرد على هذه الشبهة : أنهم بنو دليلهم على القول بالجبر وهو باطل وتقدم الرد عليه في أفعال العباد وما بني على باطل فهو باطل .

الثانية : أن الأفعال ليس لها حسن ولا قبح في ذاتها وإنما اكتسبت الأفعال صفة الحسن من طريق الشرع بدليل الكذب لو كان قبيحا لما جاز في بعض الأوقات وربما حسن وسار واجب مثل الكذب لعصمة الدم .

---

[1] المسامرة شرح المسايرة للكمال ص ١٥٥ .

الجواب : أن تخلف القبح عن الكذب لفوات شرط أو وجود مانع لا يخرجه عن كونه قبيح مثل إباحة الميتة عند الضرورة لا يدل على عدم فسادها وقبح ذاتها فالكذب جاز للضرورة فصار حسن بناء على هذه الضرورة وليس لذاته.

ومما يردُّ على الأشاعرة أيضا أنه لو كان جانب العقل معطلاً لا يعرف الحسن فكيف نتوصل إلى تصديق الأنبياء أول بعثتهم .

المسألة الخامسة: أدلة إثبات الحسن والقبح العقلي في الأفعال:

١- أن الله أثبته في آيات :

كقوله تعالى: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ الأعراف: ١٥٧ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ الإسراء: ٣٢ وقوله: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ القلم: ٣٥ – ٣٦ ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ المائدة: ١٠٣ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ ﴾ الحج: ٤٦ ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ الطور: ٣٢ فأثبت لهم عقلا يحكم ولكنه مغالط منتكس مبطل يتعمد القبيح.

٢- أن العقل دل على حسن أمور مثل حسن الصدق والإحسان، وقبح أخرى كالكذب والخيانة والظلم وتكذيب الرسل كما دل على ذلك الفطرة وإجماع أولي الألباب .

المسألة السادسة : علاقة الحسن والقبح بالحكمة ومباحث القدر:

الحسن والقبح العقلي له ارتباط وثيق بمسألة الحكمة والتعليل خصوصا وأفعال العباد والقدر عموما، وذلك أن من أثبت الحسن والقبح العقليين قال بتعليل أفعال الله ومن نفى الحسن والقبح العقلي نفى التعليل غالبا .

قال ابن القيم رحمه الله في مفتاح دار السعادة : " وكل من تكلم في علل الشرع ومحاسنه وما تضمنه من المصالح ودرء المفاسد، فلا يمكنه ذلك إلا بتقدير الحسن والقبح العقليين ، إذ لو كان حسنه وقبحه بمجرد الأمر والنهي لم يتعرض في إثبات ذلك لغير الأمر والنهي قط " . انتهى كلامه رحمه الله .

ولذلك المعتزلة حين قدموا العقل على كل شيء وقاسوا الله بخلقه، ويوجبون ويحرمون على الله من جنس ما يحرمون ويوجبون على العباد، فهم مشبهة أفعال معطلة صفات . وهذا أدى بهم إلى القول بأن الله لا يخلق أفعال العباد ، لأنه لو كان هو الخالق لها ثم عذبهم عليها لكان ظلما لهم وهذا لا يجوز لأنه قبيح كما هو الحال بالنسبة للمخلوقين فيما بينهم .

وأما الاشاعرة فقد أدى بهم مذهبهم إلى القول بأن الطاعة والمعصية ليست بعلة الثواب والعقاب، وأدى هذا بهم إلى القول بأن أفعال العباد كسب لهم فقط وليسوا فاعلين لها في الحقيقة ومع ذلك هم مستحقون للثواب والعقاب .

وأما أهل السنة فوسط في ذلك كله كما مر سابقا .

عليه فالتحسين والتقبيح له علاقة بالتعليل وبأفعال العباد مؤثرا في القول بها غالبا[١]، وإن كانت هذه العلاقة ليست متلازمة مطلقا، لأنه قد يقول الإنسان بالقدر دون مسألة التحسين والتقبيح، فقد يخالف المخالف في القدر ويوافق في التحسين والتقبيح . وقد يخالف في مسألة التحسين العقلي ويوافق في القدر.

ولذلك قال شيخ الإسلام :" مسألة التحسين والتقبيح ليست ملازمة لمسألة القدر"[٢].

المسألة السابعة : موافقة القدرية والجبرية أصولهم في القدر في هذه المسألة :

فمن قال بالتحسين والتقبيح العقلي :

أثبت العلة في أفعال الله وأثبت أن العباد لهم قدرة واختيار ثم غلت المعتزلة في إثبات الحسن والقبح فترتب على ذلك غلوهم في إثبات أفعال العباد .

ومن قال بنفي التحسين والتقبيح العقلي وهم الاشاعرة والجبرية :

أنكروا الحكمة والتعليل وغلوا في إثبات القدر فأخروا أفعال العباد عن حقيقتها فأنكروا إرادة وقدرة حقيقية للعبد .

فائدة : الجهم خالف أصله في المسألة هذه وقال بوجوب الحسن العقلي

---

[١] هذا الذي ذكرناه من أن مسائل القدر وأفعال العباد والحكمة والتعليل مترتبة على التحسين العقلي هو الذي عليه الأكثر والذي ذكره ابن القيم في مفتاح دار السعادة . ولكن يرى البعض العكس حيث يرى أن القول بالتحسين العقلي مترتب على القول بإثبات الحكمة والتعليل وأفعال العباد .

[٢] مجموع الفتاوى ٨/ ٤٣١ .

المسألة الثامنة : الغلو في العقل وخصائصه :

أول من أوجب بالعقل قبل ورود الشرع الجهم بن صفوان وخالف لازم قوله في إنكار الحكمة والقدر، وتبعه على مذهبه المعتزلة والقدرية، وأخذوا بقوله فغلوا في جانب العقل وقالوا بأن العقل حاكم على الشرع وأنه مستقل في معرفة الحسن والقبح العقلي ، سواء ورد الشرع أو لم يرد .

والقول بالتحسين والتقبيح معروف قبل الإسلام عند بعض الديانات الهندية ممن يقدسون العقل .

المسألة التاسعة : معاني التحسين العقلي ومجالاته :

الأول : ملائمة الطبع وموافقة الغرض .

الثاني : كون الفعل صفة كمال أو نقص وهذا قريب من الأول .

الثالث : المدح والثواب والذم والعقاب .

وتقدم كلام شيخ الإسلام في ذلك .

الفصل التاسع عشر
الوجوب وفعل الأصلح

المسألة الأولى : علاقة الإيجاب بالتحسين العقلي :

هذه المسألة متفرعة عن المسألة السابقة الحسن والتقبيح العقلي .

والمسألة اشتهرت عن المعتزلة بناء على قولهم بالحسن والقبح العقلي، فأوجبوا على الله سبحانه أموراً سنذكرها على أنها من الحسن وحرموا عليه أموراً على أنها من القبح، فكل ما يوافق تحسينهم وعقولهم المريضة جعلوه واجبا على الله وهو الحكمة والعدل وما خالفه عبثا وظلما ، فقولهم في المسائل القدرية مترابط، والشبهة المؤثرة على الجميع واحدة .

أما السلف والاشاعرة والجبرية والماتريدية فمنعوا الوجوب على الله على اختلاف بينهم .

المسألة الثانية : الأقوال في المسألة :

القول الأول : قول المعتزلة القدرية :

أفرطوا في تمجيد العقل حتى أوجبوا بمقتضاه على الله تعالى أموراً وحرموا عليه أخرى، ووضعوا لله شريعة التعديل والتجوير، فوقعوا في تشبيه الخالق بالمخلوق .

القول الثاني : قول الاشاعرة الجبرية :

أخطئوا في فهم نفي الوجوب عن الله وفي حقه تعالى، فلم ينزهوه عن فعل شيء مطلقا، وجوزوا عليه تعالى أن يفعل أشياء لا تجوز في حقه سبحانه، فقالوا يجوز

أن يدخل النبي النار ويجوز أن يوجب الشرك والكفر به والسرقة والزنا وكل ما حرمه، تعالى الله عما يقولون .

وما قالوا بهذا الفهم السقيم إلا لأنهم نفوا التحسين والتقبيح العقليين، وقالوا لا يتصور الواجب في حقه لأنه المالك المتصرف ولا يسأل عما يفعل، ونسوا أنه لا يسأل لكمال حكمته .

تنبيه : حين نفت الأشاعرة القول بوجوب شيء على الله وخالفت المعتزلة، أدرجهم البعض مع أهل السنة وظن أنهم موافقون لهم مطلقا وهذا غير صحيح، فهم وإن وافقونا في القول بنفي الوجوب في حقه تعالى، إلا أنهم يفسرون الوجوب بأمور لا نوافق عليها حتى وصل بهم الأمر من نفي الوجوب إلى عدم تنزيه الله عن بعض الأفعال التي هو منزه عنها .

القول الثالث : أهل السنة :

وهم وسط بين الفرق فمنعوا أن يوجب العقل على الله شيئا ولكن لم يمنعوا أن يوجب الله على نفسه شيئا فقد كتب على نفسه أمور وحرم أمور .

مثل قوله تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ الأنعام: ٥٤ .

وقوله تعالى في الحديث القدسي: {إني حرمت الظلم على نفسي } .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم:" وحق العباد على الله أن يدخلهم الجنة".

ولا يلزم من كونه تعالى أوجب على نفسه أمور أن يكون فاعلا بالإيجاب، أي لا اختيار له لأنه سبحانه أوجب على نفسه باختياره الحسن لكمال فضله وكرمه سبحانه وتعالى .

المسألة الثالثة : مسألة في معنى الواجب :

هو ما يستحق تاركه اللوم والذم، أو أن تاركه مخلٌ بالحكمة مخالفٌ لها.

المسألة الرابعة : الأمور الخمسة التي أوجبتها المعتزلة على الله:

اللطف - رعاية الأصلح للعباد - الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية - العوض عن الآلام - عدم تكليف العباد ما لا يطيقون[1].

الأول:اللطف :

معناه فعل ما يقرب العبد للطاعة ويبعده عن المعصية بدون إلجاء، كبعثة الأنبياء فعندهم إرسال الرسل واجب على الله لأنه من باب اللطف .

الثاني:الصلاح والأصلح :

وهو رعاية وفعل الأفضل والخير للعباد وهو ضد الفساد .

واختلفوا فقالت معتزلة بغداد: يجب على الله أن يراعي الأصلح لعباده في الدنيا والدين، وقالت معتزلة البصرة: يجب عليه فعل ومراعاة الصلاح والأصلح والخير لعباده في الدين فقط دون الدنيا.

ويرد عليهم: بوجود الفقير الكافر فالصلاح له غير موجود لا في دينه ولا دنياه، وكذا المرتد بعد عمل طويل يحبط عمله وهذا ليس فيه صلاح له.

الثالث:الإثابة على الطاعة والعقاب على المعصية :

واجب أيضا على الله وهذا باطل ، فأما إثباته الطائع فبرحمة الله وكرمه ولن يدخل أحداً الجنة بمجرد عمله بل يقارنها رحمة الله، ويرد عليهم بالحديث الذي

---

[1] الحكمة للمدخلي ص١١٢ .

فيه : " لو عذب الله أهل السموات والأرض لعذبهم وهو غير ظالم لهم ".
وقوله عليه الصلاة والسلام " لن يدخل أحدكم الجنة بعمله " ، وأما العاصي الموحد فقد لا يعاقبه الله رحمة منه ويخالف المعتزلة بناءً على قولهم بإنفاذ الوعيد .

الرابع: العوض عن الآلام الواقعة على العبد :

يجب تعويضه إما في الدنيا أو الآخرة، والحقيقة أن أفعال الله واقعة بحكمة من غير إيجاب عليه شيء فألم المؤمن تكفير ورفعة، والكافرعقاب له.

الخامس: تكليف ما لا يطاق وسيأتي الكلام عليه في الفصل المقبل .

الفصل العشرون

تكليف ما لا يطاق

المسألة الأولى : علاقة هذه المسألة بالمسائل القدرية الاخرى :

هذه المسألة لها علاقة بمسألة فعل الأصلح وهل يجب على الله شيء، وقد أدخلها المعتزلة في ضمن ما يجب على الله سبحانه وتقدم.

كما أن لها علاقة بالاستطاعة:

لأن الطاقة هي الاستطاعة وسيأتي الخلاف حول تحديد المقصود بما لا يطاق مفصلا كما أوضح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في الفصل القادم (الاستطاعة).

المسألة الثانية : الأقوال في المسألة :

القول الأول : الجبرية [1]:

وليسوا على درجة واحدة فجهم وبعض الأشاعرة أجازوا التكليف بما لا يطاق مطلقا مثل الطيران والجمع بين الضدين وتكليف الأعمى أن يبصر ونحو ذلك. والجبرية المتوسطة الأشاعرة أكثرهم قالوا: لا يكلّف بالمستحيل، وأما الممكن غير الواقع مثل الطيران والمشي على البحر فهذا يمكن التكليف به، ثم يدخلون في هذا النوع تكليف الكافر الإيمان مثل تكليف أبي لهب بالإيمان مع ورود الخبر بأنه لا يؤمن .

---

[1] فصلنا القول في هذه المسألة والسابقة واللاحقة في رسالتنا أقوال الأشاعرة والماتريدية في أصول الفقه .

القول الثاني : قول القدرية المعتزلة وجمهور الماتريدية :

منعوا ولم يجوزوا تكليف ما لا يطاق مطلقا وقد منعوه لقبحه عقلا .

وعندهم لو كلف الأعمى بالإبصار والناس بالطيران والكافر بالإيمان لكن غير مطاق وصار قبيحا .

ومنشأ قولهم هذا أمران :

قولهم بالحسن والقبح، وقولهم في الاستطاعة وهو أن القدرة تكون قبل الفعل فقط حتى يتحقق التكليف ومن ثم الثواب والعقاب، ولذلك منعوا أن تكون القدرة مقارنة لمقدورها، لأن معنى ذلك أن يكون تكليف الكافر بالإيمان بما لا يطاق إذ لو أطاقه لوقع منه فلما لم يقع منه عرف أنه غير قادر عليه وتكليف ما لا يطاق قبيح ، وقولهم فاسد وما بنو عليه فاسد في قولهم بالتحسين والتقبيح وتقدم ومسألة الاستطاعة ستأتي .

القول الثالث: قول أهل السنة :

التفصيل في معنى (ما لا يطاق):

الأول : ما لا يطاق لذاته إما لاستحالته كالممتنع عادة كالطيران مثلا أو الجمع بين الضدين وهذا لم يكلف الله به ولا تكليف فيه بل ما هو أهون من ذلك لا يكلف الله به وقد خالف في هذا النوع الجبرية .

الثاني : ما لا يقدر عليه ليس لاستحالته ولا لعجز عنه، ولكن لتركه والانشغال بضده، مثل تكليف الكافر بالإيمان حال كفره، فهذا جائز التكليف به خلافا للمعتزلة، القائلين الكفر لا يريده الله ولا يخلقه ولا يخلق أفعال العباد .

والسلف لا يسمون هذا النوع ما لا يطاق ولا يجعلونه مما لا يطاق، وإن استخدموه فمن باب الرد على القدرية وهذا النوع الذي اتفق المسلمون على وقوعه في الشريعة ومكلف به ولا يقال عليه أنه لا يطاق .

المسألة الثالثة : في قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ البقرة: ٢٨٦ :

اتفقت جميع الفرق على عدم الوقوع الشرعي للتكليف بما لا يطاق .

واختلفوا في جوازه عقلا ، فمنعته المعتزلة وأجازته الأشاعرة .

وأدخل كل فريق فيما لا يطاق ما ليس منه، حيث جعلوا تكليف الكافر الإيمان مما لا يطاق .

وأهل السنة يقسمون ما لا يطاق لقسمين وتقدم قولهم .

والآية تدل على فضل الله على عباده حيث لم يكلفهم إلا ما يطيقون، بل أشياء يطيقونها ولكن فيها مشقة الله لم يكلف بها هذه الأمة تيسيرا للشريعة وسماحة فيها.

الفصل الحادي والعشرون

الاستطاعة في العبد

المسألة الأولى : علاقة المسألة بالقدر :

الاستطاعة متعلقة بأفعال العباد وقد جعلها الله مناط التكليف .

وهي أيضا متعلقة بالقدر ومراتبه من ناحية الخلق والمشيئة والهداية .

المسألة الثانية :

الخلاف في المسألة يندرج تحت الخلاف في مسائل القدر، فالخلاف فيها واقع بين القدرية والجبرية كل على أصوله .

المسألة الثالثة : تعريف الاستطاعة :

هي بمعنى القدرة والوسع والطاقة وكلها معاني متقاربة .

اصطلاحا : عبارة عن صفة يتمكن بها الحي من الفعل أو الترك .

المسألة الرابعة : علاقتها بالمسائل القدرية :

هذه المسألة أثرت في الخلاف في مسائل مثل الظلم والتكليف بما لا يطاق.

المسألة الخامسة : خلافات فرعية للمعتزلة :

يوجد مسائل كلامية يذكرها المعتزلة في الاستطاعة واختلافات كثيرة بينهم، لا داعي لذكرها لعدم الفائدة من ذلك، وقد ذكرها الأشعري في مقالات الإسلاميين .

المسألة السادسة : أقسام الاستطاعة:

تنقسم إلى استطاعة شرعية واستطاعة كونية:

الاستطاعة الأولى : القدرة الشرعية التكليفية :

وهي المصححة للفعل، والتي هي مناط التكليف والأمر والنهي، وبها يتعلق الخطاب التكليفي، وهي سلامة الآلات والجوارح والصحة وارتفاع الموانع، وهي ضد العجز، وهي المقصودة في قوله:﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ آل عمران: ٩٧، ووقتها قبل الفعل ، ولا يجب أن تقارن الفعل – ونقصد بالفعل فعل العبد كالصلاة مثلا – فقد توجد ولا يوجد معها الفعل وهذا معنى كونها صالحة للضدين الفعل والترك ، ومثال ذلك الإنسان قد يكون قادرا صحيحا أي مستطيع شرعا غير عاجز، فاستطاعته هذه مصححة للفعل، أي لا يصح الفعل إلا بها ولكن غير موجبه للفعل فقد يوجد الفعل، وقد يوجد ضده وهو الترك فقد يصلي الإنسان وقد لا يصلي مع أنه قادر غير عاجز، وقد خاطبنا الله وكلفنا إذا وجدت هذه الاستطاعة بالأوامر والتكاليف من حج وصيام وصلاة. وخالفت في هذا الاستطاعة الجبرية .

القسم الثاني : الاستطاعة القدرية الكونية :

وهي الموجبة للفعل والتي هي مناط القضاء والقدر والتوفيق والهداية . فهي بمعنى الإعانة والتوفيق والهداية فهي من جنس واحد، وهي القوة التي ترد من الله تعالى على العبد، فلا يملكها العبد وليست من صفاته وإنما من صفات الله وخصائصه، فهو سبحانه الهادي والموفق والمعين، وهذه الاستطاعة شرط

لوجود الفعل المكلف به ووجوبه وتحققه، فإذا وجدت وجد الفعل وإذا انتفت انتفى الفعل ولم يوجد، بعكس الاستطاعة الشرعية الصالحة للضدين - فمن لم يوفقه الله ويهديه لن يصلي ومن وفقه سيصلي ، فلا يوجد ولا يمكن أن يوفق الله العبد ثم لا يصلي أو يصلي من دون توفيق من الله - فهي خاصة بالموفق وليست عامة كالأولى وقد ذكرت هذه الاستطاعة في مثل قوله : ﴿ وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ الكهف: ١٠١ ﴿ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴾ هود: ٢٠.

وهذه الاستطاعة خالف فيها القدرية حيث أنكروها .

المسألة السابعة : الأقوال في مسألة الاستطاعة[1]:

القول الأول : قول غلاة الجبرية والجهمية :

ليس للعبد أي استطاعة لا قبل الفعل ولا معه، وإنما له قدره شكليه غير مؤثرة في الفعل أصلا وتسمى فعلا للعبد تجوزا وهذا مبني على أصلهم الفاسد ، أن العبد ليس له اختيار ولا فعل بل مخلوق مجبور .

القول الثاني : قول الأشاعرة الجبرية القائلين بالكسب :

قالوا الاستطاعة لا تكون إلا مع الفعل لا يجوز أن تتقدم الفعل ولا أن تتأخر عنه بل تقارنه وتصاحبه وهي من الله، وما يفعله الإنسان بها فهو كسب له وهو القدرة المقارنة بلا تأثير، كما تقدم قولهم في أفعال العباد، ظنا منهم أنها نوع واحد، وهي الاستطاعة القدرية وأنكروا الاستطاعة الأخرى وهي الشرعية

---

[1] انظر شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ٦٣٣ . والقضاء والقدر ص ٢٦٥ .

والتي تحصل بقدرة العبد وتأثيره في الفعل، وإنكارهم لهذا النوع من الاستطاعة وهي الشرعية راجع لقولهم في القدر وأفعال العباد .

ودليلهم : أن القدرة لا تصلح للضدين الفعل والترك فإن القدرة المقارنة للفعل لا تصلح إلا لذلك الفعل وهي مستلزمة له لا توجد بدونه .

القول الثالث : مذهب المعتزلة القدرية :

قالوا الاستطاعة قبل الفعل لا معه ، وهي قدرة على الفعل وعلى غيره وضده كالإيمان والكفر وهي غير موجبة للفعل ، والله تعالى قد مكن العباد منها، والناس فيها سواء المسلم والكافر لا فرق بين استطاعتهما.

ودليلهم وشبهتهم مبني على اعتقادهم الضال في القدر وهو أن الله لو كان له تأثير في أفعال العباد وقدرتهم وتخصيص بعضهم بمزيد استطاعة ونوع قدرة لكان ظالما للمحروم والله منزهٌ عن الظلم .

القول الرابع : أهل السنة ووافقتهم الماتريدية :

قالوا : الاستطاعة قسمان :

الأولى : الاستطاعة الشرعية :

وهي استطاعة من جهة التمكين والصحة وسلامة الآلات وهي المصححة للفعل وتكون قبل الفعل إلى حين الفعل ، إما بنفسها أو بتجددها ، عند من يقول الأعراض لا تبقى زمانين وهم الماتريدية[1]. وهذه الاستطاعة مناط

---

[1] هذه المسألة كلامية بدعية لا دليل عليها لا من نقل ولا عقل وهي من ضلالات المعطلة التي أنكروا بها الصفات والصحيح ان الأعراض تبقي زمانين وقد تركت بحث مسألة الاستطاعة هل هي عرض وهل تبقى زمانين .

التكليف وبها يتحقق الخطاب والتكليف والأمر والنهي، وهذه ضـدها العجـز المعذور صاحبه، وهي صالحة للضدين.

وهذه الاستطاعة اكتفى القدرية بإثباتها واعتمدوا عليها ولم يثبتوا غيرها .

بينما أنكرتها الجبرية الأشاعرة واحتاروا في فهم نصوصها، وهذا مثـل مـوقفهم من الإرادة الشرعية .

ولهذه الاستطاعة أدلة من القرآن منها :

كالاستطاعة في الحج بقوله تعالى:﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ وقولـه: ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ والقيـام في الـصلاة مـع القـدرة فالاستطاعة هنا بمعنى الصحة والسلامة .

القسم الثاني : الاستطاعة القدرية الكونية :

وهي بمعنى القدرة، وهي من جنس الإعانة والتوفيق من الله ، وهي التي يجب معها الفعل، وهي تكون مقارنة وموجبة للفعل، وهي استطاعة باطنة من نحو التوفيق والإعانة من الله الذي لا يوصف به المخلوق وإنما يوصف بـه الله وهـو الموفق المعين سبحانه، وهي ليست عامة لكل البشر والناس وإنما للبعض وهـم الذين وفقهم الله من المؤمنين، وهي الاستطاعة الكونية التي هي مناط القـضاء والقدر والهداية والتوفيق ، كما أن الأولى هي مناط التكليف والأمر والنهي .

وهذه الاستطاعة الكونية هي التي أثبتها الاشاعرة الجبرية دون غيرها.

بينما أنكرها المعتزلة القدرية كإنكارهم الإرادة الكونية .

ولهذه الاستطاعة أدلة من العقل والنقل :

فمــن ذلــك قولــه تعــالى : ﴿ وَكَانُوا۟ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴾ الكهف: ١٠١ قولــه :﴿ مَا كَانُوا۟ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبۡصِرُونَ ﴾ هود: ٢٠، سماع استجابة لا سمع آلة، فلم يستطيعوا لأن الله لم يوفقهم ويعينهم لا لعدم وجود آذان وآلة السمع.

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ﴾ الكهف: ٦٧ أي حقيقة الصبر لا أسبابه، ولا يلام من فقد الأسباب والآلات .

ودليلها من العقل :

أن الإنسان قد يعزم على الفعل والطاعة وتسلم الآلات ويملك الاستطاعة الشرعية ولكن لا يتم الفعل لعدم إعانة الله له وهذه هي الاستطاعة الكونية والتي خالف فيها القدرية كما خالفوا في الإرادة الكوني وخالفوا في الهداية والتوفيق من الله وقد سبق مذهبهم في التوفيق والهداية وظنوا في هذه الاستطاعة والتوفيق ظلم لبعض العباد من الله[1].

وبهذا القول الوسط الجامع للأدلة والموافق للنقل والعقل تنجلي المسألة ويتضح بطلان قول القدرية والجبرية من معتزلة وأشعرية.

المسألة الثامنة : الرد على الفرق الضالة :

أولا : الرد على الجبرية:

تقدم قول الأشاعرة ودليلهم وشبهتهم ويرد عليهم بالآيات التي تذكر الاستطاعة الشرعية والتي تنسب إلى العبد مثل قوله تعالى:﴿ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ ﴾

---

[1] مجموع الفتاوى٨/ ٢٨٩ .

وقوله: ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ ﴾ وغيرها من الأدلة التي تثبت استطاعة متعلقة بفعل العبد ومترتب عليها التكليف .

وهذه الاستطاعة تكون قبل الفعل إلى حينه، وهي القدرة والسلامة، وتصلح للفعل والترك، فكل إنسان أعطاه الله القدرة والصحة يستطيع الصيام شرعا ولكن قد يفعل وقد يترك، وهذا راجع إلى توفيق الله وهي الاستطاعة القدرية . ولا تنافي بين الاستطاعتين واحدة شرعية من العبد والأخرى من الله وبهذا يتبين فساد قول الجبرية المنكرين الاستطاعة الشرعية التي قبل الفعل والتي تحصل من العبد بسلامته وقدرته إضافة إلى ما تقدم في الرد عليهم في باب أفعال العباد .

ثانيا : الرد على القدرية :

تقدم قولهم في الاستطاعة وأنها قبل الفعل ولا تكون معه، وأن الله مكَّن الإنسان منها المسلم والكافر وهم في الإعانة فيها سواء مسلمهم وكافرهم، وهذه الاستطاعة لا توجب الفعل بل الإنسان يوجب فعل نفسه، وكذلك هي لا ترجح الفعل من الترك وإنما الإنسان هو الذي يرجح وهذا مبني على انه لو خص المؤمن بمزيد استطاعة أو هداية وتوفيق لكان ظلم من الله للكافر وتفضيل بدون سبب فهم ينكرون الاستطاعة الكونية .

ويرد عيهم :

أولاً: بالنصوص الشرعية التي تثبت الاستطاعة الكونية والتي تقارن الفعل ويحصل فيها التفاضل بين البشر بمثل قوله تعالى:﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴾ وقوله:﴿مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ ﴾ وغيرها من الأدلة التي تثبت مقارنة

الاستطاعة للفعل وإيجابها له، فسبب عـدم الـسمع والكفـر والإعـراض عـدم الاستطاعة ، وأيضا فالعبد قد يكون قادرا مستطيع ولا يفعل لعدم التوفيق.

ثانيا: في قولهم أن الإنسان يرجح من نفسه دون مـرجح مـن الاسـتطاعة التـي يهبها الله من يشاء يقال ما معنى هذا الترجيح الذي من العبد للفعـل أو الـترك هل هو زائد عن مجرد الفعل فهذا الذي يثبته أهل السنة والوارد في الآية وهـذا الترجيح منّة من الله وفضل، وليس من العبد سـوى العمـل والترجـيح الـذي رجّحه العبد بتوفيق الله، وإلا فلماذا لم يعط الكافر ترجيح مثل المـؤمن واكتفـى بإعطائه السلامة في الآلات والصحة .

وان لم يكن له معنى زائد كان حال الفاعل قبل وجود الفعل كحاله عند الفعـل وهذا تناقض يقعون فيه وذلك أن القدرة والإعانة هل تكون للتـارك أيـضا أو مجرد للفاعل ووقت الفعل ؟

فإن قالوا تكون للتارك أيضا قلنا هذا باطل، لأن القدرة التـي تخـص الفعـل لا تكون للتارك دون الفاعل ولذلك قدموها عن الفعل ولم يقرنوها معه ، وهذا في الحقيقة باطل قطعا لأن وجود الأمر مع عدم بعـض شروطـه الوجوديـة ممتنـع فلابد من توفر جميع الأمور التي يتوقف عليهـا الفعـل مـن الأمـور الوجوديـة وتكون موجودة عند الفعل فبطل قولهم القدرة قبل الفعل لا معه .

وإن قالوا لا تكون للتارك صار هذا تمييز من الله وإعانة .

وبهذا تناقض أصلان عندهم :

١- وجود القدرة في الفعل قبل حصوله وهذا تخيّل لا حقيقة له .

٢- وقوعه معه وهذا إعانة وتوفيق ولابد أن تكون للتارك.

فالثاني أنكروه وهو ثابت شرعا والأول أقروه وهو باطل عقلا[1].

ثالثا : وأما قولهم بالظلم في ذلك :

فما قالوا بوجود الظلم إلا لسبق التعارض في نفوسهم بين الأمر بالشرع وبين القدر فأنكروا القدر حتى لا يقع الظلم وهماً منهم، وهذه مسألة آتية .

رابعا : هذه المسألة مبينة على خلافهم في مسألة خلق أفعال العباد التي ينكرون أن يكون الله خلقها وتقدمت المسألة والرد عليها وكذلك في الهداية والتوفيق .

المسألة التاسعة : هل يقدر الإنسان ويستطيع على ما لم يقدره الله عليه ولم يفعله :

الجواب أن يقال الاستطاعة قسمان :

فإن كان المقصود الاستطاعة الشرعية :

وهي التي قبل الفعل والتي بمعنى سلامة الآلات ، فهذه يقدر عليها ويستطيع.

وإن كان المقصود الاستطاعة التوفيقية القدرية :

وهي التي مع الفعل فهذه لا يستطيعها لأنه لم يفعل ما أراد الله منه .

أما قبل وقوع القدر فإن الإنسان يستطيع الاستطاعة التي قبل الفعل إذا وجدت القدرة والإرادة للفعل والطاقة، وأما الثانية القدرية المقارنة للفعل فلا يعرف حقيقتها وأن العبد استطاعها إلا بعد الفعل وهي بمعنى التوفيق والإعانة من الله [2].

---

[1] ملخص هذا الرد من درء التعارض ١/ ٣٠ . مجموع الفتاوى ٨/ ٤٣٧ .

[2] مجموع الفتاوى ٨/ ٤٣٧ .

الخلاصة :

ومما سبق من عرض ورد يتبين بطلان مذهب القدرية والجبرية، وتوسط وصحة مذهب أهل السنة، وأن الفعل لا يتم إلا بالاستطاعة وهذه الاستطاعة تشمل استطاعتين لا تكفي إحداهما عن الأخرى.

الأولى الشرعية:

قبل الفعل وهي بمعنى الصحة وسلامة الآلات والقدرة في العقل والبدن.

والثانية القدرية الكونية :

وهي من النوع الباطن وهي بمعنى الإعانة والتوفيق وهي من الله لا من العبد .

المسألة العاشرة : موقف الفرق القدرية من أقسام الاستطاعة :

١- أهل السنة: يثبتون الاستطاعة الشرعية والاستطاعة الكونية القدرية.

٢- القدرية المعتزلة: تثبت الاستطاعة الشرعية وتنكر الاستطاعة الكونية.

٣- الجبرية الاشاعرة: تثبت الاستطاعة الكونية وتنكر الشرعية.

فائدة:

الاستطاعة الشرعية والإرادة الشرعية وهداية الدلالة والأسباب من جنس واحد، من باب الشرع الظاهر.

والاستطاعة القدرية والإرادة القدرية وهداية التوفيق جنس آخر، من باب القدر الباطن.

المسألة الحادية عشر: الفرق بين الاستطاعة القدرية والشرعية :

الفـــرق	الاستطاعة القدرية	الاستطاعة الشرعية
الأول	تسمى كونية قدرية خلقية	تسمى شرعية أمرية دينية
الثاني	من الله تعالى خاصة به	تكون من العبد وصفة من صفاته
الثالث	باطنة غير معلومة	ظاهرة
الرابع	بمعنى التوفيق والإعانة	بمعنى الصحة وسلامة الجوارح
الخامس	ضدها الخذلان	ضدها العجز وعدم القدرة البدنية
السادس	موجبة للفعل	مصححة للفعل
السابع	لا تصلح للضدين	صالحة للضدين الفعل والترك
الثامن	إذا وجدت وجد الفعل	لا يتوقف وجود الفعل عليها
التاسع	مناطها القضاء والقدر	مناطها التكليف والشرع والأمر
العاشر	مقارنة ومصاحبة للفعل	متقدمة على الفعل إلى حينه
الحادي عشر	خاصة بالمؤمنين	عامة لكل المكلفين المسلم والكافر
الثاني عشر	**يثبتها الجبرية وينكرها القدرية**	**يثبتها القدرية وينكرها الجبرية**

المسألة الثانية عشر : الاستطاعة شاملة للأصلية العرفية والشرعية التكليفية :

الاستطاعة الشرعية تشمل :

الاستطاعة الأصلية العرفية والاستطاعة الشرعية التكليفية :

مثال : قد يستطيع الإنسان المريض أصلا وعرفا القيام ولكن مع المشقة، فلا يسمى شرعا وتكليفا مستطيعا، مع أنه في الأصل والحقيقة قادر على القيام مستطيع وهذا من رحمة الله بالعباد، لم يكلفهم إلا ما يستطيعون وفي وسعهم ولا مشقة لهم فيه، فالمعاق المشلول منتفي عنه الاستطاعة الأصلية العرفية، والمريض الذي يشق عليه القيام منتفي عنه الاستطاعة الشرعية .

المسألة الثالثة عشر : علاقة المشقة بالاستطاعة :

قد يأمر الله بما فيه مشقة لحكمة وابتلاء واختبار، ولكن العبد يستطيع فعلها وهذه الأمة خفف عنها كثيرا رحمة من الله ، ومن أمثلة ذلك :

١- أمر بني إسرائيل أن يقتل بعضهم بعضا فهذا فيه مشقة بالغة .

٢- نهي من سار مع طالوت عن الشرب من ماء النهر مع شدة المشقة في ذلك.

٣- الصبر على الجهاد وإن كان لا يصل إلى ما سبق .

٤- النار التي يعرضها الله على من يمتحنون من أهل الفترة ويأمرهم بدخولها يوم القيامة مع انتقاء صفة الإحراق والتعذيب فيها والله اعلم وهذه مشقة مقدور عليها فتأمل .

الفصل الثاني والعشرون

الظلم

المسألة الأولى : منشأ المسألة:

الظلم مبني على مسألة التحسين والتقبيح .

المسألة الثانية :آثار المسألة :

من آثار الخلاف في هذه المسألة وثمراتها مسألة أفعال العباد والتوفيق والهداية عند المعتزلة ، حيث أنكرت المعتزلة التوفيق وخلق أفعال العباد من الله لأن في ذلك ظلم كما يزعمون .

المسألة الثالثة : تحرير محل النزاع :

اتفقت الفرق مع أهل السنة على أن الله لا يظلم ولكن اختلفوا في معنى الظلم وحقيقته وتعريفه .

المسألة الرابعة : حقيقة الظلم :

الظلم له حقيقة والله قادر عليه ولكن لا يفعله وليس ممتنعا عنه كما تقوله الجبرية .

المسألة الخامسة : موافقة الفرق لأصولها :

قول الأشاعرة الجبرية والمعتزلة القدرية في الظلم موافق لأصولهم التي هم عليها والخلاف فيه مع الطائفتين .

المسألة السادسة : الأقوال في المسألة :

القول الأول : الجبرية من الجهمية والاشاعرة :

عرفوا الظلم تبعا لأصلهم الفاسد ومذهبهم في القدر، فقالوا : الظلم هو تصرف في ملك الغير بغير إذنه، أو هو مخالفة الآمر الذي تجب طاعته[1].

وكليهما في حق الله ممتنع وغير متصور لأن كل شيء ملك لله ، فإذا تصرف الله في ملكه فلا يكون ظالماً، ولا يوجد آمراً لله حتى تجب على الله طاعته ، فالأمر كله لله سبحانه وتعالى ، عليه فالظلم محال بل وممتنع فهو لا حقيقة له .

وقالوا لو عذب الله رسله وأولياءه ونَعّم الكفّار لم يكن ذلك ظلما بل لكان عدلا لأنه لا حقيقة للظلم .

أدلتهم :

قوله تعالى : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ الأنبياء: ٢٣ .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم " .

القول الثاني : القدرية المعتزلة[2]:

قالوا : الظلم مقدور لله ولكن الله منزه عنه وهذا حق، ولكن فهموا الظلم وفسروه بناء على مذهبهم الفاسد في القدر القاضي بإخراج أفعال العباد أن

---

[1] انظر تعريف الاشاعرة للظلم في المواقف للأيجي وابن المنير في الانتصاف على الكشاف وغيرها.

[2] تسمي المعتزلة نفسها بالعدلية لأجل هذه المسألة وهي انكار الظلم ونفيه عن الله وإثبات العدل له وهذا احد أصولهم الخمس وهو العدل .

تكون من مخلوقات الله ، فالظلم عندهم : أن يقّدر الله ويخلق فعل العبد ثم يجازيه به، فكيف يقدر الله على العبد الفعل ويعاقبه عليه فهذا ظلم ، وكيف يوفق الله ويهدي ويعين المؤمن ويترك العاصي والكافر هذا ظلم، عليه فأفعال العباد هم الخالقون لها والله لم يخلق شيئاً منها حتى لا يكون ظالما لهم، يخلقها ويعاقبهم عليها وكذلك الناس في الهداية سواء. فعدل الله يقتضي أن لا يريد وجود شيء من الذنوب والكفر ولا يخلق أفعالهم ولا يوفق ويهدي البعض دون البعض فيثيب من وفقه ويعاقب من أضله ، بل عليه أن يبين للجميع ويدلهم ويعينهم، وعدل الله انه إذا أمرهم بأمر أن يعينهم عليه ويهديهم ويوفقهم ولا يريد معصيتهم هذا العدل عندهم.

القول الثالث : مذهب أهل السنة :

عرفوا الظلم بأنه وضع الشيء في غير موضعه ، وهو قادر عليه ولكن لا يقع منه لكمال عدله ، واستدلوا بالنصوص الدالة على نفي الظلم عن نفسه سبحانه وتوجيه عباده إلى حرمته عليه، وطمأنهم حتى لا يخافوا الظلم منه سبحانه وتعالى ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ طه: ١١٢ وهذه الآية من أعظم الأدلة وأصرحها في توضيح المسألة وتأييد مذهب أهل السنة، وقد فسر السلف الظلم هنا بمثل أن يتحمل سيئات غيره والهضم بمثل نقص حسناته بدون سبب يستحقه العبد، فإذا عمل الإنسان وآمن فلا يخاف من الله أن يظلمه أو يهضم حسناته عدلا منه سبحانه وتعالى وكمالا لرحمته وحكمته .

ومن الأدلة ما أخرجه الإمام مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل أنه قال : " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا " .

وهذا يدل على أن للظلم حقيقة وجودية ومفهوم وأن الله قادر عليه ولكن لا يفعله لكمال عدله سبحانه وتعالى .

المسألة السابعة : الرد على المخالفين :

الرد على الأشاعرة: المنكرين لحقيقة الظلم وأنه ممتنع لأنه تصرف في ملك الغير :

أولا: أن هذا التعريف الذي عرفوا به الظلم لا يعرف عن أحدٍ من السلف ولم ينقلوه عن أحد من أهل اللغة، فاللغة ضدهم والسلف على غير فهمهم فهو في اللغة وعند السلف وضع الشيء في غير موضعه .

ثانيا: أن الله حرم الظلم على نفسه والممتنع لا يوصف بالتحريم، وإنما الذي يوصف بالتحريم ويمكن تحريمه الممكن، فلا يقول الإنسان حرمت على نفسي الطيران ولكن يقول حرمت على نفسي المشي مثلا، فلم يحرم الله على نفسه إلا ما هو ممكن وشيء يقدر عليه لا ما هو ممتنع لأن الممتنع لا يمكن أن ينفيه ويحرمه على نفسه .

ثالثا: أن الكمال لا يتحقق فيما قالته الاشاعرة، فلا يستحق أحد الثناء في شيء ممتنع عنه بخلاف الممكن، فكيف استحق الرب سبحانه وتعالى الثناء والحمد والمدح والكمال في تحريم الظلم وكمال عدله، إلا لأنه يقدر عليه ولو كان ممتنع

غير قادر عليه لما كان في ذلك كمال ومدح له سبحانه، فعلم بذلك أن الظلم وضع الشيء في غير موضعه وليس التصرف في ملك الغير .

رابعا: أن التصرف في ملك الغير قد لا يكون ظلما بل عدلا، وهذه نظائره في الشرع والعرف كثيرة مثل مال اليتيم وتنمية مال الغائب، والعكس فقد يكون التصرف في ملك النفس ظلماً، مثل الإسراف في الملك ومال النفس والنهي عنه وغيره ، وبهذا يتبين بطلان تعريف الظلم بأنه التصرف في ملك الغير .

خامسا: أن ما قالوه مبني على أصلهم الفاسد في القدر وقولهم بالجبر وأنه لا يكون إلا ما يريده الله ولا إرادة حقيقيه ومؤثرة للعباد، وهذا معلوم بطلانه وفساد ما يبنى عليه وتقدم الرد عليهم في هذا الباب .

سادسا: أما الأدلة التي استدلوا بها فلا دليل فيها على ما قالوه :

فقوله تعالى : ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ فهو لا يسأل لكمال عدله وحكمه، وليس المعنى أنه لا يسأل لأن كل شيء في ملكه فهذا لم يفهمه أحد إلا الجبرية وأي معنى في الآية يدل على جواز تعذيب المطيع ونقص حسناته وتحميله سيئات غيره . فلا يسأل الله لأنه كامل في حكمه وحكمته سبحانه .

وأما حديث " إن الله لو عذب .... " فهذا يدل على أنه غير ظالم لو عذبهم إما لاستحقاقهم العذاب لارتكاب ذنب أو تقصير في شكر نعمه ، وليس تعذيب بدون سبب فالله غير ظالم لعباده سبحانه وبحمده .

الرد على المعتزلة القدرية :

وهم الذين أصابوا في تعريف الظلم وأخطئوا في حقيقته ، فزعموا أن الظلم في أن يكون الله خالق أفعال العباد فأفعالهم ليست مخلوقة حتى لا يكون ظالم .

أولا: أن هذا القول راجع لفهمهم السقيم لمعنى الخلق والفعل والإرادة والأمر والقدر والظلم، فأي ظلم في كونه يخلق أفعالهم وقد جعل لهم إرادة حقيقية ويعاقبهم ويجزيهم مقابل هذه الإرادة لا مقابل ما خلقه سبحانه، فالله أعطى الإنسان إرادة يختار بها وعقل وقدرة وهي لا تخرج عن أن تكون قد خلقها الله وأرادها قدرا، لكمال علمه وخلقه، ولم يفهم من هذا المعنى وقوع الظلم إلا القدرية خصوم الرحمن في أفعاله سبحانه .

ثانيا: وقد رد عليهم شيخ الإسلام، وأرجع قولهم هذا إلى عدم تفريقهم بين الخلق الذي هو صفة لله وبين الفعل الذي هو من البشر، وبين الفعل والمفعول[1]، فالسرقة نسبتها للعبد المخلوق أنها فعله، وتنسب السرقة إلى الله نسبة خلق لا فعل، فالله خلق السارق وسرقته والدليل قوله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فالإنسان وفعله وإرادته من مخلوقات الله، وأفعال العباد بإرادتهم تابعة لخلق الله والفرق بين الخلق والفعل واضح .

ثالثا: الرد عليهم في مسألة أفعال العباد تقدمت فلا تحتاج لإعادة.

---

[1] القضاء والقدرة . المحمود ص ٢٨٩ .

المسألة الثامنة : الجواب عن حديث ابن عباس :

الجواب عن حديث ابن عباس عن النبي ﷺ : " ان الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم " رواه أبوا داود وصححه الالباني .

وقد أنكرته القدرية وتعلقت به الجبرية ، وقد أجاب أهل العلم عن هذا الحديث بأجوبة منها :

الجواب الأول :

أن معنى الحديث لو عذب الله أهل السماء والأرض لكان تعذيبه لهم على ذنب يستحقونه، وليس على غير ذنب فمن يسلم من ذنب، كيف وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر بدعاء فيه " اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا " فكيف بغيره ومن بعده، فمن يسلم من ذنب، ومن الذي يدعي أنه يستحق الجنة والنعم بمجرد عمله إذا لم يرحمه الله .

الجواب الثاني:

أن نعم الله أكثر وأجل، فمن الذي يستحق هذه النعم من المخلوقات ومن يدعي أن أعماله تكافئ نعم الله وتساويها، فعبادة الإنسان لا تقدر بنعمة البصر كما في الحديث[1] .

---

[1] مجموع الفتاوى (١٨/ ١٤٣) شرح الطحاوية ص ٢٦٢ .

المسألة التاسعة : العدل على أصول الفرق القدرية :

الجبرية: كل ممكن في حق الله فهو عدل والظلم ممتنع لأنه تصرف في ملك الغير .

القدرية: أنكرت عموم قدرة الله ومشيئته على أفعال العباد وهدايتهم وإضلالهم وأن ذلك كله لهم .

ومن العدل عندهم معاقبة الفسقة وإدخالهم النار، وهذا على أصلهم الخارجي وجوب إنفاذ الوعيد ومحل رده مباحث الإيمان وله تعلق بمبحثي الظلم والتحسين والتقبيح وفعل الأصلح في أبواب القدر .

المسألة العاشرة : حديث جامع فيه رد على القدرية والجبرية [1]:

فائدة : تأمل قول النبي ﷺ : " ماضٍ فيّ حكمك عدل في قضاؤك " .

فإن فيه رد على الطائفتين:

فإن العدل الذي أثبتته القدرية منافٍ للتوحيد .

فترد عليهم جملة (ماضٍ فيّ حكمك) لأنهم عطلوا الله عن قدرته وحكمه.

والعدل الذي أثبتته الجبرية منافٍ للحكمة والرحمة ولحقيقة العدل .

فترد عليهم جملة (عدل في قضاؤك) .

المسألة الحادية عشر : فائدة : عدل الله يشمل أمرين :

١- طمأنينة للمؤمن بأن لا يخاف ظلماً ولا هضما .

٢- تهديد للكافر وأن مصيرهم إليه ولا يفوته أمر من خلقه .

---

[1] شفاء العليل ص ١٧٤ ، ٢١٧ .

الفصل الثالث والعشرون

الأسباب والمسببات في القدر

المسألة الأولى : علاقة الأسباب بمسائل القدر :

الأسباب لها علاقة بالقدر ووقع الخلاف فيها مع الجبرية الغالين في إنكارها والقدرية الغالين في إثباتها كلٌّ على مذهبه .

المسألة الثانية : منشأ الخلاف في الأسباب :

سبب الخلاف هل إثبات الأسباب ينافي القدر وكونها من خلق الله كما تزعمه الجبرية، وهل إرجاعها إلى خلق الله فيه تناقض أو ظلم أو إنكار لأفعال العباد كما تزعمه القدرية .

المسألة الثالثة : الأقوال في المسألة :

القول الاول : مذهب الجبرية والأشاعرة :

المنكرين لحقيقة الأسباب وتأثيرها ويجعلون هذا الإنكار من التوحيد، وإثبات تأثير الأسباب عندهم كفر وشرك[1].

ويقولون:الأسباب مجرد علامات يحصل الشيء عندها لا بها وسبب قولهم هذا : أنهم ظنوا أن في إثبات الأسباب قدح في القدر ومرتبة الخلق، فلو كانت الأسباب مؤثرة في المسببات لكانت هي الموجِدة بذاتها، وبالتالي خرجت عن إيجاد الله وخلقه وإرادته، وعليه صار هناك موجودات لها خالق غير الله، ومن

[1] انظر أم البراهين للسنوسي . مع شرح البيجوري وغيره عليها .

أجل ذلك أنكروا حقيقة تأثير الأسباب، تماشيا مع مذهبهم في القدر والقول بالجبر، وسلبوا العبد من الإرادة وأن يكون مؤثراً في أفعاله إيجاداً وعدماً وغلوا في إثبات القدر حتى أنكروا الأسباب وأفعال العباد .

فخالفوا بمذهبهم هذا العقل والشرع، وأنكروا ما خلقه الله من القوى والقدرة المؤثرة في الأفعال، وجعلوا كل ذلك لله دون أي تأثير للعبد، ويجعلون علاقة أفعال العباد بإرادتهم وقدرتهم والأسباب بالمسببات من باب اقتران الدليل بالمدلول، وعلاقة الشرط بالمشروط، وليس السبب بالمسبب ومن أمثلتهم :

قولهم الحجر إذا ضرب الزجاج انكسر الزجاج عند وصول الحجر إلى الزجاج، لا أنه انكسر بالحجر بل الله الذي كسر الزجاج، فينكرون أن يكون للحجر أي سبب وتأثير في الكسر. فالحجر لم يكسر الزجاج في الحقيقة وإنما الله الذي كسره، وجعل الله الكسر عند التقاء الحجر بالزجاج واقترانه به فيصير الحجر علامة وليس سبب .

وكذلك النار لا تحرق الخشب المحروق، بل المحرق هو الله، والإحراق وقع عند وجود النار لا بها .

وبهذا يتبين أن الجبرية في مسألة الأسباب موافقون لأصولهم الفاسدة في القدر .

القول الثاني : مذهب القدرية المعتزلة : الغلاة في إثبات الأسباب :

وهؤلاء غلو في إثبات تأثير الأسباب حتى جعلوها المؤثرة بذاتها من دون الله، والسبب المستقل في إيجاد المسبب، وبهذا القول أثبتوا مخلوقات ليست من خلق الله، فأشركوا في توحيد الربوبية حيث أثبتوا خالق غير الله، وبذلك استحقوا أن

يطلق عليهم مجوس هذه الأمة تشبيهاً لهم بالمجوس المثبتين خالقين لهذا العـالم، ومن فروع مذهبهم أن العبد مسبب لفعله وإرادته ويخلق أفعالـه مـن دون الله، وأن إرادة العبـد وقدرتـه سـبب مـؤثر لوجـود الفعـل أراد الله أو لم يـرد، لأن الأسباب إذا وجدت فلابد من وجود مسبباتها .

ومنشأ قولهم هذا أصلهم الفاسد في القدر، حيـث أخرجـوا مـن مرتبـة الخلـق أمور، كالأسباب وأفعال العبـاد، حتـى لا يحـصل الظلـم، وشـبهتهم معلومـة وترددت كثيرا في هذه الرسالة .

فائدة : مشابهة القدرية المعتزلة للفلاسفة :

المعتزلة بهذا القول الغالي شابهوا الفلاسفة الغلاة في إثبات الأسباب، حين قالوا السبب موجد المسبب، والله علة المعلول وسبب المسببات، فـانبنى عـلى قـولهم إنكار الصفات والقـدر وإنكـار المعـاد والقـول بقـدم العـالم، فكفـروا بإجمـاع المسلمين . ومثلهم القـائلين الطبيعـة أوجـدت نفـسها بطريقـة الأسـباب دون اعتراف بخالق وهم الملاحدة.

القول الثالث : مذهب أهل السنة :

يثبتون الأسباب وحقيقتها، وأن لها تأثير في المسبب ولها وجود وقوة، ولكن كل هذه ليست بذاتها ولكن بما أودعه الله فيها، فالله تعالى خـالق الـسبب والمـسبب ويخلق بسبب وبدون سبب، وقد يتخلف السبب عن مسببه لحكمة منه سبحانه كعدم إحراق النار إبراهيم، فلا يخرج شيء في الوجود من أن يكون تحـت إرادة الله ويجري بتقديره ومشيئته والله خالق كل شيء، السبب والمسبب الأثر والمؤثر

المخلوق وفعله، ولكن هذا القدر من الإثبات والإقرار بالقدر والخلق لا يعني أنه لا قدرة ولا تأثير ولا إرادة حقيقية مؤثرة، فالنار تحرق وهي سبب للإحراق، ولا يدل على أن الله لم يخلق السبب والمسبب والإحراق والحريق والخشب المحروق ، ولا يدل ايضا على أن النار ليس لها تأثير مخلوق وأثر مقدر، وسنذكر أدلة أهل السنة في معرض الرد على المخالقين .

المسألة الرابعة : أقسام الاسباب :

١- أساب كونية قدرية :

وهو السبب الكوني القدري الذي بقدرة الله مثل العلاج للشفاء والماء للحياة كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ الأعراف: ٥٧.

٢- أسباب شرعية :

كالقرآن شفاء والسعادة والشقاوة والإيمان سبب لدخول الجنة والوقت سبب للصلاة ويدل له قوله تعالى:﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًا ﴾البقرة: ٢٦.

المسألة الخامسة : الرد على الفرق الضالة :

الرد على القدرية المعتزلة :

أولا: أن العقل يدرك أن كل سبب وراءه سبب حتى يأتي المسبب لكل شيء وهو الرب الخالق فإذا أنكرنا واحد لزم إنكار البقية فلو أنكرنا تأثير الله فمن باب أولى أن ننكر تأثير السبب الأول في مسببه وهذا تخبط وضلال .

ثانيا: أن الحس يبطل مذهب القدرية : حيث نشاهد تخلف بعض الأسباب عن مسبباتها كتخلف الإحراق عن النار التي أوقدت لإبراهيم فمن الذي جعل النار لا تحرق، فأبطل السبب عن مسببه حتى أبطل النار عن إحراقها فصارت نار لا تحرق نار بدون سبب . وكذلك عيسى بدون أب فالأب الذي هو سبب الإيجاد تخلّف وجوده، فوجود المسبب بدون السبب حكمة بالغة فما تغني النذر، وقوله تعالى: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ﴾ الرعد: ٤، فالماء سبب فاختلف المسبب، وغير ذلك كثير من وجود سبب بدون مسبب ووجود مسبب بدون سبب، مما يدل على أن الله مسبب الأسباب وحده خالق كل شيء.

ثالثا: الأدلة والآيات والنصوص الشرعية التي تثبت أن كل شيء خلقه الله ويدخل في ذلك الأسباب ومسبباتها، كقوله تعالى ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ فاطر: ٣ وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ الزمر: ٦٢ وغير ذلك .

الرد على الجبرية الأشاعرة :

ولا يفهم من الرد على المعتزلة ما ذهبت إليه الأشاعرة الجبرية من إنكار حقيقة الأسباب وتأثيرها فيرد عليهم :

أولا: أنه لا يستلزم من إثبات تأثير الأسباب وتأثير حقيقتها خروجها عن قدرة الله وخلقه حتى يكون هذا شرك، وذلك لأن تأثير السبب في المسبب ليس بذاته بل بما جعل الله فيه من قوة تأثير فخلق الله يشمل كليهما السبب والمسبب .

ثانيا: أن قولهم مخالف للعقل والحس فالجميع يفرق بين النار والتراب في الإحراق والماء والهواء في الإرواء، فهذا دليل على وجود أسباب وتأثير لها، ولا يدل على وجود خالق لها غير الله .

ثالثا: أن في مذهبهم هذا ذريعة لإفساد الدين وتسلط على الأعداء، فهذا المذهب لما كثر أتباعه من الصوفية الجبرية، تُرِك الجهاد واُدعِي التوكل على الله دون بذل السبب والوسع .

رابعا: الآيات والأدلة والنصوص الشرعية المثبتة تأثير الأسباب في مسبباتها والتي لا تحصى ومنها قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ الأعراف: ٥٧ فأخبر سبحانه أنه ينزل الماء بالسحاب ويخرج الثمر بالماء . وقوله : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ وغير ذلك كثير، قال ابن القيم في شفاء العليل " ولو تتبعنا ما يفيد إثبات الاسباب من القرآن والسنة لزاد على العشرة آلاف موضع ...." [1].

خامسا: اصطلاح أهل اللغة والتفسير على وجود باء السببية وتسمية الباء في الآيات السابقة (باء السببية) ، بخلاف الجبرية فينكرون كل باء سببية [2] ويؤلها بعضهم إلى باء المصاحبة، ولا يعتد بقولهم لمخالفتهم لأهل اللغة وأهل الشرع .

---

[1] انظر المسألة ورده رحمه الله على منكري الأسباب وإبطال زعمهم أن الشرك في إثباتها في شفاء العليل .

[2] يشبه إنكار الأشاعرة لباء السببية إنكارهم للام التعليل والحكمة .

الخلاصة :

وبهذا يتبين وضوح مذهب أهل السنة وتوسطه في مسألة الأسباب وتأثيرها الحقيقي بإرادة الله وتحت خلقه ومشيئته .

المسألة السادسة : لماذا أوجد الله الأسباب؟

ولِـمَ لَـمْ يخلق خلقه ويوجد المسببات بدون أسبابها؟ :

الحكمة في ذلك والله اعلم كثيرة جدا منها :

١- حتى تظهر آثار صفاته صفات الجلال والجمال .

٢- ليكثر ذكره وشكره والثناء عليه وحمده، وإلا فالله قادر على أن يجعل الإنسان مستغني عن الأكل فأين الشكر على الطعام مثلا.

٣- إظهار ودليل لعدل الله فلا يستوي من عمل بالأسباب وبذل وسعة ومن تواكل عن السبب لمسبب فقعد عاجزا متمنيا .

٤- فيها ابتلاء واختبار لعباده .

المسألة السابعة : أفعال العباد تدخل في الاسباب :

أفعال العباد وإرادتهم في أفعالهم، من قبيل مسألة الأسباب وأحد فروعها واتضح ذلك في سياق الخلاف السابق .

المسألة الثامنة :

كلٌ من الأشاعرة الجبرية والمعتزلة القدرية وافق مذهبه الفاسد في هذه المسألة فالجبري غلا في إثبات القدر حتى أنكر الأسباب وأفعال العباد ، والقدري غلا

في إثبات العدل حتى أنكر القدر والخلق وغلا في إثبات الأسباب وخلق أفعال العباد حتى جعلها موجودة بذاتها من دون الله .

المسألة التاسعة :

خطر الصوفية والجبرية والمرجئة على الدين، وكم تسلط الأعداء بسببهم فأبطلوا الجهاد وادعوا أن فيه مخالفة للاعتماد على الله والرضا بالقدر والإيمان به والله المستعان فتأمل .

المسألة العاشرة : الحكمة من تخلف السبب أو المسبب:

تخلف أحد الجانبين السبب عن مسببه أو وجود سبب بدون مسببه واقع لحكمة من الله سبحانه وتعالى، مثال النوعين : فقد يوجد الزواج ولا يوجد الولد ، وقد يوجد الولد مثل عيسى بدون زواج، وفيه رد على الطبائعيين الذين يقولون الطبعة تخلق نفسها .

المسألة الحادية عشر : القاعدة في الأسباب أن إنكارها قدح في العقل ، والاعتماد عليها قدح في الشرع .

فائدة : علاقة مسألة الأسباب وإنكار الجبرية له بالمسائل القدرية :

إنكار أفعال العباد ، وإنكار الحكمة ، إنكار التحسين العقلي .

الفصل الرابع والعشرون

علاقة الإرادة بالمحبة والرضا

المسألة الأولى : العلاقة بين المشيئة والإرادة وبين الرضا والمحبة :

المحبة والرضا لها علاقة بأحد نوعي الإرادة وهي الإرادة الشرعية الدينية فهي مرادفة لها، وقد ذكرنا في موضوع سابق علاقات القدر بمسائل الدين .

وهذه المسألة تُبْحَث لأهميتها ولترتُّب الخلاف فيها خلافٌ في القدر .

المسألة الثانية : ترتب هذه المسألة على مسألة الحكمة والتحسين العقلي :

الخلاف في هذه المسألة له علاقة بمسألة الحكمة والتعليل ومسألة التحسين والتقبيح العقلي، وذلك أن الرضا والمحبة من باب الحسن، ولها علاقة بالحكمة والتعليل أيضا حيث أن محبته متعلقة بحكمته .

المسألة الثالثة :

الخلاف هنا مع القدرية والجبرية وكليهما قد وافق أصوله الفاسدة في القدر .

المسألة الرابعة :

تتفق الجبرية والقدرية على قول واحد وأصل واحد في هذه المسألة، وهو أن الإرادة بمعنى المحبة ولا فرق بينهما، وهذا الاتفاق نتيجة إنكار كل فرقة أحد جانبي المسألة والإقرار بالجانب الآخر فصار كالقسم الواحد مع اختلاف حقيقته ومعناه وطريقه، وهذا ما سيوضح في ذكر الخلاف وصورته .

المسألة الخامسة : حقيقة المسألة :

هل الإرادة تقتضي وتستلزم المحبة والرضا ؟

أي هل إذا أراد الله عز وجل شيئا يكون قد رضيه وأحبه، وهل الله إذا أحب شيئا لابد أن يقع؟

فالفرق الضالة قالت أن الله يحب ما أراده، ويريد ما أحبه، فقالوا بالتلازم .

واختلفوا في إنكار المحبة والإرادة وتقديم أحدهما بناء على أصولهم وكل فرقة تمشت على مذهبها .

وأهل السنة قالوا ليس شرطا التلازم بينهما على الدوام، فقد يحب مالا يريده وقد يريد مالا يحبه سبحانه.

المسألة السادسة الأقوال في المسألة :

القول الأول: المحبة تستلزم الإرادة والعكس وهذا قول الجبرية والقدرية :

ثم اختلفوا في الموجودات : هل كلها محبوبة لله لأنها مراده كما قالت الجبرية ؟ أم هل يوجد في الوجود ما لا يريده الله لوجود أمور غير محبوبة وهم المعتزلة ؟ :

المذهب الأول : المعتزلة القدرية :

قالوا ثبت عقلا وشرعا أن الله يحب الإيمان والخير والعمل الصالح ولا يحب الفساد ولا يرضى الكفر، فإذا كان ذلك لزم أن تكون هذه الأشياء الكفر وغيره غير مراده ولا مقدره فهي خارجة عن مشيئة الله وإرادته وخلقه، فالله لم يخلق الكفر والمعاصي ولم يقدرها، ومن جهة أخرى نحن ملزمون بالرضا بالقدر والكفر يحرم ولا يجوز أن يرضى به، إذاً الكفر غير مقدر ولا مقضي ولم يشاءه الله ولا أراده .

المذهب الثاني : الأشاعرة الجبرية :

قالوا ثبت عقلا وشرعا أن الله خالق لكل شيء وكل شيء لا يحصل إلا بإرادته ومشيئته فالكون كله قد أراده وقدّره وخلقه، وقالوا لا يمكن أن يريد الله ما لا يحبه لأنه على كل شيء قدير فيكون الكفر والمعاصي مراده ومقدره، إذاً هي محبوبة لله إذا وقعت لأن الله أرادها .

القول الثاني : قول أهل السنة ووافقتهم الماتريدية :

لا تلازم بين الإرادة والمحبة فقد تقع إحداهما دون الأخرى :

قالوا الله سبحانه لا يحب الفساد ولا يرضى الكفر، ومع ذلك الله أرادها كونا وقدرا وخلقها، فليس معنى كونه أرادها انه أحبها، ولا يدل عدم محبة لها أن الله لم يخلقها ويريدها .

المسألة السابعة : الأدلة على المسألة من العقل والشرع :

أولا : الأدلة الشرعية الدالة على عدم محبة الكفر والفساد قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾ البقرة: ٢٠٥ وقوله ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ الزمر: ٧ وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن الله كره لكم قيل وقال " .

ثانيا : الأدلة الدالة على عموم مشيئة الله ونفوذ إرادته وخلقه كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ القمر: ٤٩ ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ الزمر: ٦٢ وقوله ﴿ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ النحل: ٩ ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ وقوله: ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ ﴾ الأنعام: ١٢٥.

فالآيات أثبتت محبة الله لأمور وعدمها لأخرى بينما كل شيء مراد سواء محبوب أو غير محبوب وبهذا يجمع بين الآيات وعليه، فإن لله إرادتان شرعية وكونية .

الأدلة العقلية :

فالعقل والعرف واللغة تميز بين المحبة والإرادة، فالإرادة غير المحبة وقد تقع إحداهما فمثلا يريد الإنسان شيء لا يحبه كشرب الدواء المر للشفاء والدواء المر لا يحبه ولكن يريده للشفاء وكذلك السفر والغربة عن الأوطان لكسب الرزق وغير ذلك .

وبهذا يتبين أن الفساد لا يحبه الله والكفر لا يرضاه بصريح القرآن وفي ذلك رداً على الجبرية. ولكن هذا الفساد والكفر لا يخرج عن كونه مراداً لله قدرا ومن خلقه لحكمة منه فهو داخل في عموم كل شيء ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ وفي ذلك رداً على القدرية.

المسألة الثامنة : الرد على المخالفين :

أولا : الرد على القدرية المعتزلة :

يرد عليهم بما تقدم من الأدلة الدالة على أن كل شيء واقع بقدر الله وإرادته ومشيئته، وبالعقل الدال على التفريق بين الإرادة والمحبة، فقولهم فاسد عقلا مردود شرعا .

ثانيا : الرد على الجبرية الأشاعرة :

يرد عليهم بما تقدم من الأدلة التي أوردها أهل السنة والدالـة عـلى عـدم محبـة الكفر والفساد، وأن الله لا يرضى لعباده الكفر، لا مؤمنهم ولا كـافرهم كلهـم من عباده، وكذلك يكره الله قيل وقال .

وبالعقل الدال على التفريق بين الإرادة والمحبة .

وعلى ذلك فكلٌ من القدرية والجبرية وافق الصواب في جانب وخالف الحق في جانب آخر .

فالقدرية قولهم الكفر لا يحبه الله حقا، وأما قولهم لا يريده الله ولم يخلقه باطل .

والجبرية قولهم الكفر واقع بالإرادة حق وأما قولهم الله يحبه ويرضاه باطل .

المسألة التاسعة : حديث جامع فيه رد على الفرقتين في المسألة :

الحديث القدسي :" ما ترددت في شيء أنا فاعله تـرددي في قـبض روح عبـدي يكره الموت وأكره مساءلته " .

هذا الحديث فيه ردٌ صريح على الجبرية وكذا القدرية، حيـث أثبـت الله انـه قـد يريد مالا يحبه وهذا من أصرح ما يرد عليهم .

المسألة العاشرة : سبب ضلال القدرية والجبرية في المسألة :

اتفاقهما على أن كل مراد محبـوب لله، فالمحبـة والإرادة شيء واحـد فـسوو بـين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضا . ولم يعلموا أن الله له إرادتان.

الأولى: الإرادة الكونية القدرية :

وهي بمعنى المشيئة وهذه لابد من وقوعها، وقد توافق المحبة مثل إيمان أبي بكر وقد لا توافقها وتكون إرادة لا يحبها الله مثل كفر الكافر .

الثانية: الإرادة الشرعية الأمرية الدينية :

وهي توافق المحبة والرضا وهذه قد تقع قدرا مثل إيمان أبو بكر وقد لا تقع مثل الإيمان من الكافر فالإيمان من الكافر مراد شرعا ومحبوب وغير مراد كوناً.

وهذا التقسيم للإرادتين يجمع به بين الآيات ويتضح القول الحق قول أهل السنة ويخرج القدرية والجبرية من مآزقهم وردهم لبعض النصوص الشرعية[1].

المسألة الحادية عشر :

الحكمة من وجود أمور لا يحبها الله . حكم كثيرة نفردها بفصل إن شاء الله .

المسألة الثانية عشرة: علاقة الحكمة والتحسن والتقبيح بالمسألة :

الأشاعرة أنكرت الحكمة والحسن والقبح العقلي حتى يخرجوا من مآزق أن يكون الرب خلق الكفر ثم لا يحبه ، وجهلوا أن الله له إرادتان واحدة توافق المشيئة والخلق والأخرى توافق المحبة .

المسألة الثالثة عشر: موقف الصوفية في هذه المسألة :

الصوفية لهم كلام قبيح في القدر حيث زعموا أن المعاصي والكفر محبوبة لله وفاعلها مطيع للقدر ولو خالف الأمر وأنه مثاب وتركوا الجهاد لأنه بزعمهم يخالف الرضا بالقدر وهذا كفرٌ بواح .

---

[1] مجموع فتاوى إبن تيمية ٨/ ٢٩٥.

الفصل الخامس والعشرون

الأمر وعلاقته بالإرادة

المسألة الأولى : المخالف في هذه المسألة :

الخلاف في هذه المسألة مع القدرية المعتزلة، بينما الأشاعرة الجبرية وافقوا أهل السنة في المسألة .

المسألة الثانية: خلاف المعتزلة :

قالوا: الأمر يستلزم الإرادة، فإذا أمر الله تعالى بشيء فلابد أن يكون قد أراده وإذا أراده فقد أحبه وتقدم خلافهم في المحبة، وخلافهم هنا هو في الأمر .

المسألة الثالثة: سبب ضلال المعتزلة القدرية في المسألة :

منشأ ضلالهم هو مذهبهم في القدر وأفعال العباد، فعندهم الله أمر الكافر بالإيمان وأراده منه، والعبد هو الذي يخلق فعل نفسه ويريده من دون الله ، إضافة لخلطهم بين الشرع والقدر، وبين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية، حيث زعموا أن كل إرادة هي إرادة أمرية شرعية ويحبها الله ويرضاها وأنكروا الإرادة الكونية .

المسألة الرابعة : الأقوال في المسألة :

القول الأول : مذهب القدرية المعتزلة :

حيث زعموا أن الأمر يستلزم الإرادة فإذا أمر الله بشيء فقد أراده.

القول الثاني: مذهب أهل السنة والأشاعرة أن الأمر لا يستلزم الإرادة الكونية[1]:

فالأمر قد يريده الله وقد لا يريده فإذا وقع فقد أراده الله، وإذا لم يقع فالله لم يرده. وإذا وقع وأراده فقد أحبه وقد لا يحبه ولا يرضاه، وهذا خاص بالأمر القدري لا الشرعي كالأمر بموت المؤمن. وهذه المسألة خالفت فيها الأشاعرة وتقدم بيان ذلك في المسألة السابقة .

الأدلة على ما ذهبت إليه أهل السنة وفيها رد على المعتزلة :

١- إجماع أهل اللغة والعقل على أن الأمر قد يأتي لغير بابه ومراده ، فقد يأتي للتعجيز ومجرد الامتحان وغير ذلك ، فقد يأمر الإنسان غيره ولا يريد منه تنفيذ أمره وإنما ليبين عجزه مثلا .

٢-ومن الشرع أمر الله لإبراهيم بأن يذبح ابنه وأمر إبليس بالسجود لآدم، مع أنه لم يرد ما أمر به فلم يرد الذبح ولا السجود بدليل عدم وقوعهما وكذا أمره للرسول صلى الله عليه وسلم بخمسين صلاة .

٣-قوله تعالى : ﴿ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ الإسراء: ٥٠ والأمر هنا للتعجيز .

وغير ذلك من الأدلة المثبتة أن الأمر قد لا يوافق الإرادة، والتي تدل على بطلان ما ذهبت إليه القدرية المعتزلة .

الخلاصة : أن الأمر لا يستلزم الإرادة الكونية، بينما يستلزم الإرادة الدينية وتسمى الإرادة الأمرية نسبة للأمر، وهذا إذا كان الأمر شرعيا أما إن كان كونيا فلا يستلزم المحبة .

---

[1] شفاء العيل ص ٤٨٠

مبحث علاقة القدرة بالمشيئة

المسألة الأولى : قول المعتزلة في القدرة :

خالف في هذه المسألة القدرية حيث ادعوا أن الأمور التي لم يشأها الله ولم يريدها لا يقدر عليها تعالى الله عما يقوله الظالمون.

المسألة الثانية : الأمور المتعلقة بالمشيئة قسمان :

الأول: شيء موجود وهذا الله قادر عليه .

الثاني: شيء لم يوجد ولم يشأه فهل يقدر عليه ؟.

فأهل السنة قالت الله قادر مطلقا والقدرة متعلقة بكل شيء الموجود والمعدوم فالله قادر على ما شاءه وما لم يشأه .

وخالفت القدرية فقالت لا يقدر الله إلا على الذي شاءه وأراده والذي لم يرده مثل إيمان أبي لهب لا يقدر عليه، ومما يرد به عليهم قوله تعالى:﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾الأنعام:٦٥ مع أن الله لم يفعل ذلك ولم يشأه بنص الحديث.

المسألة الثالثة : هل يجوز لأحد أن يقول الله على ما يشاء قادر:

قال بعض أهل العلم لا يجوز، لأن قدرة الله مطلقة على ما شاء وما لم يشأ فهي متعلقة بكل شيء والدليل قوله: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة: ١٢٠، ثم إطلاق هذا القول يوهم صحة مذهب القدرية .

وقال بعض أهل العلم أنه يجوز إطلاقها بشروط :

الأول: أن لا يعمم بل يقيد، كأن يقول الله على إهلاك الكفار إذا شاء قدير .

الثاني أن لا يعتقد أن الله غير قادر على ما لم يشأ .

والدليل على ذلك ورودها في النصوص :

كقوله تعالى ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ الشورى: ٢٩.

والحديث قدسي في ذلك"ولكني على ما أشاء قادر".

ومع ذلك فالتعميم أولى من التقييد.

المسألة الرابعة : شروط جواز تعليق القدرة بالمشيئة :

يجوز القول الله على ما يشاء قادر بشرطين:

الأول: إذا قيد المشيئة بفعل معين ولم يطلقها للآية الواردة.

والثاني: إذا لم يعتقد ما تعتقده القدرية من عدم القدرة على ما لا يشاءه .

ومع هذا الجواز، إلا أن الأولى والأفضل والأكمل القول بأن الله على كل شيء قدير وعدم تعليقها بالمشيئة .

الفصل السادس والعشرون

حكم الرضا بالقدر

المسألة الأولى :

الرضا بالقدر يشمل الرضا بالقدر والمقدَّر والمقدور .

المسألة الثانية :

هذه المسألة لها علاقة بأفعال العباد من ناحية وبأفعال الرب من ناحية أخرى.

المسألة الثالثة :

هذه المسألة لها علاقة بمسألة الشر في المقدر وتقدم .

المسألة الرابعة :

يجب عند الجواب على هذه المسألة من الاستفسار والتفريق في أمرين :

الأول: التفريق بين فعل الله وبين فعل المخلوق المقدور .

لأن القدر يطلق على فعل الله وعلى مفعوله المخلوق كما تقدم.

الثاني: التفريق بين الخير والشر من ناحية الرضا به ويأتي .

المسألة الخامسة : حكم الرضا بالمصائب والمخلوقات والمعاصي :

هذه المسألة قد أجاب عنها شيخ الاسلام بأجوبة مفصلة شافية كافية :

الأول: أنا أُمرنا بأن نرضى بالمصائب دون المعائب، فنرضى بالفقر والمرض ولم نؤمر بالرضا بالمعاصي والكفر .

الثاني: أن القضاء غير المقضي فنرضى بالقضاء لأنه فعل الله سبحانه .

وأما المقضي فهو فعل العبد فينقسم المقضي المخلوق كفعل العبد إلى خير كالطاعة والإيمان فنرضى بها، وشر ومعصية وكفر فلا يحل ولا يجوز أن نرضى بها بل ننكرها ونفعل الأسباب التي تزيلها من التوبة والاستغفار وإنكارها .

فالمعصية قدّرها الله فنؤمن بذلك. ولكن العاصي لا نرضى بمعصيته بل ننكرها عليه حتى تزول المعصية .

ولم يخالف في الرضا بالمعاصي إلا الصوفية وغلاة الجبرية المكذبين بالشرع والأمر والنهي .

الثالث: أن الشر والمعاصي تختلف في إضافتها للخالق والمخلوق:

فهي من الله عز وجل خلقاً وتدبيراً وتقديراً، وهي من العبد فعلاً وتركاً .

فإذا أضيفت إلى الله فهي قضاءً وقدراً ونرضى بالقدر من هذا الوجه، ونعلم أن فيها أوجه خير مثل طلب التوبة وغيرها ، وإذا أُضيفت للعبد فهي معاصي، وأفعاله نسخطها ولا نرضى بها ويجب أن نسعى في إزالتها وتغييرها .

الرابع: أن الله تعالى لم يرض لنا أن نكفر ونعصى فلا يرضى لعباده الكفر، فعلينا أن نوافق الله في رضاه فنرضى بالطاعة، ونسخط ونكره المعصية، وقد أمرنا بطلب الشرع لا القدر[1].

---

[1] منهاج السنة ٣/ ٢٠٣ . والتائية في القدر لابن تيمية ضمن مجموع الفتاوى ٨/ ٢٥٣

المسألة السادسة: درجات التعامل مع القدر إذا كانت مصيبة :

الإيمان بأنها من عند الله وهذا ركن واجب.

ثم الصبر وعدم الجزع وهذا واجب .

ثم يأتي الرضا، واختلف العلماء فيه والصحيح أنه مستحب .

ثم الشكر وهذا مستحب وهو الكمال .

المسألة السابعة :

الفرح والحزن لا علاقة لها بالتعامل مع القدر فالحزن على المصيبة يجوز إذا لم يقارنه سخط مثل حزن الرسول صلى الله عليه وسلم لفراق ابنه إبراهيم .

المسألة الثامنة : المخالفون في المسألة[1]:

القدرية النفاة :

قالوا يجب الرضا بالقدر مطلقا، والمعاصي يحرم الرضا بها، إذاً ليست من القدر.

الجبرية الغلاة :

قالوا: يجب الرضا بالقدر مطلقا، والمعاصي بقضاء وقدر فيجب الرضا بها .

وهذا الضلال راجع إلى أصولهم الفاسدة في القدر ومناهجهم الباطلة وتقدم ذكرها .

وما ذكرناه في المسألة من أجوبة لشيخ الإسلام فيه كفاية تدل على المذهب الحق المثبت أن المعاصي بقدر الله، وأن الرضا بها فيه تفصيل بين خالقها وفاعلها وتقدم .

---

[1] شفاء العليل ص ٤٧٥.

المسألة التاسعة: موقف الله من المعاصي قدرا وشرعا:

تقدم موقف العبد من المعاصي وحكم رضاه بها، كما بينا أيضا أن الله عز وجل قد خلق المعاصي وأرادها قدرا وجعل في ذلك خير،

ولكن السؤال هنا عن موقف الله تعالى منها هل رضيها وأحبها؟

الجواب أن الله لم يحب المعاصي والكفر، فهو لا يحب الفساد بل يكرهه ويمقته وكذلك لا يرضاها فلا يرضى لعباده الكفر لا كونا ولا شرعا . وإن كان أراد هذه الأمور كونا لا شرعا وذلك لحكمة وخير يعلمه .

إذا ليس معنى أن الله أراد وجود الكفر كونا أن الله أراده شرعا وأحبه ورضيه.

وتقدم شيء من ذلك في علاقة المحبة بالإرادة وغيرها .

كما تقدم خلاف الجبرية القائلين كل ما أراده الله فقد أحبه ورضيه فهو أحب المعاصي ورضي الكفر، وخلاف القدرية القائلين الله لم يرد المعاصي ولذلك لم يحبها ولم يرضاها وتقدم بطلان قولهم والرد عليهم[1].

[1] شفاء العليل ص ٤٧٧ .

الفصل السابع والعشرون

الاحتجاج بالقدر

المسألة الأولى : تاريخ هذه الشبهة :

الاحتجاج بالقدر حيلة العاجز وهي حجة إبليسية قديمة، فأحتج بها إبليس والعصاة من بعده، ولكن لم ينفعهم ذلك ، وجاء الرد عليهم في الشرع والعقل .

المسألة الثانية : مراتب الناس في القدر :

معلوم أن الناس في القدر على مراتب منهم المؤمن الصابر الشاكر وهو أفضلهم ومنهم الجاحد والجازع، ومنهم المتألم غير الراضي ولكن صابر على قدر الله .

المسألة الثالثة : أقسام الناس في الاحتجاج :

من الناس من يحتج بالقدر على المصائب والمعائب (الذنوب وكل ماهو عيب) .

ومنهم من لا يحتج به لا في المصائب ولا في المعائب.

ومنهم من يحتج به في المصائب دون المعائب .

ومنهم العكس يحتج به في المعائب دون المصائب وهو شر الناس وخصيم الله .

المسألة الرابعة : معنى الشبهة :

إذا أصاب المحتج مصيبة ربما يجزع ولا يحتج بالقدر، وأما إذا عصى الله وأذنب فتراه يحتج بالقدر عليها فإذا قتل أو سرق عامدا قال قدر الله علي السرقة والقتل .

المسألة الخامسة الرد على هذه الشبهة :

يرد هذه الشبهة ويبطلها : الإجماع والشرع والعقل .

أولا: الإجماع : قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " وليس لأحد أن يحتج بالقدر على الذنب باتفاق المسلمين وسائر أهل الملل وسائر العقلاء "[1].

ثانيا: من القران:

١ – قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ الأنعام: ١٤٨ .

فالآية واضحة في احتجاج المشركين بالقدر على شركهم، وتكذيب الله لهم هذا الاحتجاج الباطل، لأن الله مكنهم من الأيمان وأعطاهم القوه والعقل والاستطاعة وأرسل الرسول فاعرضوا وكذبوا .

٢ – قال سبحانه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ النساء: ١٦٥. فلو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصي سائغا لما كان هناك حاجة من إرسال الرسل .

٣– أن الله لم يقبل من إبليس احتجاجه بالقدر حين قال : ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ الأعراف: ١٦.

٤ – أن الله أثبت أن المعاصي سببها أصحابها وليس لهم حجة في قدر الله وقضاءه ، ومنها قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾ المؤمنون: ١٠٦ وقوله ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ الملك: ١٠.

---

[1] مجموع الفتاوى ٨/ ١٧٩.

٥- قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ الجاثية: ٢١ وقوله: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ ص: ٢٨.

ثالثا: دليل العقل:

١- أن هذا الاحتجاج يلزم منه أن يكون إبليس وفرعون والأقوام الكافرة المعاندة معذورة، لأنه لا فرق بين العاصي والكافر في مخالفة الأمر فإذا قُبِل من العاصي قُبِل من الكافر هذا الاحتجاج لأنه مقدر عليه، وهذا القول كفر باتفاق أصحاب الملل وإبطال لأصل الدين وحقيقته .

٢- أنه يلزم منه أن لا يفرق بين أولياء الله وأعداء الله ولا المؤمن والكافر وأهل الجنة وأهل النار ولا الخير والشر، لأجل لذلك لا يقبل من احتج به ولا من اعتذر به .

٣- أن الواحد من هؤلاء المحتجين إما أن يرى القدر حجة للعبد وإما أن لا يراه، فإن كان حجة فهو حجه لجميع الناس فكلهم مشتركون في القدر وحينئذ فيلزم أن لا ينكر على من يظلمه ويأخذ ماله، إلا أن هؤلاء أنفسهم نجد أحدهم يحتج بالقدر على معاصيه بينما يعيب الناس ويخالفهم لأمور دنيوية فهو شر الناس يحتج بالقدر في شهواته وهو يعلم كذبه .

٤- أن يقال أن الله علم الأمور وكتبها على ما هي عليه فقد كتب أن فلانا يؤمن ويعمل صالحاً فيدخل الجنة وفلان يعصي فيدخل النار ، كما علم وكتب أن فلانا يتزوج المرأة فيأتيه ولد وفلان يأكل ويشبع، فمن قال إن كنت من أهل الجنة فأنا أدخلها بلا عمل صالح كان مثل من يقول أن لا أتزوج فإن قضى الله لي ولد فسيأتي،

فهذا جهل وحجته داحضة واعتذاره مردود باطله، لأنه كما الله جعل الولد لمن تزوج، كذلك الجنة لمن أمن وعمل، والنار لمن كفر وعصى، وهذا مكتوب مقدر السبب والمسبب بل من قال سأدخل الجنة بدون أعمال ولا إيمان إذا كتب ذلك الله وأنه لا فرق بين الأعمال التي أوجبها الله وبين تركها كان هذا كافرا، والله حرم الجنة على الكافرين، فهذا اعتقاد ينافي الإسلام والإيمان[1].

٥- ومما يرد هذا الشبهة أننا نجد الذين يحتجون بالقدر على المعاصي ويترك الواجبات حريص على ما ينفعه لدنياه ويغضب إن احد آذاه ويسعى للاكتساب ولا يرعى القدر ولا يصبر إن ظلم ولا يحتج بالقدر على ما يصيبه.

٦- أن القدر من علم الغيب فإذا قال المحتج بالقدر التارك للواجب الله ما أرادني أعمل، كان هذا إدعاء لعلم الغيب، لأن إرادات الله إن قصد بها الشريعة فقد كذب فالله يريد الطاعة، وإن أراد الكونية القدرية التي بمعنى القدر والمشيئة فقد كذب وادّعى علم ما لم يعلم لأن الإرادة الكونية ومشيئة الله لا تعرف إلا بعد وقوعها .

٧- وإذا قال المحتج بالقدر على معاصيه: أن الله كتبها علينا وكيف نؤاخذ على ما أريد بنا، قيل له إن الله لم يؤاخذنا بالكتابة السابقة إنما نؤاخذ بما كسبناه وفعلناه وفرق بين ما أراده الله بنا وما أراده منا، فنحن مؤاخذون على ما أريد منا لاما أريد بنا، مؤاخذون بالأمر والشرع لا بالقدر السابق .

٨- الإلزامات الفاسدة على أصحاب هذه الشبهة، من تعطيل الشرائع والتسوية بين الكافر والمؤمن، والاستغناء عن التوبة والدعاء والجهاد والاستغفار .

---

[1] فتاوى ابن تيمية ٨/ ٢٦٢-٢٦٦ .

٩- أما حديث احتجاج آدم وموسى فآدم احتج بالقدر على المصيبة وهي الخروج من الجنة التي ناقش موسى فيها ولم يحتج بالقدر على المعصية .

المسألة السادسة : المذاهب في الاحتجاج بالقدر على المعاصي :

مذهب القدرية :

لا يحتجون بالقدر على المعاصي : لأنهم لا يرون المعاصي مقدره أصلا، فالله لم يخلق أفعال العباد ولم يقدرها ومعاصيهم من أنفسهم وليست تحت قضاء الله وقدره .

مذهب غلاة الجبرية وغلاة الصوفية :

يحتجون بسابق القدر على الذنوب والمعاصي وتقدم كلام الدسوقي : أن العبد يلام بعين الشرع ظاهرا ومعذور باطنا بعين القدر .

أما أهل السنة فمذهبهم واضح آمنوا بالشرع وآمنوا وأقروا بالقدر وهم يحتجون بالقدر على المصائب لا الذنوب والمصائب .

المسألة السابعة : الجواب عن الاحتجاج بالقدر مبني على قواعد[1]:

١- أن علم الله الأزلي محيط بكل شيء ما كان وما لم يكن وما سيكون والأمور تقع على مقتضى علمه .

٢- غنى الله الكامل عن العباد فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية فليس في حاجة لأعمالهم ولا يجبرهم عليها .

٣- أن الله لا يظلم بل وحرمه تعالى على نفسه وهذه مهمة في رد الاحتجاج بالقدر .

---

[1] هذه المسألة والتالية راجعها في مجموع فتاوى ابن تيمية ٨/ ٤١٠-٤١٢ .

٤- قيام الحجة على العباد فكلف كل عاقل بالغ وأعطاه إرادة وقدره وعقل وبعث إليه رسول وأنزل عليه كتاب .

المسألة الثامنة : شبهات المحتجين بالقدر :

اسأله يوردها المحتجون بالقدر على المعاصي على أهل السنة:

١- أن الله كتب المعاصي وقدّرها وستحصل لا محالة، فما ذنب العاصي في معصيته ويستدلون باحتجاج آدم .

٢- لماذا من الله بالهداية على المؤمن دون الكافر .

٣- إذا كانت المعاصي مقدره من الله فلماذا يعاقب عليها .

٤- كيف يأمر الله الكافر بالإيمان ولا يريده منه .

٥- إذا كان الكفر بقضاء الله فيلزم عدم الرضا بقضاء الله وقدره .

٦- ما الفائدة من التكليف مع سبق الأقدار .

وهذه الأسئلة والشبهات تقدم الرد عليها وبعضها في فصل مستقل.

المسألة التاسعة : متى يسوغ الاحتجاج بالقدر:

١- عند المصائب التي تحل بالإنسان، مثل الأمراض والفقر وغيرها فيحتج بالقدر عليها حتى يصبر الإنسان ويرضى .

٢- الذنب إذا تاب منه الإنسان، فيحتج بالقدر ولا يسوغ لأحد أن يلوم التائب من ذنوبه لأن العبرة بالنهاية لا نقص البداية .

المسألة العاشرة : أقسام المحتجين بالقدر :

الأول: مبتدع ضال مخالف بأصوله الفاسدة وهم الجبرية والمشركين.

الثاني: معاند يضرب الشرع بالقدر ويعارض بينهما زندقةً، وهو من جنس إبليس وهؤلاء قدرية إبليسية .

الثالث: عاصٍ صاحب هوى وشبهه ويعلم أنه لا تعارض ولكن ليسلم من اعتراض الناس ويخرج من اللوم وهذا يلام ولا يبدّع وهذا يكثر في فساق أهل القبلة. أما القسم الأول والثاني فهم مبتدعة ضالين .

الرابع: من يحتج بالقدر عند نزول المصائب، وهذا مؤمن موفق .

مبحث

في حديث احتجاج آدم وموسى وحكم النبي صلى الله عليه وسلم لآدم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" احتج آدم وموسى، فقال موسى: أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ـ وفي لفظ احتج آدم وموسى عند ربهم فقال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه واسجد لك ملائكته وأسكنك في جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض ـ فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم: حج آدمُ موسى ". والحديث رواه البخاري ومسلم وله طرق وألفاظ أخرى .

موقف الفرق القدرية من هذا الحديث :

الأول: مذهب القدرية :

اختلفوا فمنهم من رد الحديث وأنكره بالكلية كأبي علي الجبائي.

ومنهم من حرفه وبدل لفظه ، وعكس المراد والمعتى فجعل المحجوج آدم والحاج موسى وذلك بنصب (آدمَ) على أنه مفعول به وليس الفاعل ويضبطونه : فحج آدمَ بالفتح تحريفاً .

ومنهم من يتأوله فيقول حج آدم موسى ليس لأجل القدر وإنما لأنه أبوه أو لأنه في غير شريعته ، وقالوا غير ذلك .

لأن الحديث رد واضح على تقدير الله لأفعال العباد ومعاصيهم .

ثانيا : مذهب الجبرية :

يقولون احتج آدم بالقدر على ذنبه ومعصيته فحج موسى، لأن المعاصي مقدرة ومكتوبة والمقدر لا يلام عليه .

وقد تقدم الرد عليهم في هذه الشبهة في الفصل السابق، ولو كان كلامهم صحيح لكان إبليس أيضاً غير ملام لأنه مقدر عليه حيث قال: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي ﴾ وقد لامه الله على كفره واحتجاجه بالقدر على معصيته وهذا في غاية البطلان وتقدم .

ثالثاً : مذهب أهل السنة في معنى الحديث :

الجواب الأول للحديث :

أن آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب ، فهوا أعلم بربه وذنبه وأعرف بربه من أن يحتج بقدره على معصية، وموسى كان أعرف بالله وبأسمائه وصفاته وأعرف بأبيه وذنبه من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاجتباه ربه وهداه واصطفاه .

وإنما اللوم وقع على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا الخطيئة والمصيبة .

الجواب الثاني :

أن الاحتجاج بالقدر على الذنب يقع في موضع ويضر في موضع .

فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته أي الذنب كما فعل آدم لأنه هنا لم يبطل شرع بل اعترف بذنبه ويخبر أنه تاب منه فيخبر بالحق .

وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج بالقدر فيه فهو إذا كان على الذنب حال فعله وكذا في المستقبل فيحتج بالقدر على الذنب وهو مستمر فيه مصر عليه فهذا احتجاج

مردود باطل كما فعل المشركون ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ الزخرف: ٢٠﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ الأنعام: ١٤٨[1] .

فهذان الجوابان يفهم بهما الحديث ويتضح الموضوع وتزول الشبهة التي أثارتها القدرية والجبرية المبنية على أصولهم الفاسدة التي تقدم الرد عليها .

مسألة : في الحديث أقوال في سبب كون آدم حاج موسى كلها ضعيفة مثل :

أنه حجه لأنه لامه في غير دار التكليف أو لأنه أبوه أو لأنه في غير شريعته وغيرها وهذا كلها أجوبه فاسدة لا تصح ، وقد ردها ابن القيم في شفاء العليل .

فائدة : احتجاج علي بالقدر على ترك قيام الليل وإقرار النبي صلى الله عليه وسلم لذلك كما في الصحيحين وفيه ألا تصلون : قال علي: فقلت : يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثها .... الحديث .

الجواب عنه : أن علي لم يحتج بالقدر على ترك واجب أو فعل محرم ، ثم إنه احتج بالنوم والنائم غير مفرط ومرفوع عنه القلم واحتجاج غير المفرط بالقدر صحيح [2].

---

[1] شفاء العليل لابن القيم ص٤٨ .

[2] المرجع السابق ص ٤٩ .

الفصل الثامن والعشرون

جامع في الإشكالات والأخطاء القدرية والشبهات والمخالفات في القدر

المبحث الأول : إشكالات وشبهات :

١- كيف يريد الله مالا يحب ؟

٢- كيف يأمر بما لا يريد وقوعه ؟

٣- لِمَ خُلق إبليس والمعاصي والشرور،ولِمَ لَمْ يخلق كل شيء خير لاشر فيه ؟

٤- هل يجب الرضا بكل ما قد قضاه ومن ذلك الشر والكفر ؟

٥- كيف الجمع بين تقدير الله للأقدار وبذل الأسباب ؟

٦- هل ينسب الشر إلى الله وهل في قضائه شر ؟

٧- كيف الجمع بين تقدير الأعمار وزيادة الأعمار والأرزاق ؟

٨- معرفة الخسوف وما في الرحم واستراق السمع هل هي من علم الغيب ؟

٩- الاحتجاج بالقدر على فعل المعاصي وترك العمل احتجاجا بالقدر .

١٠- هل يمكن وجود الحكم بدون وجود أسبابها ؟

١١- لماذا لا يوجد الله ما يريده مباشرة دون أن تحصل الشرور والكفر ؟

١٢- كيف يرضى الله لعبده شيء ولا يعينه عليه [1]؟

هذه الشبهات قد فصلنا الرد عليها والإجابة عما أشكل منها على مذهب أهل السنة والجماعة في أبواب كثيرة في ثنايا هذا البحث .

---

[1] انظر هذه الشبهات والجواب عنها في شرح العقيدة الطحاوية لابن ابي العز ص ٣٣٦ وقد نقلها من كلام ابن القيم في مدارج السالكين ، وانظر الايمان بالقدر للحمد ص ٧٣ .

المبحث الثاني

إشكالات إبليس وشبهاته في مناظرات مع الملائكة

ذكر الشهرستاني في كتابه الملل مناظرات بين إبليس والملائكة وأنها وردت في التوراة وفي شرح الأناجيل الأربعة .

ويتضمن حوار إبليس لعنه الله سبع أسئلة، يحتج فيها على أن وقوع المعصية منه حصل بقضاء الله فكيف يعاقبه الله على ما قدره عليه وهذا ينافي العدل .

وقد أنكر ابن القيم رحمه الله أن تكون هذه الأسئلة من كلام الله الذي أنزله على موسى وعيسى وإنما هي من وضع المحرفين وقد أجاب عن هذه الحجج في كتابه الصواعق المرسلة بقرابة العشرين وجه.

وقال شيخ الإسلام في المنهاج: " هذه الشبهة التي حكاها الشهرستاني في كتاب الملل عن إبليس في مناظرته للملائكة لا تعلم إلا بالنقل ، وهو لم يذكر لها إسناد بل لا إسناد لها أصلا فإن هذه لم تنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من أصحابه ولا عن أئمة المسلمين ، فيشبه والله اعلم أن يكون أحد المكذبين بالقدر وضع هذه الحكاية ليجعها حجة على المثبتين للقدر ، كما يضعون شعرا على لسان يهودي ..."[1]. ويقصد بشعر اليهودي الأبيات التي مطلعها :

سؤالك يا هذا سؤال معاند... مخاصم رب العرش باري البرية

---

[1] انظر هذه المسألة وأسئلة ابليس السبعة في كتاب الملل للشهرستاني ص ١٤ . والقضاء للدسوقي . والصواعق المرسلة ومنهاج السنة ٣/ ٧٠٢ ط دار الفضيلة .

المبحث الثالث

الأخطاء والبدع وما يضاد منها الإيمان بالقدر

أولا : ما يرجع لأصول عقدية فاسدة وهي البدع القدرية :

١- نفي الحكمة من أفعال الله مما يسبب نسبة العبث لله .

٢- اعتقاد وجود ظلم في أفعال الله أو ظلم لو خلق أفعال العباد .

٣- الاعتقاد بوجود التكليف بما لا يطاق وقد تقدمت في مسألة مستقلة .

٤- الاعتقاد الضال في مسائل الاستطاعة والتحسين العقلي .

٥- أن الله يحب كل ما أراده حتى الكفر وهذه بدعة الجبرية وتقدم الرد عليها.

٦- أن الله يريد كل ما أمر به وهذه بدعة القدرية وتقدم الرد عليها.

وهذه البدع والضلالات قد أوردتها مفصلة بأدلتها وأقوال أصحابها والرد عليها فيما سبق هي وغيرها .

ثانيا :الأخطاء في القدر مما لا يدخل تحت البدع وأقوال الفرق الضالة وإنما هي أخطاء تقع من جهال أهل السنة وعوامهم :

١- الاحتجاج بالقدر على المصائب والمعاصي .

٢- التخلي عن مساعدة المحتاجين والدعاء للمسلمين بحجة أن ما نزل بهم بقضاء الله وقدره أو بذنوبهم .

٣- ترك الأخذ بالأسباب بحجة التوكل على الله .

٤- ترك الدعاء بحجة أن الله يعلم بحاجة العبد من غير سؤاله .

٥- قول البعض شاءت الظروف أو الأقدار وهذا خطأ، لأن الظرف والقدر لا يشاء وإنما ذلك لله سبحانه .

٦- قول البعض ما شاء الله وشاء فلان ، أو لولا الله وفلان وهذا من الشرك الأصغر.

٧- قول البعض الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، وفيه إيهام أن في أفعال الله ما يكره .

٨- قول البعض اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه وهذا دعاء مبتدع ، والواجب أن يدعو أن يصرف عنه الشر ويأتيه بالخير .

٩- قول البعض أن الله على ما يشاء قدير ، لأنه يفهم أن الله لا يقدر على ما لا يشاء .

١٠- الجزم بفعل الشيء أو وقوعه دون تعليقه بالمشيئة، كقول البعض سأفعل كذا ولا يقول إن شاء الله وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ الكهف: ٢٣ - ٢٤.

١١- قلة اليقين بأن العاقبة للمتقين وأن النصرة لهذا الدين وأولياءه .

١٢- التكهنات واستطلاع المستقبل خصوصا إذا كان من كاهن أو منجم فإنه كفر .

١٣- التألي على الله مثاله : والله لا يغفر الله لفلان .

١٤- الاعتراض على الأقدار وعدم الرضا والتسليم .

١٥- قول كلمة لو عند المصيبة ولو تفتح عمل الشيطان والبديل قدر الله وما شاء فعل .

١٦- الإكثار من التمني وقول ليت، والتسويف في أمور الدين .

١٧- الحسد فلا يقوم بقلب مؤمن بالقدر راضيا به .

١٨- تمني الموت وعدم الصبر .

١٩- شق الجيب والثوب ولطم الخد ونتف الشعر والنياحة عند المصائب .

٢٠- الانتحار .

٢١- التسخط وعدم الرضا بالبنات .

٢٢- اعتقاد أن الموت بدون مرض سبب خارج عن القضاء والقدر .

٢٣- قول البعض البقية في حياتك عند التعزية وهذا من الضلال إذ لا علاقة بين ما بقي لك من حياة وما انقضى من عمر غيرك .

٢٤- القول بأن إرادة الشعب من إرادة الله والموت مع الجماعة رحمة. وفي هذا تكذيب بالقدر وإبطال للشرع واحتجاج بها على الفساد وإعجاب بالكثرة[1].

هذه العبارات والأخطاء وغيرها كثير مما يقع على ألسنة الناس وفيها معارضة لقضاء الله وقدره ومخالفة لشرعه .

---

[1] انظر بعض هذه المنكرات والجهالات والعبارات الخاطئة في مجموع فتاوى ابن عثيمين ٣/ ١٣١ . والايمان بالقدر للحمد ص ١٣٩.

الفصل التاسع والعشرون

مالا يخالف القدر

هناك أمورٌ يعتقد البعض أنها تخرج عن حقيقة القدر وفي الحقيقة هي من عين القدر، ومن أمثال ذلك:

١- العمل بالأسباب وعدم اعتقادا أن في ذلك مخالفة لما قضاه الله وقدره، أو للتوكّل ، فالله خلق الأسباب والمسببات وأمرنا أن نأخذ بالأسباب دون الاعتماد عليها، فالتوكل لا يعارض العمل بالأسباب، وترك العمل بها يقدح في العقل والاعتماد الكلي عليها يعارض الشرع .

٢- الدعاء والإلحاح فيه فإن حصول الشيء ووقوعه بالدعاء أو بعده أو به لا يعني أنه لم يحصل بقضاء الله وقدره وعلمه .

٣- الاستخارة : وطلب الله الخير في فعل الشيء أو تركه، وقد يظن البعض أن الاستخارة خارجة عن القدر وهذا في غاية البعد فإنه لن يحصل شيء ولا أمر إلا بقدرة الله وقدره وعلمه وقد كتبه فإذا قدر الله أن فلان يحصل له كذا وكذا لأنه استخاره فيسر له الخير في ما يريد عمله لا يعني أن الله لم يقدره .

٤- معرفة الكسوف ونوع الجنين بالأشعة كل ذلك من الأمور المحسوسة وليست من علم الغيب .

الفصل الثلاثون

هل الإنسان مسيّر أو مخيّر

المسألة الأولى : بدعية هذه المسألة :

هذه المسألة يوردها كثير من المتأخرين، بل وبعضهم يجعل القضاء والقدر هو فهم هذا السؤال والإجابة عنه، وقد أُخذت هذه المسألة من علم الكلام والفلسفة ولم ترد في الشرع ولا عن أحد من السلف، وقد جاء في الشرع وكلام السلف ما يكفي ويشفي، وذكر الأئمة من أهل السنة مسائل القدر إجمالا وتفصيلا حتى انجلى الحق وبانت الحجة وزالت الشهبة، ولو رجع من أراد معرفة هذه المسألة إلى ما ذكره العلماء لما احتاج إلى كلام غيرهم فيما لا عائدة ولا فائدة من وراءه إلا ضياع وتخبط وتناقض .

المسألة الثانية : وجوب الإستفصال في المجملات :

فائدة : هذه المسألة وغيرها من مسائل الاعتقاد في القدر والصفات والواردة على صيغة سؤال مجمل لا ينبغي للسني الإجابة عنها حتى يستفصل عن معناها، لأن أكثر المسائل في العقيدة من المجمل في الكلام انبثقت عن علم الكلام .

وعلى ذلك فمسألة هل الإنسان مسير أم مخير يقال فيها :

ما المقصود بمسير ومخير قبل كل شيء وما معناها ؟

أولا: معنى مسير:

١- إن أُريد بالمسير: من هو داخل تحت ربوبية الله وخلقه ولا يخرج عن قضاءه وقدره وأن كل أفعاله وتصرفاته لا تجري إلا إذا شاءها الله وأرادها .

فنقول : هذا حق وهو مسير على هذا المعنى، ولكن لا نطلقه لأنه لم يرد في النصوص ولوجود من يفهمه على غير هذا المعنى .

٢- وإن أُريد بالمسير : ما تقصده الجبرية وأنه المجبور وهو الذي لا إرادة له ولا اختيار بل هو مجبور .

فنقول : هذا المعنى والمراد باطل ولا يصح إطلاقه على الإنسان، والإنسان ليس بمسير على هذا المعنى .

ثانيا: معنى المخير:

١- أن قصد السائل بالمخير ما هو ضد الجبر وهو من له إرادة حقيقية وقدرة مؤثرة وأنه يفعل ما يشاء وإن لم يكن خارج مشيئة الله، فهذا المعنى صحيح والإنسان مخير على هذا المعنى .

٢- وان قصد السائل بالمخير ما تريده القدرية أن الإنسان يختار فعله دون أن يريد الله ذلك، وأن مشيئة الله لا تنفذ ولا تشمل أفعال الإنسان فالله لا يريد ولا يشاء أفعال العباد، فهذا المعنى لا شك أنه باطل ولا يطلق على الإنسان أنه مخير على هذا المعنى .

المسألة الثالثة : هل يقال الإنسان مسير أو مخير .

بعد الإجابة عن الإجمال السابق وتجلية المسائل نذكر الجواب عنها: نقول على معنى مخير غير ما تريديه القدرية ومعنى مسير على غير ما تريديه الجبرية فهل يقال الإنسان مسير أو مخير .

الجواب : ان الانسان مخير أي له اختياره وقدر وإرادة، ومسيّر حيث أنه داخل تحت قدرة الله وأن الإنسان وإن كان له إرادة وفعل واختيار إلا أنها داخلة تحت مشيئة الله والدليل قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ التكوير: ٢٩.

فقوله: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ ﴾ فيه إثبات أن لهم مشيئة فتدل على أن الإنسان مخير .

وقوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ تدل على أن تلك المشيئة والفعل بقضاء الله وقدره الشامل لكل شيء فالإنسان مسير.

على ذلك فالإنسان مخير ومسير .

أما على ما تريده الفرق الضالة أو من تأثر بهم فالمسير والمخير منتقيه ويقال : الإنسان ليس مسير على ما تريده وتفهمه الجبرية بل مخير في معرض الرد عليهم. والإنسان ليس مخير على ما تريده وتفهمه القدرية بل مسير، أي أن الله يخلق فعله ويقدره وهذا في الرد على القدرية .

المسألة الرابعة : علاقة المسألة بأفعال العباد :

هذه المسألة تقدمت في أفعال العباد وخلاف القدرية والجبرية والرد عليهم .

المسألة الخامسة : اللفظ الصحيح للمسألة :

كان الأولى حين السؤال عن هذه المسألة أن يقال هل الإنسان له قدرة ومشيئة أو لا وهل هي داخلة في مشيئة الله وتابعة لقدرته ، بدل أن يقال هل الإنسان مسير أم مخير حيث تحمل معنى مجمل يحتمل الحق والباطل ويحتاج إلى الاستفصال .

والجواب على ما قدمناه أن الإنسان له مشيئة واختيار وإرادة مقدرة وفعل وهي داخلة في القضاء والقدر أي أن الله علمها وكتبها وشاءها وخلقها فمشيئة الإنسان تابعة لمشيئة الله واقعة بها، فهي مشيئة حقيقية يختار بها وقدرة مؤثرة يفعل بها ولكن لا تخرج عن مشيئة الله وقدره وقضاءه ، وفي هذا رد على الجبرية القائلين ليس له مشيئة حقيقة وقدرة مؤثرة، ورد على القدرية القائلين ليست قدرة العبد وفعله داخلة في قدرة الله ومشيئته والدليل على ما قلناه قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ والحمد لله رب العالمين .

المسألة السادسة : الخلاصة في المسألة :

أن الإنسان مسير ومخير معاً على مذهب أهل السنة .

ويكون معنى "مسير" : أن أفعاله داخلة تحت قضاء الله وقدره ومشيئته وفعله.

ومعنى "مخير" : أن للعبد اختيار وقدرة وفعل ومشيئة .

وليس مسير على مذهب الجبرية .

وليس مخير على مذهب القدرية .

الفصل الحادي والثلاثون

الحكمة من وجود الشرور والمعاصي وإرادة ما لا يحبه الله عز وجل[1]

المسألة الأولى :وجوب التسليم :

هذه المسألة لا يستشكلها سني مؤمن بالرب مقر بالقدر، وإنما تكثر ممن كثرت شبهاته حتى غطت قلبه، ولذلك مما لا ينبغي : السؤال عن الله وصفاته بكيف، ولا أفعاله والقدر بلم، وإنما على المؤمن التسليم والإيمان والإقرار .

المسألة الثانية : منشأ وسبب الخلاف :

لما استشكل هذه المسألة القدرية وأن الله يريد ما يكرهه ولا يحبه، وأنكرت الجبرية المحبة والإرادة الشرعية، استشكلوا الحكمة من وجود السيئات والمعاصي والشرور والآلام والمصائب ولماذا وكيف يريد الله أمرا ولا يحبه؟.

المسألة الثالثة : تقوم هذه المسألة على ثلاثة أسئلة :

١- إبليس لماذا خلقه الله والحكمة في ذلك .

٢- المصائب والآلام لماذا قدرها الله.

٣- الذنوب والمعاصي .

ولماذا لم يكن الكون سليماً من هذه الشرور سالما من كل عيب ولماذا لا توجد الحِكَم دون هذه الشرور .

وقبل أن نذكر بعض الحكم من خلق هذه الامور نبين بعض المسائل .

---

[1] من الكتب التي اعتنت بذكر الحكم في بعض المخلوقات : مفتاح دار السعادة لابن القيم والحجة البالغة للدهولي وشفاء العليل لابن القيم .

المسألة الرابعة : قيام أفعال الله على الحكم :

المقرر في مذهب السلف وأهل السنة أن الله لا يفعل شيء إلا لحكمة وتقدم ذلك، وأن حكمة الله بالغة وأفعاله معللة .

المسألة الخامسة : عدم اشتراط علمنا بالحكمة :

أن عدم علمنا بالحكمة لا يدل على عدم وجودها، أو أن ذكرنا لبعض الحكم لا يدل على إلمامنا بكل الحكم، بل قد نعرف جانب ونجهل أكثر الجوانب، وما ذاك إلا لسعة علم الله وكمال حكمه وتدبيره وأفعاله سبحانه وتعالى .

المسألة السادسة : علاقة المسألة بما سبق :

تقدم في مسألة سابقة مستقلة علاقة المحبة بالمشيئة والإرادة، فهذا البحث فرع لذلك الأصل والذي يخالف فيه كلا الطائفتين القدرية والجبرية .

المسألة السابعة : المخالفون في المسألة :

الجبرية ادعت أن كل شيء في الوجود واقع بإرادة الله ومحبته ولا يوجد شيء موجود لا يحبه الله ولا يرضاه.

والقدرية ادعت وجود أشياء لا يريدها الله ولم يخلقها، بحجة انه لا يحبها ولا يرضاها وتقدم قولهم وشبهاتهم والرد عليها.

المسألة الثامنة : موقف القدرية من المسألة :

على ما تقدم يصبح القدرية لا يذكرون لهذه الأمور حكم لأن الله لم يخلقها أصلا. وأما عند الجبرية فكل شيء يحبه الله، إضافة لإنكارهم الحكمة والتعليل ومعلوم قولهم .

المسألة التاسعة : أقسام المراد والمحبوب :

يجب عند الجواب عن الحكمة من إرادة الله ما لا يحبه ، ومعرفة المتقرر في كل محبوب ومراد. أن يعلم أي مراد في الوجود لا يخرج عن أحد قسمين :

١- مراد لذاته : كالعمل الصالح ومحبة الخير .

٢- مراد لغيره : ومثاله في المخلوق شرب الدواء المر طلبا للشفاء، والسفر والغربة طلبا للرزق وغير ذلك .

وبهذا التقسيم يعلم أن كل ما يقدره الله مراد له ولأجل حكمه وخير، ولا يشترط توفر الخير في ذات المراد وإنما قد يكون وجوده في لوازمه، فالمعاصي وإبليس والمصائب يريدها الله من النوع الثاني المراد لغيره، كما ستعرف ذلك في سياق شيء من الحكم المتعلقة بالمحبوب لغيره .

المسألة العاشرة : الحكمة من خلق المعاصي ووجود الكفر وكثرة الكفار:

من الحِكَم في خلق المعاصي ليحصل بين الناس ولاء وبراء لأجل الله ودعوة وجهاد وتدافع وصبر وإرغام للشيطان بتجنبها وهذه أعظم العبادات وأجلها.

ولكي تحصل التوبة والله يحب التوابين، فالمذنب إذا تاب قد يكون أحب إلى الله ممن لم يذنب فاعرض اتكالا على عمله وترك دعاء الله والخوف منه، وفي الحديث:" لو لم تذنبوا لأتى الله بأقوام يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم" والله يحب أن يتفضل على عباده بالتوبة والمغفرة.

وليتعرف العبد على سعة رحمة الله وحكمه وستره وعفوه وقبول التوبة .

ولكي يعرف العبد حاجته لله ويحذر من الكفر والمعاصي، ويعلم حفظ الله له .

هذه بعض الحكم وما خفي أعظم وأكثر . فكيف يدعي بعد ذلك مـدعي عـدم الحكمة من خلق الذنوب فكم من فائدة وحكمة من وجودها، وهذا مما يزيد في وضوح وثبات المذهب الحق مذهب أهل السنة .

المسألة الحادية عشر: الحكمة من خلق إبليس :

حتى يظهر للعباد قدرة الله على خلق المتضادات والمتقابلات، وهذا دليـل عـلى كمال قدرته وملكه، وأيضا استخراج ما في البشر من بذور الخير والشر، وحتـى تظهر آيات الله مثل إهلاك الكـافرين وكرامـات المـؤمنين، وليحـصل الابـتلاء والصبر وتجنب وساوسه، ولتحصل عبادة الدعاء والالتجاء إلى الله وهذه عبادة لو لم يوجد الشيطان والشر لما كانت موجودة، ولتكثر العبادات القلبيـة المقربـة لله، وحتى تظهر آثار صفاته مثل الجبار والمعز والمذل والقهار فهذه الصفات لا توجد إلا إذا وجد الشر وأهله .

المسألة الثانية عشر: الحكمة من وجود المصائب والآلام :

الحكم فيها كثيرة ولا تخفى فمنها: استخراج عبودية الصبر والإيمان بالله وبقدره والرضا وحصول الأجر ورفعة للـدرجات وكتابـة الحـسنات والعلـم بحقـارة الدنيا وهوانها، وتذكير الناس بنعم الله وفضل الله وكثرة خلقه وسعة حكمته إلى غير ذلك من الحكم، فلله الحكمة البالغة ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الفصل الثاني والثلاثون

القدر المطلق الثابت والمعلق المتغير[١]

(المحو والإثبات)

المسألة الأولى : أسماء المسألة :

١- القدر الثابت والمتغير .

٢- القدر المطلق والمعلق .

٣- المحو والإثبات في القدر.

المسألة الثانية : النصوص الواردة في المسألة :

١- قال تعالى : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ الرعد: ٣٩ .

٢- قال تعـالى : ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ نوح: ٤ .

٣- قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ فاطر: ١١.

٤- قال صلى الله عليه وسلم : " من سره أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثـره فليصل رحمه " رواه مسلم .

٥- وقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر وإن الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها ". رواه الترمذي وابن ماجه .

---

[١] انظر هذه المسألة في مجموع الفتاوى ٨/ ٥١٧، ٥٤٠ . القضاء والقدر للاشقر ص٦٦ ، القضاء والقـدر المحمـود ص٣٩٥ . الايمان بالقدر الحمد ص١٢٥ .

٦- حديث الميثاق وفيه أن الله جعل عمر داود عليه السلام مائة بعدما زاده أربعين سنة وكان عمره ستين .

المسألة الثالثة : تحت هذه النصوص مسائل ومباحث :

الأولى : هل هذه الآيات والأحاديث الدالة على المحو والإثبات وزيادة العمر ونقصانه تعارض القدر وكونه لا يتغير وهل تعارض ما جاء في بعض النصوص مثل ما جاء في :

١- قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ يونس: ٤٩ .

٢- قوله صلى الله عليه وسلم:" ولو كان كل شيء سابق القدر لسبقته العين " رواه مسلم.

٣- وقوله صلى الله عليه وسلم لأم حبيبة :" قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يعجل شيء قبل محله ويؤخذ شيء عن محله " رواه مسلم.

الثانية:هل ما في القضاء والقدر والمكتوب واللوح يتغير ؟

الثالثة:ما المراد بالمحو والإثبات وأين يكون ؟

الرابعة:هل زيادة الأعمار حسية حقيقية أم أنها معنوية بمعنى البركة أو المعنيين؟

الخامسة:هل الملائكة أو غيرهم يعلمون بهذا التغيير ؟

هذه الأسئلة الإجابة عنها في الجمع بين الآيات والنصوص ولا يوجد تعارض مطلقا، وسنذكر أقوال أهل العلم ثم نورد الجواب عن هذه المسائل ونختم ببعض الفوائد .

المسألة الرابعة : أقوالٌ في المسألة :

قبل أن نورد القول الصحيح في المسألة والتحقيق في النصوص نعـرض لـبعض أقوال العلماء :

١- بعض أهل العلم يقول أن القدر قد يتغير وبعضهم قال يمكن أن يتغـير إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة .

٢- وبعض أهل العلم قالوا أن القدر لا يتغـير والأعـمار لا تزيـد حـسيا وإنـما معنويا بمعنى البركة وكذا الـرزق وأن المحـو والإثبـات المقـصود بـه الناسـخ والمنسوخ والآيات في ذلك فسروها على هذا المعنى .

٣- وقال البعض أن كل تغير ونقص وزيادة ومحو وإثبات إنما هو في الـصحف التي في أيدي الملائكة .

هذه بعض الأقوال كما يوجد في المسألة أقوالٌ أخرى لا نريد الإطالة بتتبعها إلا أن مما أجمع عليه العلماء أن كل شيء واقع بعلم الله وبقضائه وقدره وأن علم الله وقدره شامل لجميع الخلق ولا يخرج شيء عن علم الله .

المسألة الخامسة : الجواب الصحيح عن المسألة :

الجواب الأول :

أن الآيات والأحاديث الدالة على زيادة الأعمار والمحـو والإثبـات لا تعـارض القدر بل هي من القدر، فمثلا هذا العبد إن تصدق ووصل رحمه طال عمره إلى كذا، وإن لم يفعل نقص عمره إلى كذا، أو انه سيصل رحمه فيزيد عمره ويبـارك فيه ولو لم يصل رحمه لكان عمره كذا أي قل، وكل ذلـك مقـدر والله يعلـم انـه

سيصل أو لا ؟ فكان من باب ترتيب السبب على المسبب فإن الله قدر عمره ٦٠ ولأجل انه سيصل رحمه زاده الله ٢٠ فصار ٨٠ سنة، والله قد علم ذلك انه سيصل رحمه وأن عمره يصير ٨٠ . وهذا معنى كون الله يعلم ما كان وسيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون وهو المعدوم الذي لو صار موجودا لعلم الله حقيقته، مثال ذلك السفر يعلم الله أن فلان سيسافر ويحصل له كذا وكذا ويعلم الله أنه لو لم يسافر مع أنه لن يكون يعلم ما الذي سيقع من موت أو حياة فعلم الله شامل .

ثم يطرأ بعد هذا الجواب مسائل وهي هل هذه الزيادة المقدرة معروفه عند الملائكة وهل تكتب عند النفخ في الروح أم تكتب الأصلية ؟

الله أعلم بذلك فهذه أمور غيبية .

وهذا الجواب الذي ذكرناه رجحه الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله حيث قال : "والأظهر أن جميع أنواع القدر معلق ومطلق كلها موجودة في أم الكتاب فما كان منها معلق على أسبابه وجد عند وجود السبب وما كان غير معلق وقع في وقته لا يتقدم ولا يتأخر".

الجواب الثاني : منقول عن شيخ الإسلام إبن تيميه :

أن القدر قدران : مطلق مثبت مبرم وقدر معلق مقيد .

النوع الأول : القدر المطلق والمثبت والمبرم :

وهو الذي يعلمه الله وهو ما في اللوح المحفوظ وهذا ثابت ولا يتغير ولا يطلع عليه أحد .

النوع الثاني : القدر المقيد أو المعلق :

وهو ما في كتب وصحف الملائكة، وهذا الذي يقع فيه المحو والإثبات، والمعلق بسبب أو شرط يشمل النوعين الأعمار والأرزاق والآجال .

فالأجل أجلان :

أجل مطلق يعلمه الله، وأجل مقيد، فإن الله يأمر الملك أن يكتب لعبده أجلا فإن وصل رحمه فيأمره أن يزيده في أجله ورزقه والملك لا يعلم أيزاد له في ذلك أم لا لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر ، فإذا جاء الأجل فلن يتقدم ولن يتأخر .

وقل مثل ذلك على الرزق منه المطلق والمقيد .

وهناك جواب ثالث : وهو التفريق بين الأجل والعمر :

الفرق بين الأجل والعمر : عند بعض أهل بعض العلم :

الأجل لا يتغير ولا يقبل الزيادة والنقص: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ الأعراف: ٣٤ ﴿ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ النحل: ٦١ وقوله ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ نوح: ٤، وقوله عليه الصلاة والسلام : " إنما هي آجال مضروبة ".

العمر : قد يتغير ويزيد وينقص والدليل : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ فاطر: ١١ وقوله صلى الله عليه وسلم : " ولا يزيد في العمر إلا البر " . وهذا التفريق جيد ويحمل عليه الجمع بين الآيات والآثار[1].

---

[1] هذه الأجوبة الثلاثة لا تعارض بينها .

المسألة السادسة : أسباب زيادة العمر :

الأمور الواردة في الحديث التي تزيد في الرزق والعمر :

صلة الرحم ، الدعاء ، البر .

المسألة السابعة : أجل المقتول وقول القدرية فيه :

المقتول مات بقدر الله واستوفى أجله .

وخالفت المعتزله فقالت من مات قتلا انقطع أجله وعمره .

وهذا باطل ويلزم منه إنكار علم الله بالآجال وكتابتها في اللوح المحفوظ .

المسألة الثامنة : أقسام زيادة العمر :

مسألة : زيادة العمر قسمان :

زيادة حسية بمعنى زيادة سنوات .

وزيادة معنوية بمعنى البركة .

وكليهما مقصودة فإذا وصل الرحم زاد عمره وحصل فيه البركة .

الفصل الثالث والثلاثون

الغيب وعلاقته بالقدر

من الإيمان بالقضاء والقدر نسبة العلم الشامل لله وحده، وسلبه عمن سواه.

والعلم قسمان :

موجود وهو علم الشهادة ومنه علم الشريعة.

ومفقود وهو علم الغيب والقدر الذي لا يعلمه إلا الله ، قال تعالى : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ النمل: ٦٥ ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الجن: ٢٦ وقال عن أفضل خلقه ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ الأعراف: ١٨٨ ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ الأنعام: ٥٠ .

وإذا تبين ذلك فهناك حكمان :

الأول: أن كل من ادعى علم الغيب لنفسه أو لأحد غيره فهو كافر مرتد، وممن يدعيه السحرة والكهان والعرافين والمنجمين وغلاة الصوفية يدعونه للأولياء.

الثاني: ومن نفاه عن الله فهو كافر،وممن نفاه غلاة القدرية القائلين لا يعلم الله بالأمر إلا إذا وقع، والفلاسفة القائلين الله يعلم بالكليات دون الجزئيات .

تنبيه: أمور توهم أن فيها معرفة للغيب منها :

السحر والكهانة والعرافة،معرفة جنس الجنين من ذكر أو أنثى، معرفة الأرصاد والأجواء والكسوف، العيافة والقيافة ومعرفة محل الماء.

المسألة الأولى: السحر والكهانة والعرافة والتنجيم :

الكهانة: الإخبار بما في المستقبل من حوادث عن طريق الاستعانة بالشياطين.

والعرافة الإخبار بمكان المسروق والضالة ونحوه .

وليست من الغيب في شيء لأن الجن تسترق السمع من السماء الدنيا ثم تخبر به الكاهن والكاهن يخبر الناس مدعيا معرفة الغيب، وفي الحقيقة علم الخبر قبل الشيطان الملائكة وخرج من كونه علم الغيب إلى علم الشهادة وكونه غيب عنا لا يدل على أنه غيب مطلق فقد يعلم أهل جهة بأمر ويجهله آخرون فيكون غيب نسبي .

والعرافة كذلك فالعراف يرسل الشيطان للبحث عن مكان الأشياء المسروقة والمفقودة وليس هذا علم للغيب .

ولذلك يشترك الساحر والكاهن والعراف والرمال والمنجم وغيرهم في الكفر من جهتين :

إدعاء علم الغيب

والإستعانه بالشياطين ولا يكون ذلك إلا بالشرك بالذبح لهم أو نحو ذلك .

المسألة الثانية : معرفة درجات الحرارة والطقس والمطر والريح والكسوف:

فهذه واضحة أيضا فهي مبنية على مراقبه ودراسة وتتبع، فمثلا إذا هبت الريح في الشرق باتجاه الغرب اليوم تصل إلينا غدا بأقيسة وحسابات، وقل مثل ذلك في الكسوف ، ثم إن ما يتوصل إليه قد لا يتحقق فيوجب ربطه بالمشيئة .

المسألة الثالثة : علم الأجنة :

وهل هناك تعارض بين استئثار الله بعلـم مـا في الأرحـام وبـين علـم الأطبـاء بذكورية الجنين وأنوثته في الرحم ، والجواب من وجوه :

١- أن علم الله بما في الأرحام ليس معنـاه الاقتـصار عـلى مجـرد معرفـة جـنس الجنين ذكراً أم أنثى بل يشمل معرفة حاله ولونه وحجمه ووقت خروجـه ومـا هو أخفى من ذلك من رزقه وتفاصيل الرزق قلة وكثرة حلة وحرمـة، وعملـه وشقاوته وسعادته .

٢- ثم أين العلم بجنس الجنين منذ الأزل وحتى تخلقه والجنين منذ كونه نطفـه وماء إلى خروجه مراحل وبـالأخص مرحلـة النطفـة والعلقـة والمـضغة وغـير المخلقة ومن النفخ فيه الروح .

والخلاصة : أن الطب لا يعرف بأجهزته وأشعته إلا بعد التخلق، إذاً مادام قـد تخلق إلى صورة إنسان ذكر أو أنثى خرج من طور الغيب إلى الشهادة فلو خـرج من بطن أمه لبان حاله فرؤيتهم له مثل رؤية العظـام بالأشـعة لـيس مـن علـم الغيب وأما قبل التخلق فلم يحط أحد به علما إلا الله سبحانه وتعالى[1].

٣- أنه كثيراً ما يخطئ الطب في معرفة جنس الجنين ويهم كثيرا وهذا دليل عـلى عدم العلم بالغيب .

---

[1] انظر مجموع فتاوى ابن عثيمين ٣ / ٧٧ . والإيمان بالقدر الحمد ص ١٣٤

المسألة الرابعة : العيافة والقيافة والتبصير :

العيافة والقيافة من علوم العرب وهي معرفة الأنساب وقص الآثار والتبصير ومعرفة مواقع الماء تحت الأرض، وهي معلومة بمقدمات عقلية وحسية وشيء من الفراسة، وهذا كله ثابت في العقل والشرع، وليس من إدعاء علم الغيب فهو من علم الشهادة ولكن يخفى على الكثير كخفاء كثير من الحرف والصناعات على غير الصناع ، بل وحتى لو تخلله استعانة بالشيطان أو الجن فإنه لا يخرج عن كونه من علم الشهادة والأمور المحسوسة .

الفصل الرابع والثلاثون

التكليف وعلاقته بالقدر

المسألة الأولى: تعريف التكليف :

لغة من الكلفة وهي المشقة والتحمل .

واصطلاحا : مقتضى خطاب الشرعي بأمر أو نهي . ويشمل خمسة أحكام : الواجب ، والمحرم ، والمستحب ، والمندوب ، والمكروه ، والمباح .

المسألة الثانية: الحكمة من المشقة في التكليف :

الابتلاء والاختبار والامتحان :

فمن حكمة الله وضع الأمر والنهي ليميز بين عباده الطيب منهم والخبيث، بين من يستحق نعيمه وثوابه والجنة ومن يستحق عقابه وعذابه .

المسألة الثالثة: مدار التكليف والخلق على العبودية:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦.

المسالة الرابعة: أركان التكليف :

المكلِّف: وهو الله الحاكم سبحانه. والمكلَّف: وهو الإنسان المحكوم عليه. والتكليف وهو الحكم . والمكلَّف به: وهو الشرع والعبادة والمحكوم به وفيه.

المسألة الخامسة: شروط التكليف :

التكليف له شروط منها الخاص بالمكلف ومنها الخاص بالفعل المكلف به .

مثل العقل والقدرة وإمكانية الفعل المكلف به ودخوله في الطاقة وغير ذلك .

المسألة السادسة: انقسام الدين إلى قسمين :

الأول: الشرع والتكليف به والأحكام التعبدية وهذا من علم الشهادة .

الثاني: الغيب والقدر والأخبار وهذا من علم الغيب .

فالدين متضمن أحكام وأخبار ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ الأنعام: ١١٥ ، قال ابن عباس صدقا في الأخبار وعدلا في الأحكام .

المسألة السابعة: واجب العبد وعلاقته بالتكليف :

الأول : الإيمان به وأنه من عند الله .

الثاني : الرضا به والتسليم والعلم .

الثالث : الالتزام به وامتثاله والعمل به والصبر عليه .

المسألة الثامنة: علاقة التكليف بالقدر :

التكليف هو أمر الله وشرعه وهذا حصل بحكم الله وحكمته وبعلمه الكامل بما يصلح وقد كتب ذلك وأمر به فهو داخل في القضاء والقدر، فالصلاة مثلا قدرها وقضاها فيجب فيها من الإيمان والتسليم ما يجب في القضاء والقدر .

ولذلك هناك ترابط وثيق بين الشرع والقدر وإليك أوجه المقارنة والفرق بينهما: فالشرع متعلق بفعل العبد، والقدر متعلق بفعل الله وقد امتحن الله عباده باتباع شرعه والرضا به، والقدر من أمور الغيب والشرع من أمور الشهادة .

ويدخل الشرع والتكليف في القدر من جهات :

١- أنه حصل بعلم الله وقدره ومشيئته وكتابته.

٢- أنه يجب الرضا والتسليم به، فيؤمن بالشرع ويرضى به ثم يلتزم به ويتبعه .

المسألة التاسعة: دخول التكليف في مواضع قدرية :

١- التكليف له علاقة بالعلل والحكم وارتباطها بأفعال الرب .

٢- التكليف له علاقة بالاستطاعة وآلة التكليف عند المكلف .

٣- وله علاقة بالأخذ بالأسباب.

٤- وله علاقة بمبحث هل يكلف الله بما لا يطاق .

٥- وهل في التكليف أمر مكروه وشر في ذاته أو شر على المكلف .

٦- وله علاقة بمبحث التحسين والتقبيح وفعل الأصلح .

٧- وله علاقة بالعدل الإلهي وانتفاء الظلم عنه وحصوله بأكمل وجه .

٨- وله علاقة بالإرادة الكونية والشرعية التكليفية[1] .

المسألة العاشرة: هل المال الحرام المكتسب بسرقة وظلم يدخل في عموم الرزق[2] :

الرزق نوعان :

الأول: ما أباحه الله وشرعه وهذا خاص بالحلال ولا يدخل الحرام فيه .

الثاني: عموم ما يتغذى العبد به وما قدره الله وكتبه، وما يدخل تحت المشيئة والخلق وهذا عام يشمل الحلال والحرام.فالمال الحرام والرزق الحرام رزق ولكنه محرم منهي عنه .وهو رزق من ناحية أن الله قدره وكتبه .

المسألة الحادية عشر :هل المدح ينافي القدر وهل يمدح العبد على ما قدره الله عليه :

لاتنافي بين المدح والقدر فالعبد يمدح على فعله، وهو حاصل بقدر الله وأرادته.

[1] انظر التكليف في ضوء القضاء والقدر .

[2] انظر : مجموع الفتاوى ٨/ ٥٤٥ .

مسألة : حال العبد مع المقدور ومع المأمور :

١- له في المقدور حالات قبل القدر وبعده :

حال العبد قبل القدر المقدور : عليه أن يستعين بالله ويتوكل عليه ويدعوه .

حال العبد بعد القدر المقدور : عليه أن يصبر عليه أو يرضى به، وإن كان بفعله وهو نعمة حمد الله على ذلك .

٢- حال العبد مع المأمور :

حال العبد قبل فعل المأمور : العزم على الامتثال والاستعانة بالله.

حال العبد بعد الفعل : الاستغفار من التقصير وشكر الله على ما أنعم به من الخير[١] . وهذه الأحوال الأربعة جمعت في خطبة الحاجة: " نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه .." وتقدمت هذه المسألة في واجب العبد تجاه القدر .

مبحث : علاقة القدر بقيام الحجة :

يعتقد البعض أن القدر وحصوله وحتميته يخالف قيام الحجة على العباد .

والحق أن الله وإن كان قد قدر الكفر على الكافر وعلمه وشاءه، إلا أنه أقام الحجة عليه بإرسال الرسل وجعل له عقل يميز وإرادة وقدرة يختار بها، وفطره على التوحيد، وأقام البراهين على ذلك، ولكن الكافر لشقائه وسوء مراده اختار الكفر، وهذا الاختيار لا يخرج عن قدر الله وقضاؤه وخلقه ومشيئته: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ التكوير: ٢٩.

---

[١] مجموعه الفتاوى ٨/ ٧٦ .

الفصل الخامس والثلاثون

الفطرة وعلاقتها بالقدر[1]

المسألة الأولى: تعريف الفطرة :

في اللغة بمعنى الخِلْقَة والابتداع والاختراع والشق والابتداء.

في الشرع : ما يولد عليه الإنسان من الدين والإسلام، فإن ولد بين أبوين مسلمين استمر على فطرته الطيبة،، وإن ولد بين أبوين غير مسلمين فإنه يكتسب منهما دينهما ويخالف الفطرة .

المسألة الثانية : أدلتها :

قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الروم: ٣٠.

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " .

المسألة الثالثة : علاقة الفطرة بالتوحيد :

الفطرة من الحجج على توحيد الله .

المسألة الرابعة : علاقة الفطرة بالقدر :

القدر يثبت بالفطرة ويعرف بها ، والفطرة في كل إنسان، وهي تدل على توحيد الله والقضاء والقدر، فالكل يعلم أن الله يقدر، فطرة في الناس ، بل حتى

---

[1] انظر موضوع الفطرة في شفاء العليل ص ٤٨٦ . ودرء التعارض ٨/ ٣٧٨ ، ٤٢٠ – ٤٤٤ ، والفطرة للقرني ، وفطرية المعرفة.

المجوس والفلاسفة وغلاة القدرية يقرون بأنهم أوجدوا بقدر الله فالقدرية والفلاسفة مع إنكارهم العلم إلا أنهم أثبتوا أصل القضاء والقدر .

وجاءت بعض الأقوال المفسرة للفطرة بحقيقة القدر وما خلق الإنسان عليه.

والحقيقة أن الفطرة حصلت بعلم الله وكتابته ومشيئته وخلقه، فكتب وشاء وخلق الناس على الإسلام وعلمهم ذلك، فلها علاقة بمراتب القدر وأركانه، ولها علاقة بالتقادير وأنواعها بل عند البعض الفطرة إحدى التقادير .

المسألة الخامسة : علاقة الفطرة بالإرادة :

الفطرة هي الدين والإسلام فهي موافقة للإرادة الشرعية، فالله أراد الدين شرعا، والمولود جعل الله فيه الفطرة على الإسلام شرعا وكونا وقدرا. فكل مولود مفطور قدرا ومقدر عليه انه محب لفاطره حتى يصرف من قبل أبواه ولو ترك بدون داع وصارف لتوجه للدين .

فالفطرة متعلقة بالإرادتين الكونية القدرية والشرعية الدينية .

المسألة السادسة: علاقة الفطرة بالهداية والتوفيق :

فطر الله الناس على الهداية العامة وما يصلح لهم ﴿ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ الأعلى: ٣، كذا هداية الدلالة فالفطرة من قبيل هداية الدلالة ، الدلالة للدين والإسلام .

المسألة السابعة: لا تعارض بين الفطرة والقدر:

لا يفهم من حديث " كل مولود يولد على الفطرة " أن المقادير غير مكتوبة ولا مقدرة فلا تعارض بين الفطرة وبين المقادير المكتوبة.

وذلك أن الله تعالى شاء وقدر أن يولد فلان على الفطرة فيحرفه أبـواه عنهـا إلى دينهما ، والآخر يولد ويموت على الإسلام، والآخر يولد وينشأ على الإسلام ثم ينحرف ويرتد،وربما يرجع ويتوب ويسلم .

فكل هذا بقضاء الله وقدره، ولم يكن إلا بمشيئته وخلقه، وقد علم الله ذلك كله وكتبه علينا، فالفطرة داخلة في عموم القدر ومن جملة المقادير .

المسألة الثامنة : الأقوال في الفطرة :

القول الأول: أن الفطرة هي الإسلام وقد قال بذلك أبو هريـرة رضي الله عنـه حيث قال: أقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ ، ففسر الحديث بالآية وجعل معنى لا تبديل لخلق الله دينه الذي هو فطرة الله .

وهذا القول قول عامة السلف وأكثر المفسرين . وقد نصر هذا القول ابن القيم وذكر في تأييده ستة عشر وجها في شفاء العليل . وهو الصحيح .

القول الثاني: أن الفطرة هي الخلقة واعتمدوا على معناها في اللغة .

وهذا القول قريب من الأول لأن الناس خلقوا وفطروا على الإسلام .

القول الثالث : أن الفطرة بمعنى البداءة التي ابتدأهم عليها من الحياة والمـوت والسعادة .

القول الرابع: أن الفطرة فطرتان :فطـرة خـير وفطـرة شر، نـاس فطـرهم عـلى الإيمان والمعرفة وآخرون على الإنكار والكفر .

القول الخامس: أن الفطرة هي الميثاق وهذا قريب من القول الأول لأن الميثـاق كان على الإسلام .

القول السادس: السلامة في الخلقة وعدم العيب فيها، وهـذا باطـل . لأن هـذا ليس دين الله .

القول السابع: أن الفطرة ما يحدث للإنسان في حياته مـن كفـر وإيـمان . وهـذا القول يخالف صريح الآية .

وجميع هذه الأقوال قال بها طوائف من أهل السنة والسلف . والـصحيح منهـا القول الأول والذي تقتضيه الآية والحديث .

المسألة التاسعة: أقوال المخالفين في الفطرة :

الطائفة الأولى: القدرية :حيث فهموا الحديث على مذهبهم الفاسد وسيأتي .

الطائفة الثانية: المتكلمون من أشاعرة وماتريدية ومعتزلة :

حيث قالوا معرفة الله وتوحيده أمر مكتسب يحصل بالنظر وليس أمرا ضروريا فطريا [1].

الطائفة الثالثة : الفلاسفة التجريبيون والمنويون :

أنكروا الفطرة فلا يؤمنون إلا بما هو مشاهد أو ما يحصل بالحس والتجربة .

المسألة العاشرة : مذهب القدرية في الحديث والفطرة :

يحتج القدرية على مذهبهم بهذا الحديث[2] أن الله لم يخص المـؤمن بمزيـد الهدايـة وأن الكافر يضل نفسه وأن أفعال العباد وكفرهم ليس مقدر ولا مخلوق.

---

[1] انظر درء التعارض ٩/ ٤٤ . والفطرة لعلي القرني ص٢٨٩ .

[2] انظر شرح الأصول الخمسة القاضي عبد الجبار ص٤٨٢ .

والحق أنه لا حجة لهم بالفطرة ولا في أحاديثها، ويرد عليهم قوله صلى الله عليه وسلم: " الله أعلم بما هم عاملين " وليس في الأحاديث أن الله لم يثبِّت المؤمن ويوفقه وإنما يبين نوع من أنواع الهداية وهي الدلالة .

وفي الحديث رد عليهم في زعمهم :

وذلك بأن الله خالق لأفعال العباد، وأن الله قدَّرها، حيث خلق الفطرة في كل إنسان والرد عليهم ورد في مواضعه من هذا الكتاب .

المسألة الحادية عشر : أطفال المشركين :

يولد أولاد المشركين على الفطرة، فيصرفهم آبائهم عنها حتى يخالفوا الفطرة .

وإذا مات الطفل قبل البلوغ فمن أهل العلم من يحكم له بالجنة لأنه على الفطرة[1].

ولأطفال المشركين أحكام تخصَّهم في الدنيا مثل عدم قتالهم وقد جاء النهي عن قتلهم كما في حديث الأسود بن سريع في المسند .

وأحكام تخصهم في الآخرة ولهم أحكام دنيوية يشتركون فيها مع آبائهم مثل عدم الصلاة عليهم والتسمية بالكفر ونحوه .

---

[1] اختلف أهل العلم في مصير أطفال المشركين إذا ماتوا قبل البلوغ على أقوال ثمانية ذكرها ابن القيم في طريق الهجرتين : حيث قيل أنهم في الجنة وقيل أنهم يمتحنون وقيل أنهم خدم أهل الجنة وقيل يصيرون ترابا وقيل يدخلون النار مع آبائهم ، وقيل الله اعلم بما كانوا عاملين كما ورد في الحديث وقيل مصيرهم إلى الله إن شاء عذبهم او يدخلهم الجنة وقيل غير ذلك .

المسألة الثانية عشر : معنى ولادة الإنسان على الإسلام :

لا يفهم من ذلك أنه متى خرج تعلم الدين، وإنما المراد محبته لفاطره وإقراره له بربوبيته وإلوهيته ولا يشترط قبوله لذلك الإقرار .

وفي ذلك الحديث :" خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين" .

المسألة الثالثة عشر : معنى التهويد والتنصير :

أي أن الأبوين يدعون أبناءهم ويزّينان الكفر ومخالفة الفطرة حتى يصرفانه ويحرفانه، وليس مقدورهم الإضلال حقيقة، لأن الإضلال والهداية بيد الله، وهو الذي بمعنى التوفيق والخذلان، وللإنسان قدرة في هداية الدلالة وضلال الدلالة يدلان على الكفر . أما إدخاله في الكفر وإخراجه من الإسلام والعكس بإدخاله في الإسلام فهذا من خصائص الله وحده .

الخاتمة

إلى هنا ينتهي ما أردنا جمعه وتحقيقه في هذا الباب العظيم (قـضاء الله وقـدره)، وقد جمعت بفضل الله بـين صـوادره ومـوارده وشـوارده وحـواضره وجلائلـه ودقائقه، فما كان فيه من صواب فمن الرحمن، وما كان فيه من خطأ فمني ومـن الشيطان، والله غافر الزلات ومقيـل العثـرات وحـده . والله اعلـم وصـلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين .

الفهرس